12 (1365/66 = 1946)

« السنة الثانية عشرة »

العدد الأول

(مارس سنة ١٩٤٦ — ربيع الثانى سنة ١٣٦٥)

صحيفة دار العلوم

ع (ح ١٩٣٤)

تصدرها « جماعة دار العلوم »

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب عنانه بك

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

الاستاذ بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً

خارج القطر ..... ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

UNIV. BIBL. TÜBINGEN

15
2E 83

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق فى شعر شوقى

للأستاذ على النجدى ناصف

المدرس بدار العلوم

يلقب شوقى (رحمه الله) بشاعر الأخلاق ، كما يلقب حافظ إبراهيم بشاعر الوطنية ، والمتنبي بشاعر الحكمة ، وابن أبي ربيعة بشاعر الغزل ، وكما يلقب آخرون بألقاب أخر .

والمفهوم أن هؤلاء وأولئك لم يمنحوا ألقابهم عبثاً ، ولم يؤتوها عفواً ، ولكن لأنهم صنعوا للأغراض الشعرية التى اشتهروا بها وأضيفوا إليها مالم يصنع أحد من الشعراء .

فهل ترى شوقى وهو الذى يعنينا الآن - قد صنع للأخلاق مالم يصنع الشعراء ، ووصل شعره فيها إلى مالم يصل إليه شعر سواه ؟ هذا ما أردنا بيانه وتفصيل الحديث عنه فى هذا المقال .

ولا بد لكى نبلغ غايتنا من أقصد طرقها وأبعدها من الالتواء والشطط أن نقيم البحث عن دعائمه الخمس الآتية :

«١» — الخلق الفاضل كما يصوره شوقى .

«١» — مبلغ تصويره له من الفن والفلسفة .

«٣» — موازنة بينه وبين غيره فى ذلك .

«٤» — الرأى فى سبب تلقيبه بشاعر الأخلاق .

«٥» — نقد وتحليل .

(١)

أما شعر شوقى فى الخلق الفاضل فها هو ذا :

قال من نهج البردة :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

ومن قصيدة الأزهر :

زمن المخاوف كان فيه جنابهم حرم الأمان وكان ظلهم الذرا

من كل بحر فى الشريعة زاخر ويريكه الخلق العظيم غضنفراً

ومن قصيدة تكريم واصف غالى باشا :

إنما واصف بناء من الأخـ ـلاق فى دولة المشارق عالى

ومن قصيدة فى تهنئة والى مصر المرحوم عباس حلمى ببعض الأعياد .

والصدق أرفع ما اهتز الملوك له وخير ما عود ابنا فى الحياة أب

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن قصيدة فى استقبال طيارين عثمانيين :

إذا المقاتل من أخلاقهم سلبت فكـــل شىء على آثارها سلبا

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولت مضوا فى اثرها قدما

ومن قصيدة العلم والتعليم :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

ومن قصيدة ذكرى المولد :

بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيبا وللأخلاق أجدر أن تهابا

فلولاها لساوى الذئب ليثا وساوى الصارم الماضى قرابا

ومن قصيدة انتصار الأتراك فى الحرب والسياسة

وما السلاح لقوم كل عدتهم حتى يكونوا من الأخلاق فى أهب

لو كان فى الناب دون الخلق منقبة تساوت الاسد والذؤبان فى الرتب

ومن النشيد القومى :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

ومن قصيدته بعد المنفى :

وليس بعامر بنيان قوم إذا كانت نفوسهم خرابا

ومن قصيدة الاعتداء على المغفور له سعد زغلول .

وأين من الخلق حظ البلاد إذا قتل الشيب شبانها

وأين من الريح قسط الرجال إذا كان فى الخلق خسرانها

ومن قصيدة مملكة النحل :

مخلوقة ضعيفة من خلق مصوره

ياما أقل ملكها وما أجل خطره

قف سائل النحل به بأى عقل دبره

يجبك بالأخلاق وه ى كالعقول جوهره

تغنى قرى الأخلاق ما تغنى القوى المفكره

ويرفع الله بها من شاء حتى الحشرة

هذا مايقول شوقى عن صاحب الخلق الفاضل وشأنه فى الناس ، وعن الخلق الفاضل نفسه وأثره فى حياة الأفراد والجماعات ,

فأما صاحب الخلق الفاضل فما زادكما ترى — على أن شبهه بالاسد هيبة وبأسا وبالبناء العالى عظمة وإشرافا . وأما الخلق الفاضل فيشبهه بأساس البناء ، وسلاح المحارب وبالركن الركين ، والريح العظيم . وهى صور متقاربة تقل فيها الألوان ، وتضعف الفروق ، ويهون الخلاف . وماذا عسى أن يكون من فرق أو خلاف ذى بال بين أساس البناء وركنه . أو بينهما وبين البناء نفسه أو بين الاسد والمحارب فى شكته ؟

وليس يكفى فى الدفاع عن شوقى هنا أن يقال : ان لوحدة الموضوع دخلا فى ذلك ، لأنها قيدت خياله وحدت من تفكيره ، فهذا المدح فى الشعر العربى على قلة صفاته واشتباك بعضها ببعض — قد استطاع الشعراء أن يأتوا فيه لكل صفة بصور لاتكاد تحصى كثرة وتنوعا . بل لقد استطاع بعضهم أن يأتى فى مدح الممدوح الواحد بأروع الصور وأعجبها افتنانا ، دون أن يخرج من ذلك عن المعروف من صفاته وأعماله .

وشىء آخر نأخذه على تصوير شوقى للخلق الفاضل وصاحبه ، أنه قريب الفكرة شائع الخيال ، لافيه طرافة ولا ابتكار ، وليس له حظ من عمق الفلسفة وروعة الفن . ولعلى لا أتهم بالاسراف حين أذكر أن الدهماء لايشق عليهم أن يأتوا بمثله ، حتى فى مقاولات السوق ومناقلات السمر .

ومن العجيب بعد هذا أن يكرر شوقى بعض هذه الصور ، وأن يلح فى التكرار إلحاح المقل ، لا يكاد يظفر ببعض الوجد حتى يثقل على النـــاس بالحديث عنه والمكاثرة به .

استمع اليه يدير الأخلاق على معانى البناء وأحواله والبناء وأجزائه ، واعجب معى لهذه المعاودة المملة ، تكاد تستنفد صبر الحليم :

إنما واصف بناء من الأخـ ـلاق فى دولة المشارق عال
بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
وليس بعامر بنيان قوم إذا كانت نفوسهم خرابا

أما أسلوبه فيقوم تارة على الازجاء والعرض ، وتارة على الأمر والنهى ، وتندر فيه على الحالين البينات والأسباب . كأنه اسلوب الحقائق المقررة ، والأوليات المسلمة ، أو أسلوب الصرامة والاستبداد .

فمن الأول قوله :

إذا المقانل من أخلاقهم سلمت فكل شىء على آثارها سلما
وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فان تولت مضوا فى إثرها قدما

ومن الآخر قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركـــن

وقوله .

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالاخلاق تستقم

وهى كثيرة أوامر جافة ، لانكاد نتلقاها حتى نذكر أوامر صالح بن عبدالقدوس إذ يقول .

واخفض جناحك للاقارب كلهم بتذلل ، واسمح لهم ان أذنبوا

ويقول .

وزن الكلام اذا نطقت ولا تكن ثرثارة فى كل ناد تخطب

وأوامر عبد الله باشا فكرى إذ يقول .

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر فقم للمعالى والعوالى وشمر

ويقول .

وصارع إلى مارمت مادمت قادرا عليه وإن لم تبصر النجح فاصبر

بل ربما قادنا تداعى المعانى إلى ناحية أخرى . فذكرنا أوامر الارشادات الصحية التى يقرؤها التاس بظاهر كراسات التلاميذ

(٣)

وليس أفضل من الموازنة فى تقدير القيم وتحديد المراتب ، فلنعوض إذا أمثلة من تصوير الشعراء الاخرين لألوان من الاخلاق ، ولنتدبر طرائقهم فى التناول والتصنيع والعرض ، لنرى غاية مايبلغون فى ذلك كله من درجات البراعة والاحسان

قال أبو تمام يدعو إلى المحافظة على حرية القول والعقيدة ، وإلى الصبر واحتمال المكروه فى سبيلها .

سأصرف وجهى عن بلاد غدابها لسانى معقولا وقلبى مقفلا

وإن صريح الحزم والرأى لامرىء إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وقال المتنبى ينصح للمغامرين بالطموح الى المثل الاعلى . ويهون عليهم الموت فى سبيله .

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

وقال المعرى يوصى الاباء ألا يأمنوا الأبناء وينصح لكل إنسان أن يتهم نفسه ويسىء بها الظن ،

احذر سليلك ، فالثمار التى خرجت من زندها ان أصابت عوده احترقا
والنفس شر من الاعداء كلهم وإن خلت بك يوما فاحتر زفرقا
وآكل القوت لم يعدم له عنتا وشارب الماء لم يأمن به شرقا

وقال الطغرائى ينفر الأغنياء من الشح ، ويرغبهم فى السخاء والبذل :

ثراء الفتى من دون إنفاق ماله فسادو إنفاق الثراء نماؤه
فأنفق فإن العين يركد ماؤها فيأسن ، والمنزوح يعذب ماؤه

فنحن هنا تجاه مذاهب وآراء فى الأخلاق والحكمة ، يعرضها هؤلاء الشعراء ويدعون إليها ، لا بالأمر بها والنهى عن خلافها فقط ، ولكن بالاحتجاج وضرب الأمثال وإقامة البرهان أيضا ، فاذا هم فلاسفة فى شعرهم ، أو شعراء فى فلسفتهم ، وما من هذا شىء فى شعر شوقى يمكن أن نقرنه إلى هذه الآثار ، أو أن نعرضه معها فى منزلة سواء .

ولا بأس أن نقدم ها هنا قطعة لابن الرومى يصور فيها الحقد وأصحابه تصويرا فريدا ، لا أحسب أن شاعرا آخر سبقه إليه ، وبلغ فيه مبلغه من البراعة والافتنان فهلم ننظر فيها معا ، لنرى ماذا صنع لموضوعه وماذا قال فيه ، وأى فرق هناك بين فنه وفن شوقى على ما بينهما من اختلاف فى الموقف وتباين فى الموضوع .

قال ابن الرومى :

حقدت عليك ذنبا بعد ذنب ولو أحسنت كان الحقد شكرا
أديمى من أديم الأرض فاعلم أسىء الريح حين تسىء بذرا
ولم تك يالك الخيرات - أرض لتزرع خربقا فتربع برا
أؤدى إن فعلت الخير خيرا إليك ، وإن فعلت الشر شرا
ولست مكافئا بالنكر عرفا ولست مكافئا بالعرف نكرا

يسمى الحقد عيبا وهو مدح كما يدعون حلو الحق مرا

فابن الرومى فى مقطعته هذه يدافع عن الحقد ، ويلتمس المعاذير للحاقدين ، وهو إذ يتكلف هذا وذاك إنما يدافع عن قضية خاسرة، المتهمون فيها جناة مذنبون سبق أن قال فيهم التهذيب الدينى والخلقى كلمته وقضى قضاءه المبرم . وقد ارتضى الناس حكمه عليهم ، واتخذوا منه مبدأ يؤمنون به ، ويورثونه أبناءهم ، ويجتنبونهم الوقوع تحت طائلته ، وهم لهذا لا يقبلون عنه رجوعا ، ولا يحبون أن يسمعوا فيه خلافا أو يطيقون جدلا ، ومع ذلك لقد استطاع الشاعر بفنه الباهر ، وبيانه الساحر وألمعيته التى لا تبارى أن يجعل من الحقد فى نفسه فضيلة بريئة ، بل ضحية شهيدة . وإنما جنى عليها الناس تسامحا أو ضلالا ، بما يكون فى لغتهم من توسع ، أو يقع فيها من ترخص التسمية بأسماء الأضداد فى بعض الأحيان ، فسموه عيبا وما هو بعيب ، كما يصفون الحق بالمرارة وما هو بمر . واستطاع كذلك أن يصور الحاقدين تصويرا فاضلا كريما ، ينفى عنهم العيب والذم ويجعلهم أهلا للكرامة والحمد، فهم ليسوا فى رأيه كما يصورهم العرف ضعافا مستحقرين ؛ ولكنهم عدول مسالمون وأباة مدافعون ؛ يلزمون حدودهم ، ويجتنبون الناس اذاهم ، ولكنهم يعرفون للمحسن إحسانه ويأخذون المسىء باساءته جزاء وفاقا ؛ لا بغى ولا عدوان .

وما كان لهم أن يجزوا بالسوء احسانا أو بالعرف نكرا ، وقد نبتوا من الأرض وطال فيها مقامهم ، فلم يكن بد أن يأخذوا إخذها فى المعاملة والجزاء ، وهى انما تغل للباذر من نوع ما يبذر ، فتعطى باذر البر برا ، وباذر الخربق خربقا ، لا خلاف ولا تخلف .

هذا ما يقول ابن الرومى عن الحقد وأصحابه ، وهذا ما صنع له ولهم ، وليس معه غير فنه وقريحته : صور متلاحقة وأمثلة صادقة ، ونظرات بارعة ، وتتبع عجيب وتخريج رائع ، وافتنان ليس له نظير .

فماذا قال شوقى عن الخلق الكريم وأصحابه ، وماذا صنع له ولهم ، تؤيده السموات والأرض ومن فيهن ؟ اللهم لا شىء سوى هذه الطائفة المنظومة من الأوامر الصادعة

والقضايا المرسلة بغير حجة ولا تعليل من الفن أو الفلسفة، والا هذه الخطرة الشعرية التي تتراءى في قوله :

وكان جنابهم فيها مهيبا وللاخلاق أجدر أن تهابا
فلولاها لساوى الذئب ليثا وساوى الصارم الماضي قرابا

ومع ذلك لقد أعجب بها شوقي على مايظهر ، فكررها كدأبه اذ يقول :

لو كان في الناب دون الخلق منقبة تساوت الأسد والذؤبان في الرتب

فزادها التكرار تفاهة على تفاهتها .

لقد كان شوقي بلا مراء شاعرا موهوبا ، مهما يقل خصومه عنه، ويعددوا من مآخذهم عليه ، ولكنه ليس في شعر الأخلاق كمثله في بعض الأغراض الاخرى، بل أخشى ألا يكون في هذا اللون من شعره شيئا مذكورا ، ويظهر أنه كان يعتمد فيه على حسن رأي الناس في الفضيلة وإيمانهم بالحاجة إليها ؛ فكان يقنع في تصويرها والترغيب فيها بأول مايسنح له من فكرة ، وأقرب مايحيط به من مادة خيال ؛ ثم يقف عندما يتهيأ له من ذلك كله ؛ لايحاول المزيد عليه أو التغيير منه إلا بمقدار يسير .

ولعل هذا كان سرا لاستكثار من ذكر البناء ومشتقاته فيما روينا له قبلا من الأبيات ، فالأبنية كما هو معلوم من أقرب المقربات الى ذهن الرجل الحضري المقيم وأكثرها تعرضا له وحضورا فيه .

على أننا أخذا على خطتنا من نصفة الرجل والاشادة بمزيته — نعترف في غير توقف ولا مواربة أن أبياته في الاخلاق أو كثيرا منها على الأصح قد أوتي حظا غير قليل من عذوبة المساء ، وصفاء الجوهر ، واستواء النهج ، وتجاوب الجرس ولو أصابت مثل هذا النصيب من افتنان التصوير ، وتصنيع الخيال ، وحسن المراوحة بين التماس العلة وإقامة الحجة لتأييد المذهب — لكانت شيئا عظيما .

— ٤ —

كيف لقب شوقي إذا بلقب شاعر الأخلاق ؟ ولماذا اختص به من بين شعراء عصره ؟ لقد كان ذلك فيما نعتقد لأمرين :

أحدهما أن شوقى قد أكثر من ذكر الأخلاق فى شعره ، وأدار القول فيها على كثير من المقامات . أما شعراء عصره فأغفلوا ذكرها ، أو أقلوا منه .

والأمر الآخر أن شوقى حين أخذ ينظم شعر الأخلاق إنما كان يبدأ عملا فى أصلح الأوقات له وأحقها به . ومن توفيق الله لامرىء فى عمل أن يهديه لوقته ، ويشرح صدره لأدائه فيه ، فإذ ذاك يتاح له من النجاح فيه بالجهد الهين والاحساس القليل مايندر أن يتاح له مثله أو قريب منه بالجهد الشاق والأحسان الكثير حين يؤديه فى غير أوانه المقدور .

ففى الوقت الذى كان شوقى يقيم فيه مجده الشعرى كانت مصر تقبل وتتجمع للمطالبة بحقها فى الحياة الحرة الكريمة ، بعد ما أصابها من الارتكاس والتبدد فى الثورة العرابية . وكان جبار الاحتلال لايعدم أن يجد من ضعفاء النفوس وأصحاب المطامع الشخصية نصراء يمضون إرادته ويهابون سطوته . فكان شعور الناس إذ ذاك مزاجا من الطموح والعزم والنقمة وابتغاء الأسباب .

فاذا تحدث اليهم شوقى أو سواه عن الأخلاق ، وأشاد لهم بعملها فى إقامة بناء الامم وإصلاح حال المجتمع فقد شاركهم فيما هم فيه ، وترجم لهم عن بعض مايشغل بالهم ، ويحرك مشاعرهم ، ويدعوهم إلى الاصغاء والاستشراف عسى أن يسمعوها قولا ، أو يروها عرضا . فيكون لمقاله فيهم من المنزلة وجلالة الشأن ولطف المدخل وطيب الموقع وحسن التقبل مالا يكون له حين لايقع فى أوانه ، ومالا يكون لكل حديث آخر ليس من همهم بسبيل .

ولعل حسن المناسبة نفسه هو الذى أتاح لرسالة مصطفى كامل فى الوطنية أن تلاقى مالاقت من القبول والاستجابة ، ولعل فقدان المناسبة أيضا هو الذى صرف الناس عن رسالة الأمام محمد عبده فى الأصلاح الدينى ، ونفرهم من رسالة قاسم أمين فى تحرير المرأة والدعوة إلى إنصافها . وأعتقد أن لو تأخر الزمن بكلا هذين الزعيمين الجليلين الى عصره المؤقت لهانت متاعبه ، ولنالت رسالته حقها من الاستجابة والترحيب وحسن التقدير .

ومهما يكن الامر فلا خلاف أن القول لايستمد سلطانه على النفوس من بلاغته

وتوفيق الله فيه فقط . ولكن يستمده كذلك من مناسبته وجوه ، ومن صلته بالذين يقال لهم ، ومن غير ذلك من ينابيع القوة والتمكين . واذا لم تكن المناسبة أغزرها فى هذا الباب فيضا وأشدها تأثيرا فليست على الاقل بالتى لايحسب لها حساب كبير.

وهانحن أولاء نسمع كثيرا من الحكم المتداولة، يرددها الناس على أسماعنا غدوا ورواحا من مثل : الصبر مفتاح الفرج ، ولا يغنى حذر من قدر ، فلا نهتز لها ، ولا نحفل بها ، ونمضى لشئوننا معرضين كأننا لم نسمع ، وكأنها لم تقل . وماذلك لأن التكرار أو شيوع التداول قد أخلق جدتها ، وبخس من قيمتها فحسب، ولكن لأننا أيضا نكون إذ ذاك فى شغل عنها بما ليس بينها وبينه شىء من مناسبة وإذا كنا على حال تناسبها رواية تلك الحكم طربنا لها ، وأعجبنا باصابة معناها وصدق دلالتها ، وقد لانملك أن نرد أنفسنا عن استعادة قائلها أو ترداد روايتها كأن لم يكن لنابها من قبل عهد .

والا فليقل لنا من شاء كيف استطاع قول شوقى :

وإنما الأمم الاخلاق مابقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أن ينال كل هذا الحظ من شيوع الرواية، وكثرة الاستدلال ، حتى إن بعض الناس كما يقول هيكل باشا فى مقدمة ديوان شوقى لايكاد يصدق أن البيت لشوقى أو أنه يمكن أن يكون له أو لأحد من شعراء العصر الحديث ويأبى الا أن يعود به الى أزهى عصور اللغة وأحفلها بأمراء البيان .

نعم ليقل لنا من شاء كيف استطاع هذا البيت أن يكون على ماوصفنا مع أنه ليس أفضل أبياته فى الاخلاق ، بل ربما كان فيه من المآخذ ماليس فى بيت آخر منها فهو أولا يجعل الأمة شيئا واحدا ، لامزيد عليه فى عد مقوماتها ، ولا معدى عنه فى خلقها ، فاما أن يبقى فتبقى الأمة معه ، واما أن يذهب فتذهب على أثره ولا يبقى لها بعده حقيقة ولا كيان . فالأمة فى رأيه أخلاقها ولا شىء غيرها . وماهى بها فقط فى الواقع ، ولكن معها مقومات أخر لابد منها ، ولا غناء ببعضها عن بعض فى تكوين الأمة واقامة بينتها . وأول مايسبق منها الى الذهن العلم والصحة والمال .

وقد يقال : ان شوقى آثر أن يعرض قضية الاخلاق هاهنا فى معرض المبالغة أو التجوز ، ليدل على جلالة شأنها بالاضافة إلى سائر المقومات وعندى أن هذا القول أو هذا الاعتذار لايجدى على البيت شيئا . فشوقى إنما يعالج فيه كما لايخفى نظرية اجتماعية خطيرة ، يريد أن ينفخ فيها روح الفن والخلود ، عسى أن يمضى مقاله فيها مع موكب الزمان حكمة بالغة ، يتلقفها الناس جيلا بعد جيل ، ليقبسوا منها الهداية والرشاد فى أهم ما يعنيهم من مسائل الاجتماع ، وما أحسب أنه يصح أن يكون للتجوز والمبالغة على هذا النحو مجال هنا أو مقام . إذا صح أن يكون لهما نصيب من هذا وذاك فى الوصف أو المدح مثلا . فهما ينفخان فى المعنى ، ويزيدان أقطاره عرضا وطولا ، فاذا هو ضخم هائل ، تهون جيرته إلى جانبه . ويتحيفها التضاؤل والانكماش ، حتى تصير شيئا تافها لا شأن له ولا نفع فيه . وكان خيرا من هذا للبيت وأضمن لسداد معناه أن يودعه الشاعر مقومات الأمة كلها . ويبين مبلغ الاحتياج اليها ، ثم يختص الأخلاق إذا شاء بما هى أهل له من إيثار . أما أن يقصر الحديث على الأخلاق ، ويؤتيها وحدها الفضل كله فنقص وقصور ، هيهات معهما أن يتحقق المراد بالبيت على وجهه .

والبيت ثانيا يعنى بالأخلاق الفضائل ، كدأب أكثر أبيات شوقى فى الأخلاق ولسنا نرى لهذا التخصيص ضرورة ولا مبررا ، بل لانرى فيه خيرا ولا له فائدة فان للفضائل خاصة أكثر من اسم فما حاجتها الى هذا الاسم المشترك بينها وبين غيرها ؟ وما المزية البيانية التى تدعو الى هذا التخصيص ؟ اللهم لا شىء فيما نعلم إلا أن تسلب الطبائع الانسانية اسما من أسمائها المتعالمة ، بل اسمها الاصطلاحى الذى أجمع الباحثون على تسميتها به فى دراسة الاخلاق .

صحيح أن بعض النصوص اللغوية يفسر الأخلاق بالمروءة والدين الى جانب تفسيرها بالسجايا والطبائع ، ولكن الاصطلاح العلمى كما ذكرنا انما يستعملها بمعنى الطباع على الاطلاق ، بل ان الاستعمال أيضا ليظاهره فى ذلك ، كما يؤخذ من النصوص التى وقعت عليها ، فالله تعالى يقول : (وانك لعلى خلق عظيم) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق) والجاحظ رحمه الله يروى هذين البيتين :

انا وجدنا الناس عودين طيبا وعودا خبيثا لا يبض على العصر
تزين الفتى أخلاقه وتشينه وتذكر أخلاق الفتى وهو لا يدرى

والبيت ثالثا يجعل بقاء الأمة رهينا ببقاء أخلاقها : تبقى ما بقيت ، وتذهب حين تذهب . وتلك قضية غير مسلمة حتى اذا جارينا شوقى فى استعمال الاخلاق بمعنى الفضائل ، لأن فضائل أى أمة لا تعنى حتما الفضائل الانسانية فقد يكون للأمة أخلاق تدين بها ، وتنكر التخلى عنها وهى فى نفسها رذيلة ممقوتة . فعرب الجاهلية مثلا كانت لها أخلاق ذميمة أنكرها الاسلام فما زال بها حتى أبطلها وأحل ضدها محلها ، ومع ذلك لم نر الامة ولا قسما منها يذهب . بل رأيناها تقبل وتتجمع وتصح وتقوى . ثم تنساح فى الارض ، فتملؤها حضارة ونورا وعدلا ، بعدما ملئت همجية وظلاما وظلما .

وقد استطاع شوقى فى قصيدة ذكرى المولد أن يتلافى هذه المآخذ فى مقطعة منها . عرض فيها للاخلاق وآثارها بالحديث والبيان . قال :

بنيت لهم من الاخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيبا وللأخلاق أجدر أن تهابا
فلولاها لساوى الليث ذئبا وساوى الصارم الماضى قرابا
فإن قرنت مكارمها بعلم تذللت العلا بهما صعابا
وفى هذا الزمان مسيح علم يرد على بنى الأمم الشبابا

فلم يكد يسمى الفضائل أخلاقا فى البيت الاول والثانى ، حتى عاد فسماها مكارم فى البيت الرابع . ثم هو لم يجعل الفضائل وحدها مساك الوجود والبقاء فى الأمم بل أضاف اليها العلم . وقرنه بها ومع ذلك لقد جعل قصارى ما يملكان للأمة أن يذللا لها العقبات . ويمهدا لها السبيل الى المعالى . ثم خص العلم وحده ببيت جعله فيه مسيح الامم : ينفى عنها الشيخوخة والاوصاب . ويرد عليها الصحة والشباب وهو بعد ذلك كله لم يجعل حديثه عن فضائل الامم الشخصية . ولكن عن

الفضائل الانسانية عامة ، فكأنه لم يقع فى المآخذ الآنفة عن غفلة أو قلة بصر ، على أننا فى الواقع لانعرف تاريخ قصيدة تهنئة الامير عباس وهى التى منها بيت : وانما الامم الاخلاق . . . ولا تاريخ قصيدة ذكرى المولد . وهى التى منها القطعة الاخيرة . نعم نعرف أن القصيدة الاولى من أقدم شعره . والظاهر من أمر القصيدة الاخرى أنها من شعره الحديث أو على الاقل من الشعر الذى قاله بعد عصر الوالى عباس حلمى .

والذى لاشك فيه على كل حال أن شوقى لم يستطع عرض قضية الاخلاق وعملها فى بناء الأمم عرضا سليما وافيا الا فى أربعة أبيات . فللايجاز بلا شك دخل كبير فى هذا القصور الذى ذكرنا فى بيته المشهور .

على النجدى ناصف

المأمون والفضل بن سهل (١)

للاستاذ محمد أحمد راتق

جرت عادة المتقدمين أن يصفو أفذاذهم بصفات تدل على نواحى نبوغهم ، وتنطق بما كان لهم من فضل وأثر يشيعان فى جوانب حياتهم فيشتهرون بهذه الصفات ويعرفون بها إذا أضيفت إليهم ، ومن هؤلاء من وصفوا بذى الوزارتين ، وذى القلمين ، وذى اليمينين ، وذى الرمحين ، وذى النورين ، والفضل بن سهل ذو الرياستين .

وهو الفضل بن سهل بن زاذانفروخ ، ويظهر من اسمه أنه ما كان عريقا فى الاسلام ، فجده زاذانفروخ مجوسى ، وأبوه سهل مجوسى ، وهو نفسه مجوسى ، ولكن الله شرح صدره للاسلام كما شرح له صدر أبيه بعد أن تمجسا صدرا من عمرهما ، فقد وجدا آباءهما على أمة فاقتديا على آثارهم .

وقد هيأ الله لسهل أسبابا حملته على الاسلام راضيا أو غير راض ، ثم هيأ لابنه الفضل أسبابا حملته على الاسلام أيضا راضيا أو غير راض : فقد يكون اسلام سهل ليدفع به عن نفسه ضرا يحيط به من جيرته ، وهو يستعدى بإسلامه من يصدون عنه المعتدين عليه ، وسالبيه مالا مقسوما له ، أو هو يسترضى قوما مسلمين متصلين بصاحب السلطان ليكون له من قوتهم قوة ، فلا يقتحمه جيرانه ولا يبذءونه ،

---

(١) محاضرة القيت بنادى دار العلوم فى مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٩٤٦

ومهما يكن من سبب فان سهلا دخل فى الاسلام : فان أخاه يزيد الذى توكل بجارية عاصم بن صبيح كان، له ضيعة أحسن القيام عليها ،فوفر ماله ، ولكنه يخلص لجارية عاصم حتى يحظى عندها حظوة شديدة ، فينقم عليه عاصم لفرط الحظوة ويتهمه ، ويحقد عليه ، ويشتد به ذلك حتى يدعوه وهو سكران ، ويضربه بسيفه ضربة تقضى عليه .

إذن، مات يزيد ، وورثه أخوه سهل ، وصارت إليه ضيعة أخيه وبيته ، ولكن عاصما يخاصم سهلا ، ويلح فى الخصومة ، حتى يضع يده على ماتركه يزيد ، ويمنعه سهلا ، فمن يستعدى سهل على عاصم ليخلص له مال أخيه ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينصر سهلا على عاصم وهو مولى داود بن على ؟

فكر سهل وقدر ، ثم فكر وقدر ، حتى هداه تفكيره وتقديره إلى باب يحيى ابن خالد البرمكى صاحب الحول والطول فى دار الخلافة . ولكن من لمثل سهل بيحيى البرمكى ودونه الحجاب والموالى ؟ يحتال على ذلك ، فيتصل بسلام أحد موالى يحيى ، يلجأ إليه ، ويعتصم به ، ويستعين بيده على ظلامته ، فيجيب سلام داعى سهل ، ويرسل إلى عاصم أحد الموالى فى جماعة من الناس ، فينزعون منه الضيعة قوة واغتصابا ، ويقرونها فى يد سهل ، ويحمونه ويحمون ولده وماله من وكلاء عاصم ومواليه .

وكان سهل إلى ذلك الحين مجوسيا ، يتعبد كما يتعبد المجوس،ويزمزم كما يزمزمون ولكن صنيع يحيى أخرجه عن مجوسيته إلى الاسلام ، فهل عرض عليه سلام أن يسلم لانه نافح عنه ورد اليه ماله ؟ أو كان ذلك برا بموعدة وعدها إياه: لئن رد عليه ماله ليدخلن فى دينه ، أو تقرب سهل إلى سلام بدخوله فى دين الاسلام ليعظم فى عينه فيتحمس للدفاع عنه ، أو سره أن من المسلمين من ينصف المظلوم ، وإن كان على غير دينه ، فأعجبه ذلك الخلق الجميل ، فدفعه إعجابه إلى الدخول فى الاسلام . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلماذا لم يسلم سهل قبل ذلك ، وهو يعاشر المسلمين ، ويعيش فى كنفهم ، ويعرف شيئا من تعاليم دينهم ؟

وأيا كان الامر فان سهلا أسلم ، واستمسك به سالم ، ونصب نفسه للدفاع عنه ، وحيطة ماله ، حتى إن عاصما حينما تظلم ليحيى من سلام ، فأنكر يحيى على سلام مافعل — قام سلام مدافعا عن تصرفه ، واقتص القصة على يحيى ، وأحضره سهلا فقام أمامه بحجته ، حتى تبين أنه على حق ، فعاونه على عاصم وكفه عنه .

ولعل اشتكاء عاصم سلاما جعل سلاما يستمسك بسهل ، ويزيد فى قربه إليه ويتولى أمر ضيعته بنفسه ، فيلزمه سهل ويخدمه حتى يعرف البرامكة ، وحتى يعرفه البرامكة ، فيستحضر ابنيه الفضل والحسن إلى ذلك الرحاب ، الواسع الجناب ، ويلتحق الفضل بن سهل بخدمة الفضل بن يحيى ، ويلتحق الحسن بن سهل بالعباس ابن الفضل بن يحيى ، ثم يعرفهما يحيى بن خالد نفسه ، ويقربهما إليه ، ويرعى لهما ولايتهما ، ولم يأل جهدا فى ايلائهما جميله ، وهو يحافظ على يسير الخدمة ، ويصطنع من يتوسم فيهم الصلاح لخدمته ، ويجازيهم معروفا بمعروف ، ويقابل الحسنة بعشرة أمثالها .

والظاهر أن الفضل بن سهل لم يدخل فى الاسلام أول اتصاله بالبرامكة ، فقد ذكر بعضهم أن الفضل بن سهل مر بجماعة وهو « على فرس عرى ، وعليه جبة وشى ، وهو بغير سروال ولا خف ، وبيده سيف مشهر ، وخلفه مجوسى طويل العنق ، فوقف المجوسى عليهم ، فاستسقى ماء ، فأتى بماء فى كوز خزف أخضر ، فقال المجوس إنكارا لكوز الخزف : أوشك أن تذهب الدهقنة حتى لا يبقى لشىء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال رجل حظرها الاسلام ، قال : فأين الزجاج ؟ قال : منع منه غلظة الهواء ، فأخذ الكوز فشربه ، ثم قال له الرجل : أما ترى إلى صاحبكم هذا ، مايصنع بنفسه ! ؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان ، وسكر الجدة ، وسكر السخاء . ومضى يتبعه فسألنا عنه ، فقيل : هذا الفضل بن سهل كاتبه » . اهـ من الوزراء والكتاب .

إذن : الفضل بن سهل يخدم الفضل بن يحيى ، ويمشى فى ركابه ، ويتولى الكتابة له ، وهو مجوسى وكان الفضل بن سهل يجيد الفارسية كما يجيد العربية ، ويحسن الترجمة من الاولى الى الثانية ، ولعل ذلك كان من أسباب تمكنه من نفس جعفر بن يحيى ،

وحظوته عنده ، ولعل الفضل بن يحيى هو الذى قدم الفضل بن سهل إلى أبيه يحيى فعرفه وعرف فيه صفات طيبة تدل على مستقبل عظيم ، وتنبىء عن عبقرية نادرة ، حتى إنه قال له يوما : « فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وأنت عندى منهم »

فالفضل بن سهل يعظم فى عين يحيى البرمكى ، حتى يتنبأ له بأيام سعيدة مقبلة ، وقد زاد إعجابه به حتى إنه ترجم له يوما كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بفهمه وعبارته وحسن نقله ، فأراد أن يدله على الطريق التى يتألق فيها نجمه ، ويسعد جده ، ويسير بين الناس ذكره ، أراد أن يدله عليها ضنا بذكائه أن يضيع وبعبقريته أن تقبر ، تلك هى طريق الاسلام ، فيترك مجوسيته ويدخل فى دين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد يدرك بسبب إسلامه مالا يدرك وهو فى مجوسيته ، ثم هو مع ذلك لم يدعه يسلم على يديه ، بل يريد له أكثر من ذلك ، فيحب أن يضعه موضعا ينال به من دنيا الخلافة ، ويبلغ مبلغا رفيعا عند أصحابها ، فأمر سلاما مولاه وصاحب الفضل على أخيه أن يأخذ بيد ذلك الفتى المجوسى ، ويذهب به إلى جعفر مربى المأمون فيدخله جعفر على المأمون ، ويسلم على يديه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك من غير أن يقف الرشيد على الخبر ، فإن يحيى البرمكى قرظ الفتى بحضرة الرشيد حتى احب الرشيد أن يراه ، ويعرف مقدار ما لمكانته من الحقيقة فى نفس يحيى ، فاستحضره يحيى فى مجلس الرشيد ، ولكن رهبة الخلافة أخذته ، وعقلت عليه لسانه ، فوقف حائرا مشدوها لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا إذا سئل فبماذا يجيب .

عجب الرشيد من امر هذا الفتى ، وأنكر على يحيى تقريظه أياه ، وتقريبه اليه ، وإهداءه إلى ابنه المأمون ليجلس فى مجلسه ، ولكن الفضل لم يلبث أن فتح الله عليه وحل عقدة لسانه وقال : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه هيبة سيده ، فتغير رأى الرشيد فى الفتى وقال بعد أن سمع منه هذه العبارة : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة فهو أحسن وأحسن . إذن ، أحسن الكلام الفتى فى حضرة الرشيد ، وكان كلما سئل أحسن الاجابة ، فلا بأس عليه من أن يقربه ، ولا بأس عليه من أن يسمح له

بالدخول على ابنه المأمون والجلوس فى مجلسه بعد أن أسلم على يديه . ولا عجب أن يرضى عنه المأمون فيصله . ويحسن اليه ، ويجرى عليه رزقا مع غيره من الحشم .

ظل الفضل بن سهل متصلا بالمأمون من ذلك الحين ، وصارت له خاصية به ، وصار له عنده محل ، وتولى الكتابة له ، وصرف أمره كله ، وقدم اليه النصيحة ما كان للنصح محل يقتضيه .

وكان على صلته بالمأمون يرعى عهد البرامكة ، أولياء نعمته ، وذوى الفضل عليه ، حتى إذا نكبهم الرشيد نكبتهم المعروفة ، أختص بالمأمون ، فلما انتقض خراسان على الرشيد وشخص إليه ، عزم على تخليف المأمون ، وعدم إشخاصه معه فقال له الفضل : لاتقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل ، وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم . فسمع المأمون نصحه ، وسأل أباه أن يشخصه معه ، فأبى عليه ، فقال له إنى أريد خدمتك فى هذة العلة ، ولست أسأل حاجة ، ولا أحملك مئونة . فاذن له ، فسار معه

وهذه مناصحة قتى حازم ، وهب الله له ملكة عالية يقدر بها على تصريف أمور من أحبه وآثره .

شاء الله بعد ذلك أن يعتل الرشيد ، وأن تلح عليه العلة . وأن يقضى نحبه فى طوس ، وأن يتولى الخلافة محمد الأمين ، وأن يغرى الناس الأمين بأخيه المأمون ، فيرسل إليه كتابا يأمره فيه بضم ولد الرشيد وحرمه وأهله إلى الفضل بن الربيع ويحذره أن ينفذ رأيا ، أو يبرم أمرا ، إلا بعد الرجوع إلى شيخه . وثقة آبائه الفضل بن الربيع ويأمره أن يقر الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأن لا يخرج أحدا منهم عن ضمن ما يلى حتى يقدم عليه ، ويحذره ألا يأمر لأهل عسكره بعطاء أو رزق إلا إذا تولى ذلك الفضل بن الربيع

أحرج الأمين أخاه المأمون بكتابه ، وكان هوى الفضل بن الربيع مع الأمين فجد بالمسير بالعسكر بجميع ما فيه من خراسان . ولم يحسب للمأمون حسابا . ولم يأبه به ، فأحفظ ذلك التصرف المأمون ، وهم أن يلحق ابن الربيع ومن معه لقتالهم

ولكن ابن سهل صنيعة المأمون ومناصحه والمخلص له ، لم يعجبه ذلك من المأمون وقال له : « إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ، ويجعلوك هدية إلى محمد الأمين ، ولكن تقيم ، ونكتب اليهم كتابا . وتوجه اليهم رسولا يذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الغدر والحنث »

أعجب المأمون رأى الفضل بن سهل ، فكتب إلى الفضل بن الربيع كتابا ، ولكنه لم يقبل من الرسول ، ولم يلتفت اليه ، فعز ذلك على المأمون فخفف عنه صفيه وأمينه الفضل بن سهل بقوله :

هؤلاء أعداء قد استرحت منهم وبعدوا عنك ، ثم طمأنه من ناحية الخلافة . وأعلمه أنه ليس من الهين الانتقاض على الخلفاء والخروج على ما قرروه ، والرشيد وضع نظام الخلافة من بعده ، فليس يسيرا على الناس أن ينقضه الأمين ولاسيما أنه يعرف أن المأمون نازل فى أخواله ، وبيعته فى أعناقهم ، وأن الأمين اذا خلعه فسيضطرب أهل بغداد وينقسم بعضهم على بعض ، وأوصاه بالصبر ، وتضمن له الخلافة إن شاء الله .

استشار المأمون الفضل فأشار عليه مؤثراً المصلحة على نفسه ، ولا يرى على نفسه غضاضة أن يقدم أعيان خراسان على نفسه ، لأن من يخلص فى النصيحة تتلاشى ذاته ومصلحته ، وليس أمامه مثل أعلى إلا أن يرى سياسته منتصرة ولذلك كان جوابه للمأمون : إن رؤساء خراسان أنفع منى ، فدعنى أكن خادما لك حتى تصير الى ما تحب ، واجعل ظاهر الأمر اليهم وباطنه إلى ، فأعجب المأمون ذلك الرأى ، وتركه يفعل ما يرى .

رأى الفضل أن الأمر أصبح فى يده ، وأن مستقبل المأمون فى عنقه فحمل على عاتقه ذلك الامر وذهب الى رءوس القوم فى منازلهم ، لأن فى ذلك تأنيسا لهم وذكرهم أمر بيعة الرشيد لابنائه ، وأن ذلك أمانة إسلامية وضعت فى أعناقهم وجب الوفاء للرشيد بأن يكونوا حراسا على عهده ، أمناء على بيعته ، أوفياء لأولاده .

قال الفضل : فكنت كأنى آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها . فيدفعنى بعضهم ، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ؟

حينئذ خاب ظن الفضل فى رءوس القوم ، إذ خذلوه ، وتحرجوا وتأثموا وعظم فى أنفسهم أن يتدخلوا فى شئون الخلافة ، لأن هذا أمر فوق أن يخوضوا فيه ، أو أن يشيروا برأى .

فلما علم المأمون أنهم غير ناصريه ، أو أنهم على الأقل لن يتدخلوا فيما بينه وبين أخيه — أمر الفضل أن يقوم هو بالأمر ، وأن يصنع ما يرى أنه بالغ به غايته .

كان الفضل — كما قدمنا — نجيبا ذكيا ، فجعل همه أن يجمع الناس حول المأمون وأن يجعلهم يخلصون له ، ويقفون أنفسهم للذود عنه ، وتنفيذ سياسته ، ولا يكون ذلك الا بالاحسان اليهم ، وتعطيف قلوبهم بلطف المعاملة ، وحسن السيرة والتودد إلى عظماء خراسان والظهور للناس

بهذا كله أشار الفضل على المأمون ، إذ رأى أن يجمع الفقهاء ، ويدعوهم الى الحق ، والعمل به ، واحياء السنة ، وأن يجلس للمظالم ويكرم القواد والأمراء وأبناء الأمراء ، وأن يغدق على العلماء ويقربهم ثم أشار عليه أن يحط عن خراسان ربع الخراج ففعل ، فأحبه القوم ، وتعلقت به قلوبهم وقالوا : ابن أختنا ، وابن عم رسول الله.

وقد نجحت تلك السياسة ، فانقاد اليه من عصاه ، وصار اليه من نأى عنه

نجحت سياسة الفضل إلى ذلك الحين ، فاقترح على المأمون أن يكتب له كتابا ينشره باسمه على الناس ، يبين لهم فيه خطته ، ويرسم سياسته ، إذا ولى الأمر ، ودخل الناس تحت إمرته .

كتب الفضل ذلك الكتاب الذى جعل فيه المأمون على نفسه لله إن استرعاه امور المسلمين ، وقلده خلافته فى خلقه — العمل فيهم بكتابه ، وسنة رسوله ، وجعل على نفسه ألا يسفك دما عمدا ، إلا ما أحلته حدود الله ، وسفكته فروض الله ، وجعل على نفسه ألا ينال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا غصبا ولا بحيلة تحرم على المسلمين ، وجعل على نفسه ألا يعمل فى شىء من الأحكام بهواه . ولا يقضيه مالم يكن ذلك فى الله ولله ، ثم أكد على نفسه العهد أن يسير تلك السيرة رغبة من الله فى الزيادة ، ورهبة من المساءلة إن حاد عن الطريق ، وأقر على نفسه أنه إن تغير أو تحول كان مستحقا للعن ، متعرضا للنكال :

. . .

ألح الفضل بن الربيع على الأمين فى خلع المأمون ، وقوى فى ذلك عزمه وأعانه عليه بعض القواد ولم يعنه بعضهم الآخر ، ورأى المشفقون على الأمين أن يغير سياسته مع المأمون ، وأن يحاول أن يجعل خلعه من الخلافة برضاه وموافقته ، إلا أن الفضل بن الربيع الذى كان يكره المأمون ويخشاه — أشار على الأمين أن يكون جريئا فى ذلك ، وألا يدع الوقت يطول بين الأخذ والرد ، فتسنح الفرصة للمأمون فيتألف الناس ، ويقوى جبهته ، وقد يكون فى ذلك عسر عليه ومشقة . فانصاع له الأمين ، وبايع لابنه بالعهد من بعده ، وخلع المأمون والقاسم ، ونهى عن الدعاء لهما على المنابر ، وأمر أحد الحجاب أن يذهب إلى الكعبة ، ويتلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى الكعبة بالبيعة ، فذهب الحاجب إلى مكة ، وسرق الكتابين وحملهما إليه فمزقهما .

سارت الركبان فى الآفاق بغدر الأمين بأخويه . المأمون والقاسم ، وباستيلاء الفضل بن الربيع عليه ، وتصريفه الأمور من دونه ، وكانوا كلما ذكروا عن الأمين غدره ، ذكروا حسن سيرة المأمون ، ورجاحة عقله وتلطفه ، ورفقه بالناس ، فاستوحش الناس من الأمين ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه

استوحش الناس من الأمين ، وكرهوا تصرفه ، وانفلوا عنه ، لانحرافه عن الحق ، وما انحرف إلا لسوء بطانته ، وفساد حاشيته ، وعدم إخلاصهم له ، ولقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : ينام نوم الظربان ، ويتنبه انتباه الذئب همه بطنه ، ولا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى امضاء رأى ، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والايام توضع فى هلاكه

أما المأمون فقد سكن اليه الناس ، ومالوا نحوه لحسن سيرته فى قومه وجميل تصرف حاشيته وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى أحسن الرأى فأصاب وأجاد اختيار الرؤساء والقواد ، فسمعوا وأطاعوا وأخلصوا ، وأحبوه ، وأمروه ، وراسلوه ، واستشاروه ، حتى إن طاهر بن الحسين بعد أن انتصر على جيوش الأمين ، وقتل قائدهم على بن عيسى يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل

من يشتوك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى إصبعى وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين .

إذ ذاك فرح الفضل بن سهل ، وأسرع إلى المأمون ، وسلم عليه بأمير المؤمنين وسر المأمون أن تنجح سياسته وسياسة مناصحه ومستشاره ، وسره أن ينتصر طاهر ابن الحسين على على بن عيسى بن ماهان وغيره من قواد الامين ، ولكن لم يسره أن يقتل طاهر الامين ، وهو قسيم المأمون فى اللحمة والنسب ؛ ولم يسر ذلك أيضا الفضل بن سهل ، لما يعلمه مما عسى أن يكون له من الاثر السيء فى نفوس العامة . فلما انتهى اليه الخبر قال : مافعل بنا طاهر ، سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ؟

بلغ من نفوذ الفضل بن سهل أنه يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويصل من يشاء ، ويقطع من يشاء ، إلا أنه ما كان يفعل ذلك عن هوى فى نفسه ، أو رغبة فى منفعة ، ولكنه كان يؤثر المصلحة ، ويتوخى القصد فى كل مايفعل ، فمن آنس فيه قدرة على قيادة الجيوش ، وقرأ فى وجهه الاخلاص ، ولاه القيادة ، ولا يحول دون ذلك حائل ، ومن عرف قدرته على الكتابة ، والتصرف فى أوجه القلم ، أقعده فى الديوان ، وأقعد الكتاب بين يديه ، وما كانت تخيب فراسته فى واحد من هؤلاء : فطاهر بن الحسين قائده الموفق فى كل موقعة حتى انتهى إلى بغداد ، وأحمد بن يوسف كاتبه الذى بقى فضله على الكتاب إلى اليوم .

* * *

استقامت الامور للمأمون ، وأصبح خليفة المسلمين ، وخوطب بأمير المؤمنين ودعى له على المنابر فرد التدبير الى الفضل بن سهل ، وأمضاها على رأيه ، ولقبه ذا الرياستين : أى رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على لسان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العقد علما كتب عليه لقبه ، وهو أول من جمع بين لقب الوزارة والامارة فى الاسلام .

وقد عظم فى عين المأمون ، ولم ينكر عليه فضله ، فسارع بعد استقامة الامور له ، وكتب اليه كتابا يعترف له فيه بالفضل والنزاهة والاخلاص ، ويقطعه مكافأة له ولأولاده من بعده ، مقاطعة بالعراق .

فيقول : أعتبت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى، فأردت أن أغنيك ، وسبقت الناس : من الحاضر كان لى ، والغائب كان على ، فاحببت أن أسبق الى الكتاب لك بخطى بما رأيته على نفسى ، وأنا أسأل الله تمامه فإن حولى وقوتى ومقدرتى وقبضى وبسطى به ، لاشريك له ، وقد أقطعتك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولى بقيامها ، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله ، وجعلت لك كفيلا على عهدى.

« ✡ »

اذن استقامت الأمور للمأمون ، وصارت اليه ولاية أمر المسلمين وألقى المقاليد للفضل بن سهل ودفع اليه خاتمه لعظيم خدمته له ، ولعظيم ثقته فيه ، ولأنه ضمن له الخلافة فوفى ، وما زال يفكر فيحسن التفكير ، ويقدر فيحسن التقدير .حتى انتهى الى ما يحب من التصرف فى أمور المسلمين . ولكن الانسان هو الانسان ، والنفس الانسانية هى هى فى عظيم أو حقير : يزهوها النصر ، وتبطرها النعمة ، ويحفظها أن ترى غيرها يزحمها فى موطن عظمتها ، كما يؤلمها أن تهيء الظروف لغيرها ماهيأته لها من أسباب النصر والفخار .

رأى الفضل طرق السعادة تتهيأ لغيره من قواد المسلمين ورءوسهم ممن كانت لهم يد فى نصر المأمون ، وممن كان الفضل نفسه يرى أنهم شيعة المأمون وأهل ولايته وبطانته ، وكان يرى أن فى مشاورتهم تأنيساً لهم ، وكان يرى أن فى قطع الأمر دونهم وحشة وظهور قلة ثقة بهم ، وكان يرى أن عدم استشارتهم تكدرهم ، وتجعلهم يجدون عليه ، وكان يعرض نفسه عليهم فى منازلهم ، وكان إذا تثاقل أحدهم فى أمر سأله أمنيته ، فاذا تمنى أجابه الى أمنيته ، وكان يقول . اذا نال الرجل المنى خاض الدماء .

هذه هى السياسة التى نجح بها الفضل ، والتى حببته إلى الناس ، والتى جعلت المأمون يلقى اليه بخاتمه ، ويجعله مطلق التصرف فى أمور دولته . ولكنه لبس ثوبا غير ثوبه الأول ، وتنكر لمن كان على أيديهم النصر ، وعلى أسنة رماحهم وظبى سيوفهم قامت دولة المأمون ودالت دولة الامين . فماذا فعل ياترى !

حال بين المأمون وبين ناصريه ، واستبقاه فى خراسان ، فلم يستطع أحد منهم أن يتقدم إليه ليقفه على حقيقة الامر . وان استطاع واحد أن يصل إليه لا يجد فرصة يتحدث إليه فيها عن شئون رعيته ، وعما يجرى فى الخفاء حيث لا علم له به يدبره الفضل ويمضى الامور على رأيه ، ولا يعرف المأمون . فينتقض الناس على المأمون ، وتقوم الفتن والقلاقل فى مختلف البلاد والاقطار ، ويكثر المتغلبون عن الخلافة ، ويشغب عليه الطالبيون

وتعجب أن يكون ذلك من تصرف الفضل وهو الذى يقول فى توقيع له : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . ومع ذلك فلم يحسن الخاتمة ، ولم يدم الصنائع .

أليس هو الذى وجد فى نفسه على طاهر بن الحسين ، واضع أساس الدولة ، والمنتصر على جيوش الامين ، وقاتل على بن عيسى بن ماهان ، ومرسل رأسه اليه ، ثم قاتل الامين فى بغداد ومزيل خلافته ، ولم يعبأ بعتب وجوه خراسان عليه وعزله عما كان يتولاه من الاعمال ومع ذلك فان طاهرا أرسل اليه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن ليظهر الاعتذار ، فلما ورد عليه كلمه كلاما كثيرا ، وأغلظ له ، ثم قال: فلولا أنى رسول الله مأمون ما قلت ما قلته ، فقال له الفضل : أفما خشيت من تحمل هذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ما شككت فى القتل ، ولكنى مثلت بين أن آبى على صاحبى تحملها ، وبين أن أقبلها ، فرأيت أنى إن لم أتحملها عجل لى القتل ، وحصلت لى مذمة المخالفة ، وان قبلتها كنت قد شكرت نعمته ، وأطعت أمره ، وعشت بينه وبين الامير أعزه الله المسافة التى عشتها . ثم لعلى أكون وردت من فضل الامير وعفوه وحلمه على ما أرجو ألا أبعد عنه ، فقال له الفضل . لو أطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمنى فى مجلس أمير المؤمنين ، ودار الخلافة ، بما كلمتنى به .

فقال له عيسى . وما رأى النصحاء أعز الله الامير ؟ فقال له الفضل . أن كنت أضرب عنقك قبل أن تصل الى ، وأرد رأسك فى مخلاة الى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانه . فقال له عيسى ، أنا يده ولسانه ، والله لو أن صاحبي أخرج يده من مضربه ، لوجد حوله سبعين بل سبعمائة ، بل سبعة آلاف كلهم أغنى وأجزأ وأكفأ منى ، ومن أنا فيمن قد عضده الله به ، وأعطاه من كفاته؟

بلغ كلام عيسى من الفضل كل مبلغ ، ووقع فى نفسه أن فى وجود طاهر خطرا عليه ، ولا سيما أنه عزله عن البلاد التى تولاها ، وأقصاه عن أمرتها ، وولى مكانه أخاه الحسن بن سهل .

وكذلك وجد الفضل على هرثمة شريك طاهر فى فتح بغداد ، وقامع ثورة ابى السرايا والذى عز عليه أن يكون بين المسلمين ماهو كائن من تذمرهم ، ونفورهم وضعف الروح المعنوية فيهم ، فصمم على أن يتصل بالمأمون مباشرة ، وان يسدى إليه النصح . ويقفه على حقيقة الامر . ولكن ، هيهات ! فقد دس له الفضل عند المأمون ، وملأ صدره حفيظة عليه ، حتى أنه عندما مثل بين يديه عنفه ، وأغلظ له فى القول ، ونهره ، ووثب عليه الحراس ، فأوسعوه ضربا ، ثم ألقوه فى غيابة السجن حيث مات ، وشاع فى الناس أن المامون قتله .

« ٥ »

ويظهر أن الناس فطنوا الى سياسة الفضل ، ولم يتهموه بالتصرف فى أمر الخلافة فحسب . بل زعموا أنه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وأن يحوله من بنى العباس الى الفرس ، حتى أنه عندما أراد المامون أن يحول الناس من السواد الى الخضرة استرضاء للطالبيين لم يقبلوه ، فبعض أجاب ، وبعض امتنع . ودب الهاشميون بعضهم الى بعض فى بغداد ، وأرادوا خلع المامون الذى ما يزال مقيما بمرو ، ولكن المامون قال لوزيره الفضل . ينبغى أن تحضر نعيم بن أبى حازم ، فانه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجلالة وسياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الامر . فاحضره الفضل بحضرة المامون ، وعرفه ما عزم عليه من خلع السواد ونبذه ولبس الاخضر ، ورغبه فيه ، وذكره بما يلزم من الانقياد له ، فلم يرق ذلك فى

نظر نعيم ، وعز عليه أن يكون نصير الهاشمى ، وأن يقطع فى ذلك عمره ، وأن يناضل هو وغيره حتى وصلت الدولة الى ما وصلت اليه من عز وثروة وجاه وأمن ، وأن يبذل هو وغيره مهجهم وأرواحهم فى مقارعة أعداء الدوله من الطالبيين وغير الطالبيين ثم قال . انه لا يقبل الضيم ، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما يلتمسه ، ويقارعه دونه .

فلما رأى الفضل صلابته ، وما كان فى كلامه من مغالظة ومخاشنة وإصرار ، تجهم له وخلط له لينا بغلظة ، وكان ذلك منه على غير عادة . فظل نعيم على اصراره وزاد فى المغالظة والمخاشنة ووجه اليه تهمة الخيانة التى وجهت الى البرامكة من قبل ولم يخش سلطان الفضل وسيطرته على المامون ، وتسلطه على أمور الدولة وقال يخاطبه ، انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولو لا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده وهى البياض ، الى الخضرة ، وهى لباس كسرى والمجوس ، ثم أقبل على المامون فقال : الله الله ياأمير المؤمنين ، لا يخدعنك الفضل عن دينك وملكك ، فان أهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه ، يعنى عليا الرضا . فقال له المأمون : انصرف ، ولم يظهر له غضبا

اذن : لم يجمع الناس على سياسة الفضل ، ولم يعجبهم أن يتملقوا الطالبيين ، فى التزيى بزيهم ، ثم فى المبايعة لعلى الرضا ، بل زادوا فى ذلك أن اتهموا الفضل فى حضرة المامون بانه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وتصريح نعيم بن أبى حازم بذلك لا يعتبر رأيا شخصيا له ، وانما هو رأى جمع غفير من الناس ، فهو فى قومه سايق مقدم ، له رياسة ، وله جلال ان رضى رضى له كثيرون ، ولذلك كان رأى المامون والفضل اقناعه بضرورة العدول عن السواد الى الخضرة ، لانهما رأيا فى ذلك اعتبارات سياسية تضطرهم اليه ، ولكن نعيما وأمثال نعيم من رءوس القوم لم تعجبهم سياسة الفضل ويرموا بها . حتى ضاقوا به ذرعا وأبغضوه الى حد جعل نعيما يغلظ له فى القول ويرميه بالخيانة ، رغم ما كان بينهما قبل ذلك من مودة فقد كان نعيما يجلس فى مجلس الفضل ، ويسمع له ، ويعمل على توقيره واحترامه ،

حتى لقد أنكر على أحد الكتاب أنه ينزع قلنسوته ، ويجعلها إلى جانبه ، إذا دخل على الفضل ، ولم يكتف بانكار هذا ، بل يغضب ، لأن هذا يخالف تقاليدهم ، ويدل على أنهم لا يحترمون من يفعلون ذلك بحضرته ، ويعتب على أحد أصدقاء ذلك الكاتب الذى يخلع قلنسوته فى مجلس الأمير ، ويعبر عن ذلك بأنه استخفاف بالأمير وبأن الناس تكلموا فيه ، فان لم يقلع عن هذا فانه سيدنو منه ، وينهره ، ويرد قلنسوته إلى رأسه بعنف وانكار .

فنعيم بن أبى حازم كانت له صلة طيبة بالفضل ، يجله ، ويحترمه ، ويدفع عنه ، ويخاصم من أجله ، حتى اذا ساءت قالة الناس فيه ، وتحول عن السياسة التى رسمها لنفسه ولصاحبه المأمون قبل أن يستقيم لهما الأمر ، وشاعت الشائعات من بين يديه ومن خلفه ، كان ماكان من أمر نعيم مع الفضل والمأمون ، بسبب تغيير الشارة من السواد إلى الخضرة ، ترضية لعلى الرضا ، ولى العهد الجديد ، وترضية لمن حوله من الطالبيين

لذلك كان لا بد من التفكير فى أمر نعيم ، كما فكروا فى أمر طاهر وهرثمة وغيرهما ممن لهم فى قومهم سابقة ورياسة وجلال وان نجاح سياسة الفضل مرهون بالتخلص من نعيم . فماذا يصنع ؟ أيقتله كما أشار عليه المأمون ؟ لا : أن ذلك من خطل الرأى وغلط التقدير وسوء التدبير لأنهم قتلوا هرثمة ، وقدره فى الناس قدره ، وقد تيقن الناس أنهم قاتلوه ، وضربوا من قبل عنق يحيى بن عامر . وأمروا بحمل عبدالله ابن عامر ، وضربه كما يضرب الصبيان ، وهؤلاء جميعا أمراء فى قومهم ، يرضى الناس برضاهم ، ويسخطون بسخطهم ، ويتذمرون لقتلهم . أو تعذيبهم . أو اهانتهم .

لهذا كله تخوف الفضل من قتل نعيم ، لأنه ان فعل كان لأهل خراسان حركة واضطراب ، اذن : لا بد من التفكير ، واعمال الرأى ، فى التخلص منه ، بحيث لا يتحرك الناس ولا يضطربون .

فكر الفضل والمأمون طويلا ، ثم رأى الفضل أن يوجهه فى عدة قليلة ليحارب أحد الخارجين عليهم ، ويكتب إلى العمال الذين يحتاز بهم بتركه ، وعدم الاكتراث به . ولكن المأمون يكره أن يصير الى ذلك الخارج ، وينضم اليه ، أما الفضل فقد أقنعه أن انضمامه الى الخارج عليهم . أهون من بقائه بينهم ، والرأى مارأى الفضل

لا ما رأى المأمون ، فانهم سيروا نعيما فى تلك العدة القليلة ، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى أعدائهم . فأظهر العداوة لهم . وأعلنوا الغدر به إن أمكنتهم المقادير منه ، وقد كان لهم ما أرادوا . فانهم ظفروا به . وأدخل حافيا حاسرا على الحسن بن سهل يعتذر اليه ويقول : ذنبي أعظم من السماء . ذنبي أعظم من الهواء . ذنبي أعظم من الماء . فيقول له الحسن : على رسلك . فقد تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك توبة . وليس للذنب بينهما مذهب . وما ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك فى العفو . وقد أقالك الله . وعفا عنك

« • »

بدأت سياسة الفضل تتحول وتتبدل كما ذكرنا . فولى أخاه الحسن بن سهل إمارة البلاد التى فتحت على يد طاهر بن الحسين . وأخذ يدس عند المأمون للقواد والرؤساء من العرب . ويحول بينهم وبينه . ويبلغه أخبار الدولة على غير حقيقتها وتشبه بالملوك فى معاملة الناس . فخوطب بالامارة . وكان يجتمع اليه القواد والفقهاء والقضاة ووجوه القوم . ويجلس بينهم على سرير خاص . وكان لا يدخل على المأمون إلا على كرسى مجنح . ولا يزال يحمل حتى تقع عليه عين المأمون . فاذا أحس أنه رآه محمولا أمر بوضع الكرسى ونزل عنه ومشى ويحمل الخدم الكرسى . حتى إذا وصل الى المأمون سلم عليه . ووضع له ذلك الكرسى المجنح . فيجلس عليه فى حضرة الخليفة . وتلك عادة كسروية ذهب فيها الفضل مذهب الأعاجم . واستولى على المأمون حتى ضايقه فى جارية أراد شراءها

تحدث الناس بشأن الفضل واستيلائه على الخليفة . وبسط سلطانه . والكيد للرؤساء والقواد . وبسطوا ألسنتهم فيه . ولكن بعضهم رأى من حق الدين عليه أن يتقدم الى المأمون . وأن ينصح له . حتى يلقى ربه راضى النفس . مطمئن الضمير ومن هؤلاء هرثمة بن أعين الذى قدم الى مرو . ورغب فى المثول بين يدى المأمون مغاضبا ذا الرياستين . فلما دخل دار المأمون وجد ذا الرياستين جالسا على الكرسى فى الدار . والمأمون فى دار أخرى . فلما انتهى هرثمة الى موضعه قعد ولم يسلم على ذى الرياستين ، فلما انتهى ذو الرياستين من نظر ما كان بيده . التفت الى هرثمة وقال

مرحبا وأهلا وسهلا ياأبا حاتم ، أسعدك الله بمقدمك ، وعظم بركته عليك ، فلم يرد عليه ، هرثمة شيئا ، فاستمر الفضل فى حديثه ، قال : انى قد عرفت امير المؤمنين - اعزه الله - خبرك ، وأن ماحملت نفسك عليه من الدخول بغير اذن لغير معصية منك وصرفت ذلك الى أحسن الجهات فقبل ذلك ، ورجع ما سبق الى قلبه منك ، فلم يرد عليه هرثمة شيئا

ألان الفضل القول لهرثمة ولاطفه ، ولكن هرثمة جاء ليقاضيه أمام الخليفة ، فلم تؤثر فيه ملاينة ولا ملاطفة ، فخشى الفضل أن هرثمة اذا اتصل بالخليفة ، يؤثر عليه ويظهره على حقيقة الحال ، فخف مسرعا الى الدار التى فيها المأمون ، وتحدث اليه بما شاء أن يتحدث به ، ثم خرج الى هرثمة وقال له : ياأبا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التى أتت عليها من العلة ، وأنه لا يمكنك الوصول اليه إلا على الحال التى وصلت عليها الينا . فلم يرد عليه شيئا ، وبعد قليل أذن له المأمون بالمثول بين يديه ، فلما دخل عليه سلم ، فرد المأمون السلام ، ثم بره وأقبل عليه وأمر ان يطرح له كرسى الى جانبه ، وأقبل عليه يحدثه ويسائله ويعظمه ، ويدعوه بقوله : ياأبا حاتم احتراما له ، ولم يلبث الفضل أن دخل عليهما . وطرح له كرسيه المجنح وجلس ، وبدأ المأمون حديثه والفضل جالس ، قال : ياأبا حاتم ، ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى ، فقال : بلى ياأمير المؤمنين ، تجشمته لأقضى حق الله على فى طاعتك ، وأنبهك على أمرك ، وأقول بالنصح لك ، فقال : ياأبا حاتم ، ليست بك حاجة الى هذا وأنت تعب ، فانصرف الى منزلك ، قال : كلا ياأمير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لانصرف الى منزلى ، قال المامون : بلى ياأبا حاتم ، أحب ان تنصرف الى منزلك ، وتدع ذكر مالانحتاج اليه ، وأنت عنه فى غنى ، قال : لا ياامير المؤمنين أو اقضى الحق على فى نصحك ، لانى لا آمن ان يحدث على فى هذه الساعة حادثة فألقى ربى مقصرا فى حق امامى

من هذا يرى ان المأمون يحاول ان يصرف هرثمة عن الكلام ، لأنه يعلم انه سيتكلم فى امر ذى الرياستين ، ولكن هرثمة يابى الا ان يتكلم ، ويلح فى ذلك الحالحا ، لا يصرفه عنه محاولة امير المؤمنين فى ثنيه عنه ، فالخليفة يلاين هرثمة ويلح فى صرفه ، وهرثمة يرى واجبا دينيا عليه ان يناصح إمامه ، فيندفع ويقول :

الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رايت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى ، ياامير المؤمنين ، ما لفلان وفلان يحبسان بغير ذنب ، ويأخذهذا المجوسى اموالهماوامتعتهما فيبيعها ويمزقها ؟!

عز على المأمون ان يتكلم هرثمة عن الفضل بمثل هذا الكلام والفضل صاحبه وصفيه وحواريه وجالب الخلافة له ، فتنكر المامون لهرثمة ، وأغلظ له فى القول وأمره أن يمسك عن ذكرمالا يحتاج اليه ، ولكن هرثمة لا يمتنع عن الكلام ويصر على أن يدفع المأمون اليهم هذا المجوسى لينزلوا به ما يستحق،فغضب الفضل ورد على هرثمة ردا شديدا ، وأمر الحراس أن ياخذوا برجله ويجروه من بين يدى الخليفة ، ففعلوا ما أمروا به ، وحبس ثمانية أيام ثم أخرج فى اليوم الثامن ميتا

شق على كثير من الناس قتل هرثمة ، وبلغ من جزعهم عليه أن دخل أحد القواد على المأمون ، وسلم عليه ، وناداه ياأمير المنافقين ، فوثب عليه الفضل وضربه بسيفه فقتله .

وكذلك كان عبدالله بن مالك ، فان الفضل أراد أن يستذله وينكل به ، وأراد أن يستشهد عليه ببعض الناس ، فلم يجيبوه الى تلك الشهادة ، ولكنه تمكن من تنفير المأمون منه ، ومكن فى نفسه البغض له ، فانه اجتمع فى مجلسه يوما القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، وبعد أن استقام له المجلس على كرسيه ، ابتدا الوقيعة فى عبدالله بن مالك ، وذكر انه كان يدعى على الرشيد ، انه كان يدخل بيوت الفتيان ، وينزه الرشيدعن ذلك ، ويرمى عبدالله بالفسق والفجوروالمروق ، ويرميه بأنه كان يأتى المواخير والدساكر ، لا يرفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ولا يصون عرضه عن قذره

وهو اذ يرمى بذلك عبدالله يحاول أن يستشهد عليه ببعض وجوه من يتكلم معهم ، ويتحدث اليهم فيقول ، ان ابا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما اقول (يريد بأبى معن ثمامة بن الاشرس) ولكن ثمامة يطرق الى الارض ، ويخرج بالصمت عن لا ونعم ، لان عبدالله بن مالك عربى مثله ، ولأنه اذا قال نعم ، كان سببا فى

هلاكه ، فاستمر الفضل فى كلامه ، وتوسع فى الادعاء على عبدالله حتى رماه بالخبل ثم اقبل على ثمامة مرة ثانية ، واستشهد به ، فلم يجبه ، وخرج بالصمت عن لا ونعم

وانما كان يرجو الفضل من ثمامة ان يؤمن على كلامه امام هذا الجمع من القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، حتى اذا فتك به بعد ذلك لم يقم من يعترض عليه ، فلما لم يجبه ثمامة الى ما يريد استمر فى قذفه حتى فرغ من كلامه

فلما انصرف الناس احس ثمامة انه تعرض لموجدة الفضل وهو الوزير ، والمقدم عند الخليفة ، فما كاد يصل الى منزله حتى لحق به بعض اخوانه من شيعة الفضل ، وعتبوا عليه ان اعرض عن الفضل يخاطبه مرة بعد مرة ، فقال لأصدقائه : انا والله احق بالموجدة عليه اعزه الله ، لانه قام فى مثل ذلك الجمع ، وقد حضره كل شريف ومشروف ، ولم يستشهد بى فى خطبته ، وما اجراه من كلامه الا فى موضع ريبة او ذكر سكرة ، ومنزل مقين او مقينة ، والله ما اقدر ان اشهد بذلك . فصدقه اصدقاؤه وراوا انه احق بالمعتبة عليه .

وهو وإن كان بذلك استطاع أن يدفع عن نفسه موجدة الفضل عليه ، فانه يصرح لخاصته أنه مارد على الفضل تشيعا لعبد الله بن مالك .

ويظهر أن الفضل كانت فى نفسه موجدة أى موجدة لعبدالله بن مالك ، فانه مازال بالمأمون حتى وجد هو أيضا عليه ، ويخيل إلى أن عبد الله بن مالك كان يسل لسانه على الفضل لينال منه ، فشكاه الفضل الى المأمون ، فأحضر قاضى خرسان ، وجلس للقضاء على مسمع من المأمون ، ليحكم فى قضية ادعاها الفضل على عبد الله بن مالك وشكا من أنه شتم أمه ، ولكن القاضى كان شاكا فى تلك الدعوى ، فسأل الفضل : وأمك باقية ؟ قال نعم . قال : فالحق لها ، إن كنت صادقا ، فلتحضر لتطالب بحقها ، أو توكلك ، ويشهد عندى شاهدان أعرفهما بتوكيلها إياك بطلب حقها . فخرج الفضل من المجلس ثم لم يلبث أن عاد ومعه شاهدان ، شهدا أمام القاضى أن أمه قد وكلته بطلب حقها . فلما سئل عبدالله بن مالك أنكر ما ادعاه الفضل عليه ، فسأل القاضى الفضل أن يقيم البينة ، فشهد الشاهدان نفسهما بصدق ما ادعى ، وطلب من القاضى

أن يأخذ له بحقه ، ولكن القاضى كان ذكيا ، فتبين فى الشاهدين كذبهما ، ورجح أن الفضل هو الذى حملهما على الشهادة بالتوكيل ثم الشهادة بصدق الدعوى ، وأبى أن تباح ظهور المسلمين بشهادة مثل هذين الرجلين ، إلا أن المأمون لم يطمئن إلى رأى القاضى ، وأحب أن يؤخذ عبد الله بشهادة الرجلين ، فصاح : أحكم له بشهادتهما ، فابى القاضى ، واقترح على المأمون أن يحكم هو بشهادتهما ، فهو الامام ،وهو الخليفة ولا راد لحكمه ، فأمر المأمون بالقاضى ، فسحب من الدار ، وحكم هو بضرب عبد الله .

* * *

رأى الفضل بعد ذلك أن يحارب العرب بسلاح البرامكة، فقرب اليه الشعراء . وأغدق عليهم العطاء ، فأطلقوا ألسنتهم فى مدحه وإطرائه ، وفيه يقول أحدهم :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا إلا لفضل صنائع
ترى عظماء الناس للفضل خشعاً إذا مابدا والفضل لله خاشع
تواضع لمـــا زاه الله رفعـــة وكل رفيـــع قدره متواضع

ومن مداحه ابراهيم الصولى ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهما ، من كبار شعراء العصر العباسى الأول فانهم أحاطوا به لـكثرة رفده ، وسنى عطائه ، ومدحوه وبالغوا فى مدحه ، فـكان له من ذلك . اكان لسادته وكبرائه البرامكة من قبله ، ومن قول أحد الشعراء فيه .

للفضل بن سهل يد تقاصر عنها المثل
فنائلها للغـــنى وسطوتها للأجل
وباطنها للنـدى وظاهرها للقبـل

وممن مدحوه محمد بن عبد الملك الزيات بقوله

يا ناصر الدين إذ رقت حبائله لأنت أكرم من آوى ومن نصرا
أعطاك ربك من إكرام نعمته رياستين ولم تظلم بها بشرا
لو كان خلق ينال النجم من كرم إذا لنالت يداك الشمس والقمرا

لم يجده نفعا أن قرب إليه الشعراء فمدحوه وبالغوا فى مدحه ، لأن سياسته التى

انتصر بها ، وأزال خلافة ، وأقام أخرى لم تكن هى السياسة التى سار عليها بعد أن استقام الأمر له ولصاحبه . فانه . كما قدمنا استبد بالأمر من دون غيره من القواد والرؤساء ووجوه القوم . وحال بين المأمون وبين رعيته . وحجب إليه المقام فى مرو دون بغداد مقر الخلافة . ولم يستطع أحد أن يبلغ المأمون ما فعله الفضل بطاهر وهرثمة وغيرهما . وأصبح الناس يبغضون المأمون . والمأمون يبغضهم . فالفضل عنده كل شىء . وما يشير به هو الخير كل الخير وما عداه هو الشر كل الشر . ولكن الأمور لا تستقيم على مثل هذه الأحوال . ولا بد أن يهيىء الله من تتغير المسائل على يديه . ويجريها صالحة طيبة . إلا أن الفضل كان بالمرصاد لهؤلاء الناس . فاذا تمكنوا من صاحبه أفسده عليهم فيغلظ لهم . ويخاشنهم . ثم ينكل هو بهم ويتعنتهم . فيقتل بعضهم . ويحبس بعضهم . ثم يضرب بالسياط وينتف اللحى ؛ وكان هذا يجعل الناس يتهيبون الأمر . ويفضلون الانتقاض على الخليفة والانفلال عنه . وتفتق الأقطار عليه . على أن يعرضوا أنفسهم للتنكيل والتعنيت .

ظل الحال على ذلك زمانا : فلا ناصح أمين . ولا أذن سامعة واعية ! حتى استيقظ على الرضا ولى عهد المأمون وضاق بالفضل ذرعا وخشى على الدولة أن تتمزق . ولا سيما أن له فيها اليوم ضلعا فهو شريك صاحبها . وولى عهده والخليفة من بعده .

دخل على هذا على المأمون يوما وكاشفه بحقيقة الحال وأطلعه على ما كان يكتمه عنه الفضل وأعلمه أن أهل بيته والناس قد نقموا منه أشياء وأنهم يقولون : إنه مسحور أو مجنون وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدى بالخلافه . فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة وإنما صيروه أمير القوم بأمرهم كما أخبره الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون منك مكانه ومكان أخيه منك ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك

فلما علم المأمون بذلك أراد أن يستوثق من الامر قبل أن يتخذ له رأيا فسأل علبا الرضا عن الذين يعلمون ذلك الأمر من أهل عسكره فذكر له على بعضا منهم فأمر بادخالهم عليه يسائلهم عما ذكر على ؛ فلما مثلوا بين يديه سألهم عن حقيقة

الامر ولكنهم كانوا يرهبون سلطان الفضل ويخشون أن يلحق بهم مثل ما ألحق بغيرهم من التعذيب والتنكيل فجعل لهم الأمان من الفضل وأخذ على نفسه عهدا ألا يدعه يتعرض لهم فوقفوه عل حقيقة الحال وأطلعوه على ماهو مشتعل من نيران الفتن وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه فى أشياء كثيرة وعرفوه أن الفضل دس الى هرثمة من قتله وماكان من هرثمة شيء أكثر من أنه كان يريد مناصحة الخليفة بما يناصحونه به الآن وأنكروا عليه أن طاهر بن الحسين الذى أبلى فى طاعته ما أبلى ، وافتتح من البلاد ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة — أنكروا عليه أن هذا الذى وطأله الامر يخرج من الامر مسخوطا عليه ويصير الى زاوية من الارض وتحظر عليه الاموال ليضعف أمره ويشغب عليه جنده .

وما زال القوم بالمأمون حتى غيروا رأيه وأقنعوه بضرورة الخروج الى بغداد لكى يهدأ الناس ويطمئنوا عليه ويتقدموا له بالطاعة وتهدأ الثورات التى اشتعلت فى أكثر البلاد .

علم الفضل بالامر فجاء بمن ناصحوا المأمون ونكل بهم تنكيلا شديدا ولم يحمهم المأمون ولما قيل له فى ذلك اجاب بأنه يدارى ماهو فيه ثم أمر بالخروج من مرو إلى بغداد فلما وصل فى طريقه إلى سرخس تآمر قوم على الفضل ودخلوا عليه فى الحمام وشدوا عليه فضربوه بالسيوف حتى مات فى أوائل شعبان سنة ٢٠٢ هـ

* * *

والذى أرجحه أن المأمون حينما تفتقت عليه أقطار الدولة وانفل عنه أقاربه من بنى العباس واجترأ عليه بعض الرؤساء وخاشنه حين كان يعتب عليه فى استسلامه للفضل وأخذ العهد على المسلمين لمبايعة على الرضا من بعده وقامت الثورات فى كثير من البلاد وبويع لابراهيم ابن المهدى بالخلافة فى بغداد حينما حدث هذا كله تلفت حوله فوجد أنه مقبل على ظلام شديد لا بد أن يسارع إلى تبديده وإزالة سحبه واحدة فواحدة فدس على الفضل من قتله ، ثم جاء بقتلته وأجرى معهم تحقيقا فجابهوه بأنه الآمر بقتله فقتلهم إما خشية أن يفتضح الامر وإما ارضاء لاخيه الحسن الذى تزوج

من ابنته وولاه الوزارة مكانه . ثم أتى بمن كانوا ينقدون سياسة للفضل وقتلهم ، ثم قتل عليا الرضا إرضاء لبنى العباس ، ثم حرض خادما له على طاهر بن الحسين فسمه وكان سببا غير مباشر فى اعتلال الحسن بن سهل بعلة زامنته أكثر من ثلاثين عاما حبس من أجلها فى بيته ، وقيد بالحديد .

بعد أن تخلص من هؤلاء جميعا صفا له الجو ، واستنار الطريق ، وصار خليفة من جديد .

وبعد — فان موقف الفضل من المأمون ، وموقف المأمون من الفضل . يذكرنا بما كان بين أبى مسلم الخراسانى والمنصور ، وبما كان بين البرامكة والرشيد ، فكان على الفضل أن يتعظ بما جرى لأبى مسلم من قبله ، ثم بما جرى لأساتذته البرامكة على مرأى منه ومسمع .

ولكن يظهر أن الانسان هو الانسان ، من أى جيل وفى أى زمان ، يطغيه السلطان ، وتبطره النعمة ، وتعميه شهوة الرياسة عن النظر فيما يجرى حوله من أمور . ويخيل إليه أن على بصر الناس غشاوة : فليس لهم رءوس ، وليس فى رءوسهم عقول ، وهؤلاء وأمثالهم ، لايضلون إلا أنفسهم ، ولا يؤتون إلا من مأمنهم ، فاللهم اجعل لنا فى سير الماضيين عبرة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

* * *

مراجع البحث

١ ــ تاريخ الطبرى ج ٩
٢ ــ الكامل لابن الاثير ج ٦
٣ ــ تاريخ ابن خلدون ج ٣
٤ ــ مروج الذهب ج ٣
٥ ــ تاريخ ابن الوردى
٦ ــ الاخبار الطوال
٧ ــ وفيات الاعيان ج ١
٨ ــ الاعلام ج ٢
٩ ــ مختارات البارودى ج ٢
١٠ ــ الامالى ج ٣
١١ ــ التنبيه والاشراف للمسعودى
١٢ ــ الوزراء والكتاب للجهشيارى

محمد أحمد برانق

فى رسالة الغفران لأبى العلاء

بقلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ١ —

تمهيد

كان يعيش بمدينة حلب فى أخريات القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس، رجل تأدب بأدب أهلها هو أبو الحسن على بن منصور القارح بن طالب الحلبى، وقد درس فى المدينة المذكورة على علمائها كابن خالويه، وعلى أدبائها كأبى الحسن المغربى، وفى شبيبته ارتحل عنها إلى بغداد فدرس على أبى على الفارسى وأبى سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبد الله المرزبانى وأبى حفص الكتانى، ولما استوعب ما عندهم وعلم سفر أبى الحسن المغربى المذكور إلى مصر شخص اليه فيها فدارسه زماناً ثم خرج منها إلى الحجاز حاجا، ولكنه أقام فى تلك الأماكن المقدسة خمس سنين عاد بعدها إلى مصر، فلم يزل بها حتى قتل أبو الحسن المغربى على يد الحاكم الفاطمى سنة ٣٩٧، وهرب ابنه أبو القاسم المغربى إلى ميافارقين على الفرات فهرب معه.

ولما كان أبو القاسم المذكور كثير التنقل بين مدن تلك الأصقاع، كثر تنقل ابن القارح معه، وصادف أن تعرف فى مدينة آمد بأبى الفرج الزهرجى فأعجب أبو الفرج بعلمه وأدبه، وكان أبو العلاء إذ ذاك قد طبقت شهرته العلمية الأدبية وصيته

الحر الفلسفى الآفاق ، وعزم ابن القارح على قصده فى معرته فحمله أبو الفرج هذا الى أبى العلاء رسالة إعجاب منه بمكانته تلك ، وأخرى لابن القارح بمثل ذلك ، غير أن سوء الحظ أو حسنه لاندرى ، جعل عاديا يعدو على رحل ابن القارح بالسرقة وفيه الرسالتان ، فأنشأ ابن القارح الى أبى العلاء رسالة منه اليه بديلا من رسالة الزهرجى فى موضوعها ، قال فيما قال من تصديرها بعد الاستفتاح : —

كتابى أطال الله بقاء مولانا الشيخ الجليل ومد مدته وأدام كفايته وسعادته ، وجعلنى فداءه وقدمنى قبله على الصحة والحقيقة وعمد القصد والعقيدة ، وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ولا على تنقص وخلابه وتحبب ومساحه ، ولا كما قال بعضهم وقد عاد صديقا له « كيف تجدك جعلنى الله فداك » وهو يقصد تحببا ويريد تملقا ، ويظن أنه قد أسدى جميلا يشكره صاحبه إن نهض واستقل ويكافئه عليه إن أفاق وأبل ، عن سلامة تمامها بحضور حضرته وعافية نظامها بالتشرف بشريف عزته وميمون نقيبته وطلعته ، ويعلم الله الكريم تقدست أسماؤه . أنى لو حننت اليه أدام الله تأييده حنين الواله الى بكرها وذات الفرخ الى وكرها . أو الحمامة الى الفها أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالى والايام والعصور والأعوام لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الامن . والسليم الى السلامة ، والغريق الى النجاة والقلق الى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة الى الحمد والمجد . فانى رأيت نزاعها اليهما نزاع الاستقصات الى عناصرها والاركان الى جواهرها . فان وهب الله فى ملا من العمر أن يؤنسنى برؤيته ويعلقنى بحبل مودته ، صرت كسارى الليل ألقى عصاه وأحمد مسراه ، وقر عينا ونعم بالا ، وكان كمن لم يمسسه سوء . ولم يتخوفه عدو ولا نهكه رواح ولا غدو . وعسى الله أن يمن بذلك بيومه أو بثانيه وبه الثقة . وأنا أسأل الله على التدانى والنوى والبعاد ، إمتاعه بالفضل الذى استعلى على عاتقه وغاربه . فمن مر على بحره الهياج ونظر فى لألاء بدره الوهاج . خليق بأن يكبو قلبه بأنامله . وينبو طبعه عن رسائله . الا أن يلقى اليه بالمقاليد أو يستوهبه إقليدا من الأقاليد . فيكون منسوبا اليه ومحسوبا عليه ، ونازلا فى شعبه وأحد أصحابه وحزبه ، وشرارة ناره وقراضة دينارة ، وسمل بحره وثمد غمره ، وهيهات ،

ضاق فتر عن شبر وليس التكحل فى العينين كالكحل . خلق سخيا لامتساخيا وليس السخى من يتساخى : وأخلاق النفس تلزمها لزوم الألوان للأبد. ان لايقدر الأبيض على السواد ولا الأسود على البياض. ولا الشجاع على الجبن ولا الجبان على الشجاعة قال أبو بكر العرزمى

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل أقاربه
ومن لايكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عن يواثبه

ومن أين للضباب صوب السحاب وللغراب هدى العقاب ، وكيف وقد أصبح ذكره فى مواسم الذكر أذانا وعلى معالم الشكر لسانا . فمن دافع العيان وكابر الأنس والجان واستبد بالأفك والبهتان، كان كمن صالب بوقاحته الحجر وحاسن بقباحته القمر وهذى وهذر وتعاطى فقر . وكان كمحموم بلسم فعفر ونادى على نفسه بالنقص فى البدو والحضر . وكان كمن قال من يعنيه ولا يشك فيه

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وروى أن رسول الله صلى الله وسلم عليه وزاده شرفا لديه . قال « لعن الله ذا الوجهين لعن الله ذا اللسانين لعن الله كل شقار لعن الله كل قتات »

وبعد أن طوف ابن القارح فى رسالته هذه على كثير من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمتنبين ، والزنادقة والملحدين وغير هؤلاء وهؤلاء فتحدث اليهم وتحدث عنهم . مظهرا علم نفسه وأدب شخصه ، فى أسلوب يرجو من ورائه حمل أبى العلاء على الاعتراف بفضله والتقدير لأبه ، ختم الرسالة بقوله

« تمت الرسالة والحمد لله وصلواته على محمد وخيرة الآل ، وما فرغت من هذه السوداء حتى ثارت بى السوداء ، وأنا أعتذر من خطل فيها أو زلل ، فان الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد والتحرى موضوع عن المخطىء ، ومن الذى يؤتى الكمال فيكمل قال عمر بن الخطاب « رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى » وأساله أدام الله عزه تشريفى بالجواب عنها ، فان هذه الرسالة على ما بها ، قد استحسنت وكتبت عنى وسمعت منى ، وشرفتها باسمه وطرزتها بذكره — واذا جاء جواب هذه سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله وبه الثقة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

لم يكن من أبى العلاء وقد طلب منه ابن القارح عن تلك الرساله الجواب ، إلا أن يكتب رسالة الأجابة . أطول مما كتب ابن القارح ، وأعمق فيما قصد وأشمل لما أراد، بحيث تخرجه متى قرأها ، طارحا لأعجابه بنفسه قابعا فى أسمال التواضع، لامتطاولا فى حلل الخيلاء ،ولم يشأ أن يقف منه عند الرد برسالة على رسالة بل أصحبها رسالة أخرى أنشأها ابتداء ، فجاءت وحيدة عصرها فريدة دهرها متوجة كل ما سبقها من قصص عربى، بتاج العبقرية والفخار ، هى رسالة الغفران .

وبعد فأما جواب المعرى عن رسالة ابن القارح فحسبنا فيه إشارتنا اليه .

وأما رسالة غفرانه فهى معنانا فيما قصدنا، واليك التعريف بها تحت العناوين التى اخترنا : —

أولا — أشخاص الرسالة ومتناولها

بدأ المعرى رسالة الغفران بقوله : —

« وصلتنى الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها لاشك مأجور ، إذ كانت تأمر بتقيل الشرع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع . فغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها من شفع وقرب عند الله ونفع، وفى قدرة ربنا جلت عظمته، أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور، ولعله سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء الصاعدة ،بدليل الآية « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها » وفى تلك السطور كلم كثير كله عند الله تقدس أثير، وقد غرس لمولانا الشيخ الجليل ان شاء الله بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق الى المغرب بظل غاط ، والوالدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود يقولون - والله القادر على كل شىء عزيز — « نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى بن منصور نخبأ له الى نفخ الصور »

ثم أخذ يصف ما يجرى فى أصول ذلك الشجر من الانهار المتدفقة بماء الحيوان وأنهار اللبن الذى لم يتغير طعمه وأنهار العسل المصفى وأنهار الخمر التى لاغول فيها ولا تأثيم، الى ما يتصل بهذه الاشياء كلها مما جرت به عادة العرب فى العاجلة وما ساقته الشرائع من وصفها فى الآجلة، تفخيما لشانها وتحبيبا للناس فيها، حتى اذا ما انتهى من تلك الاوصاف التى أضفى تخيل أن ابن القارح وقد استحق تلك الرتبة ،قد صعد به اليها فى الفردوس فاصطفى له من الندماء الادباء من اصطفى وهنا يبدأ الحديث عن أولئك الندامى فيتخيلهم أول ما يتخيل قد نزع الله ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين، فثعلب قد غسل صدره من الحقد على المبرد ، وسيبويه قد رحض قلبه من الضغن على الكسائى،وأبو عبيدة قد صفت طويته للاصمعى ، فاذا ما عب مع اولئك من أنهار الرحيق ، خطر له حديث شىء كان يسمى فى الدار الفانية « النزهة » واذا نجيب من نجب الجنة قد خلق من ياقوت ودر فيركبه ويسيح فى جو بعد عن الحر والقر، وفى هذه النزهة يتلاقى بمن أراد أن يتلاقى فى الجنة من أهلها المستحقين لها على حسب تقدير الناس فى الفانية ، وممن غفر الله لهم لأسباب علمها منهم على غير ما كان أولئك الناس يتوقعون فيهم — وهو من أجل هذه الأسباب الغافرة سمى رسالته رسالة الغفران — وذلك كأعشى قيس الذى غفر له بقصيدته التى قصد بها إلى الرسول ﷺ لولا أن صدته عنه قريش لنهيه عن الخمر ،ويا لها من دقة فى التصوير حين أردف ذلك بأن حرمت على الأعشى خمر الجنة لايثاره خمر الدنيا على المضى إلى رسول الله تأثرا بذلك النهى عنها ، وكزهير بن أبى سلمى الذى غفر له بوصاته بنيه أن يتمسكوا بحبل النور الذى رآه فى منامه قد تدلى من السماء ، وكعبيد بن الأبرص الذى غفر له ببيته «من يسأل الناس يحرموه:وسائل الله لايخيب» هذا البيت الذى لم يزل كلما أنشده الناس يخفف من عذاب عبيد حتى لم يبق عليه عذاب . وكعدى ابن زيد الذى غفر له أنه كان فى الجاهلية على دين المسيح . وكنابغة بنى ذبيان الذى غفر له اقراره بالله فى جاهليته وتعظيمه بيته وحجه إياه .

أما الأولون فكان منهم أبو ذؤيب الهذلى والنابغة الجعدى ولبيد العامرى وحسان الانصارى وجران العود النميرى ثم عورار قيس الخمسة — الشماخ بن ضرار،

وعمرو بن أحمر وعبيد بن الحصين ،وحميد بن ثور ،وتميم بن أبي مقبل — وما كان ألبقه فى أن يجرى الحديث مع كل واحد من هؤلاء فى الوادى الذى يطرد وتياره ويتوامم وأدبه وينبه فيه عن ناحية تكشف غامضا أو تدفع ريبا . بل ما كان ألبقه أن يتخيل تميما — وقد أنساه هول الحساب شعره — يقول لابن القارح وقد بقى له أدبه ، أن حفظك لمبقى عليك كأنك لم تشهد هول الحساب يوم المحشر ، ليكون جواب ابن القاوح له ، أنا أقص عليك قصتى يوم الموقف ، وهنا يفيض الحديث فى هول ذلك اليوم وما كانت حاله منه. فيذكر أنه تشفع فيه بشعره الى رضوان وزفر فلم يعد عليه بنفع . وأنه التقى بحمزة بن عبد المطلب عن طريق شعره أيضا فلم يفده بشيء . غير أنه أنفذ معه رسولا الى على بن أبي طالب ليتوسل اليه بما كان من توبته . وأنه ذهب وتوسل بها فسأله على الشاهد عليها ، فشهد له قاضى حلب وعدولها أيامه ، وهنا يرد الحوض ويتمسح بفاطمة الزهراء ومن معها من سائر العترة أن تريحه من هول الموقف وتعجل بمصيره إلى الجنة، فتعهد بذلك له إلى أخيها ابراهيم الذى أمره أن يتعلق بركابه ، وأوصله الى صاحب الشفاعة أبيهما محمد ﷺ صاحب الموقف فتشفع له بتوبته ويأذن له بدخول الجنة ، ولكن أنى له بعبور الصراط لولا جارية للزهراء أمرتها سيدتها أن تجيزه فأجازته ووهبتها له ، حتى اذا ما صار على باب الجنة توقف رضوان واذا إبراهيم بن الرسول قد عاد اليه فجذبه جذبة حصلته فى الجنة ، وقد بقى له أدبه وحفظه ما نزفه هول موقف ولا نهكه تدقيق حساب .

وهنا يبدو له أن يطلع الى أهل النار لينظر ما هم فيه من جحيم ، فيعظم شكره على ما رأى لأهل الجنة من نعيم ، فيسير واذا هو يرى فى أقصى الجنة بيتا كأنه كوخ أمة راعية ، أمامه شجرة قمينة ليست بذات ثمر ، وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة ، ولم يكن ذلك الرجل الا الحطيئة ، فيعجب له ويسأله كيف رضى بهذا البيت ، فيقول والله ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط ،وما كان ذلك الا لصدقى فى ذم نفسى، أما قول

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فلم يغفرلى لأنى قلته ولم أعمل به ، فاذا ما سأله عن الزبرقان بن بدر قال هو رئيس فى الآخرة كما كان رئيسا فى الدنيا ، انتفع بهجائى ولم ينتفع غيره بمديحى ، وبينما يسير فى طريقه إلى الجحيم اذا هو بمدائن ليس عليها النور الشمشمانى الذى لمدائن الجنة ، فيسأل ما هذه فيجيبه بعض الملائكة هذه جنة من آمن بمحمد من العفاريت ، فيعدل اليها تلمسا لبعض الأعاجيب فيها ، واذا هو بشيخ منهم استسماه فقال أنا الخيتعور أحد بنى الشيصبان الذين ليسوا من ولد ابليس إنما هم من الجن الذين كانوا يسكنون الارض قبل ولد آدم ﷺ ، فيقول وما كنيتك لأكرمك بالتكنية فيقول أبو هدرش ، ثم يدور بينهم الحديث حول أشعار الجن وينتهى بأن ينشده ذلك الشيخ قصيدتين من شعره ، يذكر فى أولاهما ما كان من تمرده وإيذائه قبل أن يؤمن ، ويقص فى الثانية حديث الرجم وأشياء من إيذائه وغواياته التى لم تزل دأبه حتى آمن ، فانقلب من أهل الجهاد والغزوات كما حدث فى كثير من الأبيات .

واذا ما انتهى به المطاف الى أقصى الجنة رأى هنالك الخنساء تطل على أخيها صخر فى الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه كما قالت فيه ، فاطلع فرأى إبليس اللعين فى السلاسل والأغلال ، وهنا يبدأ الحديث مع أهل الجحيم ، فيتحدث عن إبليس ومحاولته فتنة بنى آدم فى الآخرة كما كان دأبه فى الدنيا ، وعن بشار ويده عند إبليس لتفضيله اياه على آدم ، وعن امرىء القيس وتكذيبه نسبة الشعر المسمط اليه ، وعن عنترة وخطئه فى دعواه عدم ترك الاول للآخر من الشعر شيئا ، وعن علقمة وسوء رأيه فى النساء ، وعن عمرو بن كلثوم وسناده فى معلقته ، وعن الحارث اليشكرى فيما أخذ عليه وما استحسن له ، وعن طرفة فى سمو لاميته والحقيقة فيمن الآمر بقتله ، وعن أوس بن حجر وتضارب الرواة فى نسبة بعض الأبيات اليه أو الى النابغة الذبيانى ، وعن أبى كبير الهذلى وضيق عطنه بالقريض لتشابه المبادىء فى كل قصائده على قلتها ، وعن الاخطل فى صفته الخمر وإقامته على النصرانية ورتوعه فى مراتع الضلال مع يزيد بن معاوية وتهكمه بشعائر الاسلام ، ثم عن مهلهل وتقصيده القصيد ، والشنفرى وقلة شكواه كأصحابه فى النار أخذا بقوله ،

فى الفانية «وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل» وتأبط شرا وتكذيبه عن نفسه نكاح الغيلان وتقريره أن ماقال فى ذلك من شعر إنما كان تقولا وتخرصا على عادة الجاهليين إلى هنا ويعن له أن يعود الى محله فى الجنة ، فاذا ما عاد لقى آدم أبا البشر وساله عن نسبة الشعر اليه ، فينفيه له ويصيح فيه ، « لاحول ولا قوة الا بالله. كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ثم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض» فيتركه ضاربا فى غيطان الجنة الى جنان الحور » واذا هو يرى أبياتا ليس لها سموق أبيات الجنة هى أبيات الرجاز فيقول تبارك العزيز الوهاب لقد صدق الحديث المروى « إن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها » وان الرجيز لمن سفساف القريض قصرتم أيها النفر فقصر بكم وهنا يدور بينه وبين رؤبة فى ذلك حجاج يطول حتى يسأل فيه العجاج المحاجزة ، فينصرف ابن القارح الى متاعه فى الجنة يعب من رحيقها بين حوره وولدانه ، فاذا ما تمنى فى خاطره أن يلحقه ماكان يلحق أخا الندام من فتور ، وقع فى ذلك على مفرش من السندس فى سرير ، واذا السرير تحمله جوار وغلمان الى محله المشيد فى دار الخلود ، وكلما مر بشجرة نضحته بالمسك وماء الورد قد خلط بالكافور ، وانقضبت ثمارها من أغصانها بقدرة الله الى فيه ، كل ذلك وأهل الجنة يتلقونه بالوان التحية والترحيب ، وآخر دعواهم — كما أخبر القرآن — أن الحمد لله رب العالمين.

السباعى بيومى

العاطفة وارتباطها بالادب [1]

للاستاذ عبد الحميد حسن (٢)

قد علمنا أن الأدب هو نوع من الانتاج العقلى وانا إنما نحرص على الرائع منه وعلى ماله شأن فى حياة الفرد وخير الامة فالغاية من الادب أن يكون غذاء لخير ما فى الفرد من صفات ونزعات وحافزا الى عظيم الشيم ومعبرا تعبيرا صادقا عما يتجلى فى البيئة الطبيعية والاجتماعية . وأن الادب الذى نحرص عليه هو الذى ينفذ الى الحياة فيجلى أسرارها ويظهر محاسنها وينمى خير ما فيها ، وهو الذى يتصل بالرفيع السامى مما فى النفس الانسانية ، وهو الذى يمدنا بما يملأ قلوبنا اعجابا وروعة ويجد فيه الجيل الحاضر والاجيال القادمة غذاء عقليا يسمو بنفوسهم

فكيف نصل الى أن نجعل الوان الانتاج الادبى وموضوعاته محققة لهذه الاغراض السامية ؟

ليس لهذا الانتاج قوانين تحظر أنواعا وتبيح أخرى فان الانتاج الادبى لارقيب عليه ، وكل أديب أو متأدب له أن يسطر ما يشاء ، وأن يغمر الصفحات بما يطيب له ، وأن يستثير من النزعات الانسانية ما يريد ، ومن الوان العواطف ما يرى نفسه متجهة اليه . وقد يسير بعض الادباء فى اتجاه يدور حول أشخاصهم ونزعاتهم الفردية ولا يعنون الا بالاصغاء الى داعى ميولهم وأهوائهم ، ومنهم من يجعل همه اجتذاب الاعجاب واثارة الميول وارضاء الشوق ولو دعاه هذا الى ركوب الشطط فى ايقاظ الهابط من النزعات والاسراف فى الوان رخيصة من الادب لاتحقق الغاية التى ننشدها

ولسنا نملك أزاء هذا أن نحظر على الادباء أن يعرضوا ماشاءوا أو أن يسلكوا

---

(١) انظر القسم الاول من المقال فى العدد الثالث من السنة التاسعة .

من السبل ما يحبون ولكن الذى نستطيعه انما هو توجيه الاذهان الى مقومات الادب الصحيح ، والى العواطف ذات الشأن فى تنشيطه وتقويمه . وللنقاد فى هذا الميدان كبير الاثر اذا صحت همتهم وساروا الى القصد بخطوات سديدة

...

فماذا عسى أن تكون هذه العواطف ، وما الذى ينبغى أن يتوافر فيها من شروط ؟

لعلنا لانعدو الجادة اذا اشرنا الى أنواع من العواطف نرى أن لها شأنا فى الادب وهى :

(١) العواطف الاجتماعية والقومية

(٢) العواطف الصادقة البعيدة عن التكلف والتصنع

(٣) العواطف المثقفة

(٤) العواطف ذات الشأن فى المثل العليا للحياة

(٥) العواطف الفردية التى تعبر عن قدر مشترك من الميول تجيش به نفوس الجميع من بنى الانسان

فهذه الانواع مما ينهض بالادب العاطفى ويكسبه قوة ويزيده خصبا ويجعل أثره شاملا

(١) فالعواطف الاجتماعية والقومية هى التى تخرج بانفعالات الاديب إلى ميدان واسع وتنشرها فى المجتمع وتتصل بالحياة فى شتى نواحيها وتتجه بآمال الشعب وميوله وجهة توحد غاياته العامة وتربط أواصره وتكون له كالمصابيح تهديه فى مجاهل الحياة ، وتجعل من الامة وحدة متماسكة ونفوسا مشتركة الاحساس تترنم بأنبل الغايات .

والاديب إذا حمل لواء هذا النوع من العواطف فأوضح مبهمة ، وتألف هائمة كان من أقوى بواعث الاصلاح والتوجيه إلى خير المقاصد ، فان هذه العواطف الاجتماعية والقومية هى القلب النابض للشعب والقوة الحافزة لافراده وهى دليل على وحدة الامة واكتمال مقوماتها .

ومجال هذا النوع فسيح فى الموضوعات الوطنية والحوادث التاريخية والنهضات القومية وكذلك فى حياة الريف وما فيها من ذكريات وفى آمال الشعب ومقاصده. ولعل هذا النوع من العواطف يتطلب النشاط فى أدبنا الحديث . فهو دعامة الاصلاح الاجتماعى وللادب القومى المرتكز على حياتنا ، النابع من البيئة التى نغسج منها نفوسنا وننقش على صفحاتها آثارنا

(٢) العواطف الصادقة :

ان من أهم صفات الادب أن يكون طبيعيا وأن يكون صادق الافصاح عن المعانى الحيوية دقيقا فى تصوير النزعات النفسية وما يتغلغل فى الصدر من ميول وآمال وأن يعرض لكل هذا فى غير مواربة أو تكلف .

أما الاديب الذى يلبس ثياب التصنع العاطفى فيجرى لسانه بما ليس فى جوانحه ويبدى سرورا لا ينطوى عليه قلبه ، أو يتكلف حزنا لا تجيش به نفسه ، فان أدبه لا يكون نابعا من القلب فلا يصادف مكانا من الوجدان .

على أننا لا نبغى أن نحصر العواطف فى دائرة ضيقة يعجز فيها الاديب عن تصور آلام غيره وآماله وعن تعرف ما تجيش به النفوس من ترح أو فرح ، فانا نعتقد أنه يستطيع الاستعانة بخياله وبتجاربه على التعبير الصادق عن كل ذلك ، ولكننا نرى أن المعانى التى تصدر عن الطبع والخبرة أصدق افصاحا من التى تصدر عن التكلف وتنطوى على المحاكاة اللفظية المجوفاء .

وليس معنى هذا أن الأدب إذا خلا من العواطف التى تنبع من التجارب فقد خلا من عناصر القوة، فهناك منابع أخرى قد يرتكز الأدب عليها كالخيال والأسلوب والفكرة فيكون له من هذا قوة أو لون من الجمال .

(٣) العواطف المثقفة :

لسنا نشك فى أن للثقافة شأنا فى العواطف وفى الأدب العاطفى فان الثقافة ترشد العاطفة وتعصمها من الضلال والخلط إلى حد ما . والعاطفة إذا انبرت إلى ميدان العمل وهى عزلاء من التوجيه الفكرى والارشاد الثقافى كانت جوفاء

وأصبحت أشبه بالأنين المنبعث عن الأسى والحزن أو كالترنحات التى تعبر عن المرح ، أو كالسرور الذى لايعدو بهجة سطحية كابتهاج الصبى باجابة رغباته ، أو كالميول الهوجاء التى لاترتكز على تفكير وليس لها مرشد من ثقافة .

وأقرب العواطف إلى الضلال والهيام الشارد هى تلك العواطف التى يخلو ميدانها من الثقافة فتكون كالزهرة الذابلة ، أو الأرض الجرز ، أوكصورة من الجص لطائر غرد ، أو كمعزف موسيقى اضطربت أوتاره وبعدت عن النجانس والانسجام .

(٤) العواطف الراقية التى تتجه الى المثل العليا :

وهذا النوع هو أرقى أنواع العواطف وأجداها وأعظمها أثرا فى تحقيق نبيل الغايات التى تطمح اليها الانسانية ، وتتجه إليها النفس فى مظاهرها الثلاثة ، وهى الحق والخير والجمال ، ولكل ناحية من هذه النواحى عواطف تتجه إليها .

(٥) العواطف الفردية التى تتجلى فى أغلب الاشخاص أو فيهم جميعا . وذلك أن العواطف الفردية عرضة لأن تكون محصورة فى نفس صاحبها لايشعر بها غيره ، ولكن التشابه فى ألوان الحياة ، والتجانس فى مظاهرها وأحوالها ، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجا لعواطف غيره ، ولاسيما إذا كان صادق الحس صافى الوجدان . ولهذا يكون هذا النوع الفردى سهل الاستساغة سريع الاتصال بالنفوس .

وان قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النواع من العواطف تأثيرا وقوة وتجعل مانقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا .

أما تلك العواطف الفردية التى لاتمثل إلا هياما سابحا ، أو حيرة شاردة ، فانها لاتحمل فى طياتها إلا خلجات مضطربة تتقاذفها أهواء النفس فتضل السبيل ولاتجد لها موئلا .

* * *

هذه بعض أنواع العواطف البارزة فى حياتنا وفى نفوسنا وهى من الألوان الوجدانية التى تمتزج بالأدب فتكون له كالماء للعود ، وكالشذى للزهرة ، وكالهواء للكائنات النامية ، وتسرى فى نواحى الفن الأدبى فتسمو به وتجعل له شأنا فى حياة الافراد وحياة الأمم .

وقد تكبت بعض العواطف أو المظاهر الوجدانية فى نفوسنا فيضيق بها الصدر أو تعجز النفس عن احتمالها أو الاضطلاع باعبائها فيفسح لها الأدب فى المجال ويكشف عنها القناع ويخرجها إلى جو الحرية فتحلق مطمئنة وتظلل الحياة بوارف من النعيم والعيش الرغد . وقد ينفذ الأديب إلى مكامن آلامنا فيضفى عليها من فنه ما يبعث فيها بهجة وأملا واطمئنانا وسكينة تشرق فى الصدر وتنير جوانب النفس .

وإن العواطف أشبه بآلات التصوير وزجاجها الحساس ، فهى تلتقط من ألوان الحياة ومظاهرها مايروقها ، ثم تعكس كل ذلك على صفحة النفس فتخرج صوراً تكون نماذج للحياة وما فيها ، وللنفوس وما يتغلغل فى نواحيها .

* * *

لعلنا بعد هذا قد أوضحنا مابين الأدب والعاطفة من صلة ، وأظهرنا أن هذه الصلة إذا ارتكزت على نبيل العواطف جعلت من الأدب منهلا عذبا ومعينا فياضا لخير الانسانية .

فلننظر إلى الأدب العربى على هذا الأساس لنرى حظه من العواطف ، وما الذى اشتمل عليه من ألوانها :

والأدب نوعان شعر ونثر وان حظ الشعر من العاطفة أوفى ، وحظ النثر من الفكرة أوفر ، فالعاطفة فى الشعر هى إحدى الدعامتين (والثانية هى الخيال) والفكرة عون لها . وعكس ذلك فى النثر . ولسنا نقصد بالشعر الكلام الموزون ، بل نقصد معناه الفنى ، ومن النثر على هذا ماهو شعر .

أما النثر فمنه طائفة من الرسائل فى أغراض شتى فى الشؤون الاجتماعية والحيوية

والسياسيه وفى النقد وفى الأحوال الخاصة كالشوق والاعتذار وغيرذلك. وهنالك أيضا المقامات ثم الأوصاف فى متنوع الأغراض كوصف مظاهر الطبيعة ووصف النفس ونزعاتها ، ولا تجد من هذه الأنواع فى النثر العربى إلا جانبا ضئيلا من العواطف . على أن ماظهر فيه منها إنما هو ذلك النوع من العواطف الفردية . وان النوع الذى تجلت فيه بعض مظاهر الوجدان يعد أقرب الى الادب الموضوعى منه إلى الأدب الذاتى . أى أنه ينبع من الخارج ويمر بالمظاهر الخارجة عن النفس دون أن يمتزج بنفس الكاتب امتزاجا عميقا . وهو لذلك لايصور شخصية خاصة ولايصطبغ بلون من ألوان النفس الانسانية . ولعله إلى الصناعة اللفظية أقرب .

وأما الشعر فهو أوسع مجالا للعواطف .

ويقسم الافرنج الشعر الى قصصى وغنائى وتمثيلى ومنه الفكاهات والفاجعات . أما الشعر العربى فله فنون معروفة وهى الفخر والمدح والرثاء والهجاء والغزل والنسيب والوصف والاعتذار والمجون وغير ذلك .

وجمهرة الشعر العربى من النوع الغنائى الذى يترنم فيه الشاعر بالمفاخر والمآثر ويسرد صفات فردية لمن يمدحه أو يذمه . وإلى جانب هذا موجة جارفة من الحب الصناعى غمرت الشعر فى أغلب العصور العربية حتى أصبح من خصائص القصائد أن تفتتح بالغزل . وربما كان لهذا سبب ، وسنعرض للبحث فيه فى فرصة أخرى ، وموجة ثانية فى المدح استنفدت جهود معظم الشعراء . أما الاغراض الاجتماعية فلم يكن لها نصيب يستحق الذكر .

ونجد أمثلة للشعر الذى تبدو فيه العواطف فى الغزل وفى بكاء الاطلال وفى الرحيل والفراق وفى الاليف وخطاب الحمام وغير ذلك من العواطف الرقيقة الحزينة أو المتصلة بالآلام والآمال . وفى دواوين الشعراء وكتب الادب نماذج من ذلك .

وأنا نلاحظ بصفة عامة أن الشعر ينحو بما فيه من عواطف ناحية أقرب الى الصناعة وليست فى جملتها من العواطف المتغلغلة فى الحياة الاجتماعية .

* * *

هذا ، واذا أردنا أن نرسم للعاطفة طريقها القويم فى الادب وأن نغرى الادباء بالاهتمام بألوان خاصة من العواطف ، فان خير مايصل بنا إلى ذلك هو أن نستعيد إلى أذهاننا مايجب أن يحققه الادب من مقاصد وغايات :

نريد من الادب أن يصور النفس الانسانية تصويراً يشعرنا بفبرتها وخلجاتها حتى يكون ذلك مرآة لما فى نفوسنا وما يمكن أن يجول بخواطرنا .

نريد منه أن يرسم الاشياء من أصدق جهاتها وأوضح مظاهرها حتى نراها عن طريق عينى الاديب ونستجليها من طريق مشاعره وصائب نظره .

نريد منه أن يكون صورة للشخصيات التى تتفتح لها القلوب وتلقى لها النفوس بالزمام وتسير معها فى وديان ممتعة من الانسانية فى شتى مظاهرها وأحوالها .

نريد منه أن يكون خير معبر عما يحيط بنا من مظاهر طبيعية وأوضاع اجتماعية وعادات قومية حتى نجد صامت الحقائق ناطقا وكامن المعانى ظاهراً جليا .

نريد منه أن يكون عامل هداية للمثل العليا فى الحياة وهى : الحق والخير والجمال .

ونريد من الادب العاطفى أن يتجه الى النواحى التى أشرنا إليها ، وهى النواحى القومية أو الفردية التى تتجلى فى كل نفس ، لا العواطف الخاصة الهائمة .

هذا هو الذى نريد أن يتجه إليه أدبنا الحديث ، وهو الذى نريد أن نبحث عنه فى أدبنا القديم فى عصوره المختلفة ليتخذ منه المتعلمون والباحثون هاديا . ومن الوسائل التى تحقق هذا أن يكون الادب خير ترجمان للانسانيه وجليل صفاتها .

ولعل مااوضحنا من الوان العواطف يكون معوانا على بعض نواحى النقد الادبى وحافزاً على الاشادة بطائفة من فنون الادب نرقب لها النشاط .

ولعل هذا الجانب الوجدانى ينال مايستحق من عناية ورعاية من المهتمين بالنقد الادبى حتى يخرج النقد إلى ميدان فسيح ولا يكون مقصوراً على اللفظ والديباجة .

ولعل النقاد المخلصين للفن وهم دعائم الاصلاح يرسمون للنقد خطة قويمة حتى نظفر بخير ألوان الادب وأروع فنونه .

عبد الحميد حسن

(٢)

الصداقة والخصومة

وأثرهما فى الحياة والأدب

للأستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب

١٦

تكلم أرسطو عن الصداقة فأوضح أنها ضرورية لحياة الانسان وأبان أهميتها للفرد وأهميتها السياسية وأنها شريفة كما هى ضرورية .

يقول أرسطو الصداقة هى ضرب من الفضيلة وهى فوق ذلك إحدى الحاجات الأشد ضرورة للحياة لأنه لاأحد يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ولو كان له مع ذلك كل الخيرات . كل الناس على وفاق فى أن الاصدقاء هم الملاذ الوحيد الذى يمكننا الاعتصام به فى البؤس وفى الشدائد المختلفة الأنواع فحينما نكون شبابا نطلب إلى الصداقة أن تعصمنا من الزلات بنصائحها . وحينما نصير شيوخا نطلب اليها عنايتها ومساعدتها التى تقوم مقام نشاطنا حيث ضعف السن يجلب علينا كثيرا من أنواع الخور وأخيرا حينما نكون فى كل قوتنا نعتمد عليها لنتم بها بهاء أعمالنا .

بل قد يمكن القول بأن الصداقة هى رابطة الممالك وأن الشارعين يشتغلون بها أكثر من اشتغالهم بالعدل نفسه . ان وفاق الأهالى ليس عديم الشبه بالصداقة وان هذا الوفاق هو ما تريد جميع القوانين استقراره قبل كل شىء كما تريد قبل كل شىء نفى الشقاق الذى هو أضر عدو للمدنية . متى أحب الناس بعضهم بعضا لم تعد حاجة إلى العدل غير أنهم مهما عدلوا فانهم لاغنى لهم عن الصداقة .

الصداقة ليست فقط ضرورية ولكنها فوق ذلك جميلة وشريفة اننا نمدح أولئك الذين يحبون أصدقاءهم لأن المحبة التى يوليها المرء أصدقاءه يظهر لنا أنها احساس

من أجمل الاحساسات التى يشعر بها قلبنا بل كثير من الناس يشتبه عليهم لقب الرجل الفاضل بلقب الرجل المحب .

— ١٧ —

بين أرسطو بعد ذلك أسباب الصداقة وفرق بينها وبين العطف ثم قسمها إلى ثلاثة أنواع وقارن بينها مقارنة محكمة فقال : —

بديهى أن كل شىء لا يمكن أن يكون محبوبا فالانسان لا يحب إلا الشىء القابل لأن يحب أى الخير أو الملائم أو النافع وبالنتيجة ضروب الحب والصداقات التى تشبهها يجب أن تختلف كذلك . وعلى ذلك يوجد ثلاثة أنواع من الصداقة تقابل فى العدد الأسباب الثلاثة للمحبة وهى صداقة الفضيلة وصداقة اللذة وصداقة المنفعة وبالنسبة لكل واحدة منها يجب أن يوجد تبادل حب لا يبقى مستورا عن واحد ولا عن الآخر من أولئك الذين يجدونه .

نعم تسمى عطوفة تلك القلوب التى تريد الخير للغير ولو لم تقابل بالمثل من ناحية ذلك الذى نحبه فاذا كان العطف متبادلا وجب أن يعتبر كالصداقة وقد يقع أن يعطف الانسان على أناس لم يكن رآهم أبدا ولكنه يفرض أنهم طيبون أو أنه يمكن أن يكونوا نافعين ويلزم لأجل أن يكونوا أصدقاء حقا أن يكون لديهم بعضهم لبعض احساسات العطف وأن يريدوا الخير بعضهم لبعض وألا يجهلوا الخير الذى يتعاوضون إرادته لسبب من الأسباب .

حقا ان الصديقين لا يكونان صديقين إلا بعد أن يحس كلاهما بادىء الأمر بعطف نحو الآخر لكن لا يكفى أن يكون بالمرء عطف ليكون محبا بل يقصر الامر على أن يتمنى المرء الخير لأولئك الذين يحس نحوهم العطف من غير أن يكون مع ذلك مستعدا لأن يعمل لهم أى شىء ويمكن أن يقال أن العطف متى استطال مع الزمان ووصل إلى أن يكون عادة صار صداقة حقة .

والفرق بين العطف والصداقة أن العطف قد يكون فجائيا متولدا عن احساس سطحى أما الصداقة فتمتاز بالعمق والبقاء والعطف قد يكون نحو أناس بعيدين عنا كل البعد بل نحو أناس لم نرهم فى حياتنا مرة واحدة أما الصداقة فانها كالحب

تبتدىء بلذة النظر أو السمع لأنه إذا لم يعجب المرء رواء الشخص أو حديثه لا يمكنه أن يحبه ولا يكون من الحب إلا متى أسف المرء على غيبة شخص ورغب فى حضرته والعطف تثيره الفضيلة واستحقاق كيفما اتفق كلما ظهر شخص لآخر بمظهر الشرف أو الشجاعة أو الأريحية أو أى كيف من هذا القبيل والصداقة يولدها الخير واللذة والمنفعة .

— ١٨ —

الناس المتحابون يريدون الخير بعضهم لبعض فى نفس معنى السبب الذى هم به متحابون فالذين يحب بعضهم بعضا للمنفعة يتحابون لا لذواتهم بالضبط ولكن من جهة أنهم يصيبون خيرا ما وكسبا ما من علاقاتهم المتبادلة ومتى أحب الانسان بالفائدة وللمنفعة فانه لا يطلب فى الحقيقة إلا خيره الشخصى ولا يحب من يحبه من أجل صفاته الممتازة بل من أجل كونه نافعا .

الصداقة بالمنفعة يشبه أن تتولد على الخصوص من المفارقة مثلا بين الفقير والغنى بين الجاهل والعالم كما لو نقص المرء شىء فهو مستعد لتحصيله بأن يعطى شيئا آخر عوضا له وهى خليقة بنفوس التجار وتوجد على وجه أخص فى الناس المسنين فان الشيخوخة إنما تطلب ماهو نافع ليس غير والمنفعة يمكن أن تسبب الصداقة بين الاشرار كما يمكن أيضا أن تربط الاخيار برابطة الصداقة مع الاراذل وتصير أولئك الذين ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء أصدقاء للأولين أو الآخرين بلا تمييز ونلاحظ أن أفلاطون قد صرح أن الصداقة لا تأتى بين الأشرار بعضهم وبعض ولا بينهم بين الاخيار فاذا اضفنا الى ذلك أن أرسطو يعتبر هذه الصداقة عرضية وبالواسطة وليست غير ذات نسبة إلى الصداقة بالفضيلة أمكن القول بأن الفيلسوفين العظيمين قد التقيا فى هذه النقطة .

لا حاجة بالمرء إلى كثير من الاصدقاء النافعين لأنه من الصعب عليه أن يدفع المقابل ويعترف بجميل جميع صنوف المعروف متى كان ما يسدى اليه كثيرا وقد لا تكفى الحياة بأسرها لهذا الغرض أن أصدقاء أكثر عددا مما يلزم للحاجات العادية للحياة لا فائدة منهم بل قد يصيرون عائقا للسعادة .

الشكاوى والمعاتبات لاتحصل إلا فى الصداقة بالمنفعة وحدها أو بعبارة أخرى إنما تحصل أكثر مايكون فى هذه الصداقة فانه نظرا إلى أن الصديقين لايرتبطان إلا لمنفعة فانه لكليهما دائما حاجة إلى أكثر مما له ويتصور أنه يأخذ أقل مما ينبغى فيشتكى حينئذ من أنه لم يجد كل مايرغب وكل ما كان يظن أنه يستحقه حقا وعدلا

ان الصدافات من هذا النوع تنقطع بغاية السهولة لأن هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم أصدقاء لايثبتون طويلا مشابهين لانفسهم ومتى صار الاصدقاء غير نافعين انقطع حبهم حالا أن النافع أو المفيد لاثبات له بل هو يتغير من لحظة إلى أخرى على أتم وجه وإذا انعدم السبب الذى صيرهم أصدقاء انعدمت الصداقة أيضا مع الصلة الوحيدة التى كانت كونتها .

— ١٩ —

والذين يحب بعضهم بعضا للذة لايتحابون لذواتهم بالضبط أيضا بل من جهة أنهم يتالون سرورا أو يدفعون ألما من جراء هذه الصداقة فاذا أحبوا الناس أولى الاخلاق السهلة فما ذلك بسبب خلق هؤلاء الناس نفسه بل لاجل اللذة التى يجلبها لهم هؤلاء الاشخاص ليس غير .

أهل الثراء يتخون أصدقاء اللذة وإذ يفكرون فى لذتهم لايبغون إلا أناسا محبوبين هينين أو أناسا حذاقا مستعدين دائما أن ينفذوا مايؤمرون به والمساواة بين الطرفين شرط فى انعقاد مثل هذه الصداقة .

الصداقة باللذة هى أشبه بالصداقة الصحيحة متى كانت الظروف التى تولدها هى واحدة من جانب ومن آخر وان يسر كلا الصديقين بصديقه وأن يعجبهما لهو واحد وهذا هو الذى يوجد صداقات الشبان لأنه على الخصوص فى هذه الصداقات يكون السخاء وكرم القلب ولكن يلاحظ أنه مع تقدم السنين تتغير اللذات وتصير غير ما كانت بالمرة لهذا يعقد الشبان علاقاتهم بغاية السرعة وينقضونها بسرعة لاتقل عن الاولى . ان الصداقة تتغير مع اللذة التى كانت ولدتها وأن تغير هذه اللذة سرعان مايكون .

يمكن أن توجد اللذة صداقة بين الأشرار بعضهم وبعض وهنا تتحول اللذة

إلى شرور وآثام لا قبل للمجتمع باحتمالها وسرعان ما ينقلب الصديقان بعضهم لبعض عدواً وكما اعتبر أرسطو صداقة المنفعة عرضية وبالواسطة اعتبر صداقة اللذة عرضية وبالواسطة

لامحل للمنازعات فى الصداقة باللذة لأن كلا من الصديقين له ما يرغب فيه على السواء إذا لم يريدا إلا لذة العيشة معاً ومن السخريه كل السخرية أن يلوم أحدهما صديقه على كونه لا يلذ بهذه العشرة لأنه يمكن بغاية السهولة أن يتقطع عن العيشة معه .

— ٢٠ —

الصداقة الكاملة هى صداقة الناس الذين هم فضلاء والذين يتشابهون بفضيلتهم لأن اولئك يريدون الخير بعضهم لبعض من جهة أنهم أخيار اولئك الذين لا يريدون الخير لأصدقائهم إلا لهذه الأسباب الشريفة هم الأصدقاء حقا اولئك بأنفسهم بطبعهم الخاص لا بالغرض يكونون على هذا الاستعداد السعيد ومن ثم يجىء أن صداقة هذه القلوب الكريمة تبقى ما بقوا هم أنفسهم أخيارا وفضلاء

يمكن أن يقال أنهم فوق ذلك نافعون بعضهم لبعض ويمكن أن يزاد أيضا أنهم ملائمون بعضهم لبعض إذا كانوا أرضياء على الاطلاق

فى هذه الصداقة توجد الفضيلة وتوجد المنفعة وتوجد اللذة لذة الملاءمة وحينئذ فلا شىء فى الدنيا أحب من هذا إنما توجد الصداقة غالبا بين الأشخاص الذين هم على هذه الأهلية وهى فيهم أكمل ما تكون

على أن من المفهوم بالبداهة أن تكون الصداقات بمثل هذا النبل نادرة جدا لان الناس الذين هم على هذا الخلق أيضا قليل جدا ولعقد هذه العلاقات يلزم زيادة على ذلك الزمان والعادة وبعض الشروط الأخرى

— ٢١ —

وأنت تعتبر صديقا ذلك الذى يريد لك الخير إن ظاهرا وإن حقا وبفعله معك وهو يقصد به قصدك ليس غير وكذلك هذا الذى لا يرغب فى حياة صديقه وسعادته

إلا من أجل هذا الصديق ذاته وقد يقال ايضا أن الصديق هو ذلك الذى يعيش معك والذى يتحد وإياك فى الأذواق والذى تسره مسراتك وتحزنه أحزانك

وأهم ميز للأصدقاء هى المعيشة المشتركة فمتى كان المرء فى العسر رغب فى هذه المعيشة لما يصيبه فيها من المنفعة ومتى كان فى اليسر رغب فيها من أجل السعادة لقضاء أيامه مع الذين يحبهم ولا شىء أقل موافقة للأصدقاء من العزلة أن العمل الذى يجعله المرء قوام حياته الخاصة أو الذى يجد فيه أكبر لذة هو أيضا ذلك الذى يريد كل واحد أن يشاطره فيه أصدقاؤه وهو يعيش معهم على ذلك فالبعض يأكلون ويشربون معا وآخرون يصطادون معا وآخرون يروضون أنفسهم معا على دروس الفلسفة وعلى جملة من القول كلهم يقضون أيامهم فى أن يباشروا معا ما هو الذ لهم فى المعيشة .

على أنه فى الأحوال التى تكون فيها المسافة بين الأشخاص بعيدة جدا من جهة الفضيلة أو من جهة الرذيلة أو من جهة الثروة أو من جهة أى شىء آخر لا يمكن أن توجد الصداقة بمعناها الصحيح بل قل أن تنعقد ويمكن أن يشاهد هذا بالنسبة للملوك فان الانسان هو أنزل منهم فى أمر الثروة الى حد أنه لا يستطيع حتى أن يريد أن يكون صديقهم كما أن الناس الذين ليس لهم مكانة لا يفكرون فى إمكان صيرورتهم أصدقاء للرجال الاعلين والأحكمين

متى كان الصديقان متساويين لزم بمقتضى هذه المساواة نفسها أن يكونا متساويين فى المحبة التى يحملانها وفى سائر الباقى ولكن متى كانا غير متساويين فلا يبقيان صديقين إلا بمحبة يجب أن تكون متناسبة مع تفوق أحد الاثنين

ولما كانت الصداقة منحصرة أكثر فى أن يحب المرء من أن يكون محبوبا وكان الناس الذين يحبون أصدقاءهم فى أعيننا حقيقين بالمدح يظهر أن الحب يجب أن يكون هو الفضيلة الكبرى للأصدقاء وينتج أنه كلما كانت المحبة تبنى على الاستحقاق الشخصى لكل واحد من الصديقين كان الأصدقاء أوفياء وكانت علاقاتهم متينة وباقية .

— ٢٢ —

خاصة الناس الفضلاء أن يقوا أنفسهم من الخطايا وأن يعرفوا وقت الحاجة أن يوقفوا خطايا أصدقائهم وذلك فيما يظهر أنبل عمل تستمر به الفضيلة مع الاصاقاء فى أبهى حلاها .

والرجل الفاضل يعمل كثيراً من الأشياء لأصدقائه ولوكلفه ذلك فقدان الحياة أنه يهمل أمر الأقوال والكرامات وعلى جملة من القول كل هذه الخيرات التى يتنازع فيها العامة غير مستبق لنفسه الاشرف عمل الخير أنه يفضل كثيرا استمتاعا حاداً ولو لم يدم إلا بعض لحظات على استمتاع بارد يبقى زمانا أطول يؤثر أن يعيش فى المجد سنه واحدة على أن يعيش فى الخمول سنين عديدة يوثر عملا واحدا جميلا وعظيما على طائفة من الأعمال العاميه ذلك هو بلا شك ما يدفع اولئك الرجال الكرام إلى إلى أن يضحوا بحياتهم عندما يلزم أنهم يستبقون لأنفسهم أشرف نصيب وأجمله وينزلون عن ثروتهم مع الارتياح اذا كان خرابهم يمكن أن يغنى أصدقاءهم فللصديق الثروة وأما هو فله الشرف وهو أعظم منها مائة مرة ومن باب أولى يكون شأنه كذلك بالنسبه للكرامات وللسلطان فان رجل الخير يترك كل ذلك الى صديقه لان هذه النزاهة هى وحدها فى عينه الجميلة والجديرة بالثناء .

وينبغى أن يطالع المرء أصدقاءه التعساء دون أن يدعى الى ذلك ودون أن يحركه لذلك الا حركة قلبه لان واجب الصديق هو أن يسدى المعروف الى أصدقائه وعلى الخصوص متى كانوا فى حاجة اليه ولا يطلبونه هذا اجمل بالصديقين وأحلى لهما ومتى استطاع لزمه دائما أن يؤدى على حسب الاحوال كل ما قد قبل من أصدقائه وأن يبرىء ذمته من الديون التى استدانها سواء كانت مادية أم أدبية وأن تكون نيته السليمة هى الدافع له على هذا الاداء وعليه فى كل مناسبة أن يمنح أصدقاءه صنوف الرعاية الواجبة لهم بكل صراحة واخلاص

— ٢٣ —

تعرض أرسطو بعد ذلك لمسألة شائكة وهى قطع الصداقات فتساءل عما اذا

كانت علاقات الصداقة يجب أن تقطع أو أن يحتفظ بها حينما يصبح الناس اغيار ماكانوا بعضهم نحو البعض الآخر أم أنه لاشيء من الضرر فى القطع حين يصير الناس الذين لم يكونوا ليتحابوا الا بواسطة المنفعة أو اللذة لم يبق عندهم ما يؤتونه بعضهم بعضا. لما كان هذا موضوع صداقتهم الوحيد كان واضحا كل الوضوح أن ينقطع تحابهم وكل ما يمكن أن يشتكى منه هو ان واحدا لا يحب الا بالمنفعة أو باللذة يوهم مع ذلك أنه يحب حبا قلبيا وحينئذ متى انخدع احد الاثنين وافترض انه محبوب بالقلب فى حين أن الآخر لم يفعل شيئا يعطيه هذا الفهم لا ينبغى له ان يلوم الا نفسه لكن اذا انخدع بموارية صديقه المزعوم فله كل الحق فى أن يشكو من خادعه .

ولنفرض الحالة التى عقدت فيها العلاقة مع رجل بسبب أنه كان قد ظن طيبا وأنه بعد ذلك قد صار رذيلا أو أنه بحسب الظاهر فقط قد صاره . فهل يستمر المرء فى أن يحبه؟ هل يلزم القطع على الفور أم هل يجب التفصيل وأن يقطع لا مع الجميع ولكن مع أولئك الذين قد صار فساد أخلاقهم منذ الآن عضالا مادام هناك أمل فى اصلاحهم فينبغى مساعدتهم على نجاة فضيلتهم بعناية تفوق العناية التى تبذل لاصلاح ثروتهم لأن تلك الخدمة هى أشرف وأحق بالصداقة الحقة . فى هذه الحالة لاخطأ على المرء فى أن يقطع لأنه لم يكن هذا هو الرجل الذى أريد اتخاذه صديقا ومذ تغير هكذا تغيرا تاما ولم يبق بعد فى الامكان نجاته برده الى ماكان فما على الانسان إلا أن يبتعد عنه .

افرض أيضا حالة أخرى أن يبقى أحد الصديقين ماكان والآخر بصيرورته أشد ميزة من الجهة الاخلاقية وصل إلى أن يفوقه بكثير فى الفضيلة فهل يجب على هذا أن تستمر صداقته؟ أم هل هذا شيء غير ممكن ؟ وتصير الصعوبة واضحة كل الوضوح متى كانت المسافة بين الصديقين كبيرة جدا كما يقع فى الصدقات المعقودة منذ الطفولة فاذا بقى أحدهما طفلا بعقله وقد صار الآخر رجلا مليئا بالقوة والكفاءة ، فكيف يمكن أن يبقيا صديقين ما دام أنهما لاتروقهما بعد الاشياء بعينها ولم يكن لاحدهما بعد ما للاخر من الافراح والاتراح بعينها لن يكون

بينهما بعد تبادل الاحساسات التى بدونها لاصداقة ممكنة. ولكن أليس من المعاملة القاسية أن تكون معه كما لو لم يكن صديقك أبدا؟ أم ينبغى بالاولى الاحتفاظ بذكرى الصداقة التى أحبها المرء فى الماضى كما أن الانسان يعتقد واجبا عليه أن يكون أشد عطفا على أصدقائه منه على الاجانب كذلك يجب أن يحابى بعض الشىء ذلك الماضى الذى شهد ارتباطهم الا أن يكون القطع مع ذلك قد جاء من افراط فى فساد لا يغتفر

— ٢٤ —

فرغنا مما نحن فى حاجة اليه من نظرية الصداقة عند أرسطو ويمكننا أن نقول كما قال سانتهلير انه استوعب هذا الموضوع الواسع من جميع جهاته بحذق وسعة نظر لا يكادان يتركان بعده تعقيبا لمعقب ولا زيادة لمستزيد وانه يكون من الظلم اغفال ما بهذه النظريات من السمو ومن الحقيقة العملية فان كل ما يقوله أرسطو حقيق بالذكر والتنبيه يسير علينا أن نظن أن هذه الايضاحات الخاصة بالاخلاق الاجتماعية لم تكن معروفة عند الاقدمين وأن نسندها إلى أزمنة متأخرة لنرضى ما بنا من ميل للفخر. ولكنه يرى عند قراءة أرسطو أن هذا ضلال بعيد، ان الفلاسفة قد كانوا التراجمة الامناء لجميع الاحساسات التى يلهمنا الطبع اياها والتى لم يقررها القانون إلا بعد الابحاث الفلسفية بزمان طويل.

— ٢٥ —

أما بيدبا فيلسوف الهند وحكيمها فقد عرض للصداقة بين فصول كتابه الخالد «كليلة ودمنة» ومنسها مسا لطيفا مقبولا فى أسلوب رائع جذاب وضرب المثل تلو تلو المثل لهذه الروابط الاجتماعية الخطيرة فى براعة منقطعة النظير

فباب الاسد والثور مثل لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء

وباب الحمامة المطوقة مثل لاخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض

وباب اليوم والغربان مثل للعدو الذى ينبغى ألا يغتر به وان أظهر تضرعا وملقا

وباب الجرذ والسنور مثل لرجل كثر أعداؤه وأحد قوابه من كل جانب فأشرف على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم.

وباب الاسد والشغبر التاسك مثل للملك الذى يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب

ومن سوء الذوق الادنى أن أحاول تلخيص هذه الابواب وكل ما أستطيع عمله أن أجمع ماتفرق فى ثنايا الكتاب مما نحن بصدده من ضروب الاخلاق الخاصة بالصداقة .

تعرض بيدبا للاشخاص الذين ينبغى للانسان أن يصاحبهم ولاولئك الذين ينبغى أن يبتعد عنهم فقال« الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل اليهمـــا وإياك ومفارقتهما ،واصحب الصاحب اذا كان عاقلا كريما او عاقـلا غير كريم فالعـاقل الكريم كامل والعاقل غير الكريم أصحبه واحذر من سوء اخلاقه وانتفع بعقله والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك. والفرار كل الفرار من اللئيم الاحمق»

ومن الناس لاينبغى تركه على حال من الاحوال وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهدة والشكر والوفاء والمحبه للناس والسلامة من الحسد والبعد من الاذى والاحتمال للاخوان والاصحاب وان ثقلت عليه منهم المئونة

أن صحبة الاخيار تورث الخير كالريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا وصحبة الاشرار تورث الشر وربما أورثت صاحبها سوء ظن بالاخيار وشر الاخوان الخاذل لاخيه عند النكبات والشدائد وشر منه من التمس منفعة نفسه بضر اخيه ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه او كان يريدان يرضيه بغير الحق لاجل اتباع هواه وكثيرا مايقع ذلك بين الاخلاء.

— ٢٧ —

وبيدبا يقسم الصداقة تارة الى صداقة نفس وصداقة يد .وتارة الى صداقة طواعية وصداقة اضطرار فيقول:ان اهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم امرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس وذات اليد فالمتبادلون ذات النفس هم الاصفياء واما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فانما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد والقائه الحب للطير لايريد بذلك تفع الطير وانما يريد نفع نفسه فتعاطى ذات النفس افضل من تعاطى ذات اليد

ويقول : ان الصديق صديقان : طائع ومضطر وكلاهما يقتسمان المنفعة ويحترسان من المضرة فأما الطائع فيسترسل اليه ويؤمن فى جميع الاحوال واما المضطر ففى بعض الاحوال يسترسل اليه وفى بعضها يتحذر منه

وهناك صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة. وهى اشد من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل فيدوسه فيقتله وانما سمى الصديق صديقا لما يرجى من نفعه وسمى العدو عدوا لما يخاف من ضرره والعاقل اذا رجا نفع العدو اظهر له الصداقة. واذا خاف ضر الصديق اظهر له العداوة وفى الحالة الاولى ينطبق بيت المتنبى

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

— ٢٨ —

ويتحدث بيدبا عن حلاوة الصداقة وما يجب على الصديق لصديقه فيقول .

لاشىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الاخوان ولا غم فيها يعدل البعد عنهم وان اولى اهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه من اخوانه واصدقائه من الصالحين معمورا ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه . ويكون من من وراء امورهم وحاجاتهم بالمرصاد والرجل ذو الراى يعرف حال صاحبه وباطن امره مما يظهر له من دله وشكله والعاقل لا يعدل بالاخوان شيئا فالاخوان هم الاعوان على الخير كله . والمواسون عند ما ينوب من المكروه ومن عاش ذا مال وكان ذا فضل وافضال على اهله واخوانه . فهو وان قل عمره طويل العمر

وعلى العاقل ألا يكتم صاحبه نصيحته وان استقالها وألا يكون كلامه كلام عنف وقسوة بل كلام رفق ولين فاذا أخبره ببعض عيوبه لا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الامثال ويحدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد صاحبه الى الغضب عليه سبيلا وخير الاخوان والاعوان أقلهم مداهنة فى النصيحة .

ومن لم يقبل من نعمائه مايثقل عليه مما ينصحون له به لم يحمد رأيه كالمريض الذى يدع مايبعث له الطبيب ويعمد إلى مايشتهيه .

— ٢٩ —

وهناك حالات تتعرض فيها الصداقة للبحثة لم تغب عن بيدبا كما لم تغب عن عن أرسطو وكما كان لصداقة الفضيلة فى نظر أرسطو صفة الدوام تقريبا كذلك كان لصداقة الصالحين فى نظر بيدبا مثل هذا الصفة أن العقلاء الكرام لايبتغون على معروف جزاء والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب بطىء الانكسار سريع الاعادة هين الاصلاح ان أصابه ثلم أو كسر والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدا والكريم يود الكريم واللئيم لايود أحدا إلا عن رغبة أو رهبة .

ومهما يكن من شىء فان الظروف قد تدعو الى تغير القلوب والمودة والعداوة لاتثبتان على حالة واحدة أبدا وربما حالت المودة الى العداوة وصارت العداوة ولاية وصداقة ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأى يحدث لكل مايحدث لذلك رأيا جديدا أما من قبل العدو فبالباس وأما من قبل الصديق فبالاستئناس .

فاذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه وليتفقد ذلك فى اخطائه وحالاته فان كان مايظن حقا ظفر بالسلامة وان كان باطلا ظفر بالحزم ولم يضره ذلك .

ولعمرى مايستطيع أحد أطال صحبه صاحب أن يحترس فى كل شىء من أمره ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها وعرف مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ ثم ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه فلا يؤاخذ صاحبه بشىء يجد فيه الى الصفح عنه سبيلا .

غير أنه من أعجب العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط فاذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا. وان كانت عن غير علة انقطع الرجاء. لان العلة ان كانت الموجدة فى ورودها كان الرضا مأمولا فى صدورها وهنا ينطبق بيت العباس بن الاحنف:

لكن مللت فلم تكن لى حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

ومن اتخذ صديقا وقطع أخاه وأضاع صداقته حرم ثمرة اخائه وأيس من نفعه الاخوان والاصدقاء.

عبد الوهاب عنانى الخطيب

النقد اللغوى

للأستاذ على السباعى

- ٤ -

ذكرت تحت هذا العنوان فى ثلاث المقالات السابقة خمس عشرة كلمة وأرجو مرة أخرى أن يتريث النقاد واللغويون فى تخطيئهم أو تصويبهم وألا يجعلوا هجيراهم فى بحوثهم اللغوية المعاجم فقط فكم من فصيح مشهور ند عنها فلم تقيده أقلام مؤلفيها والكمال لله وحده وها كم ما عثرت عليه فى أثناء قراءتى مسلسلا بالأرقام مع ما سلف :

١٦ - تجاهل - قالت مجلة المجمع فى الجزء الرابع « إن هذا الفعل لازم لأنه بمعنى أظهر الجهل وليس بجاهل ، وفى الحق أن ما أفاد مفهومه صفة لا يتعدى أثرها لغير الموصوف بها كتغافل وتعامى وتصام لازم أما إذا تعدى أثرها كما فى الأفعال: تنازعنا المسألة ، وتجاذبنا الحديث ، وتناسينا الماضى ، وتقارضنا الثناء ، فمتعد لأنه مطاوع لمتعد لاثنين والأصل جاذبته الحديث وهكذا والفعل تجاهل غير مطاوع لمتعد لاثنين وورد فى المعاجم بمعنى ادعى الجهل وليس به فهو لازم لكنه ورد فى كتب الأدب متعديا بمعنى جهل كما ورد ضده تعالم متعديا بمعنى علم

ففى جمهرة الرسائل لأحمد صفوت الأستاذ بدار العلوم ص ١٩٢ من الجزء الاول نقلا عن الجزء الرابع من تاريخ الطبرى ص ١٥٨ كتاب لسيدنا عمرو بن العاص يرد فيه على أرطبون قائد الروم بالشام .

« جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتى وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد وأستعدى عليك فلانا وفلانا وفلانا لوزرائه — فأقرئهم كتابى وليتظروا فيما بينى وبينك ». —

ويستأنس على صحة ورود تجاهل متعديا بمعنى جهل بأمور ثلاثة

ا — فى ترجمة مجنون بنى عامر فى الأغانى ص ٥٩ من الجزء الثانى طبع دار الكتب خبر حبيبين يتعاتبان فيقول لها :

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن . . . وفى بعض هذا الحب عزاء
جزيتك ضعف الود ثم صرمتنى . . . فحبك من قلبى إليك أداء

وتقول له :

تجاهلت وصلى حين جدت عمايتى . . . فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر
ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته . . . نصيب وإذ رأيى جميع موفر
ولكننا آذنت بالصرم بغتة . . . ولست على مثل الذى جئت أقدر

ب — وفى معجم الأدباء صفحة ١٦٢ من الجزء الثامن عشر خطاب لابى محمد ابن الحسن الحاتمى شافه به المتنبى ليدفعه عن غروره ، ويوضح عيوب شعره قال فى تهكم لاذع وسخرية ساخرة ، ياهذا إذا جاءك رجل شريف فى نسبه تجاهلت نسبه ، أو عظيم فى أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطان لم تعرف موضعه . فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله لكنك مددت الكبر سترا على نقصك ، وضربته رواقا دون جهلك الخ ولم يعقب أحد من النقاد على مافى الاغانى أو فى خطاب الحاتمى .

ح — وقد يستأنس أيضا بأن العرب تحمل الضد على الضد — وإن كان السيوطى فى كتابه الاقتراح جعل هذا النوع من قياس الأدون وما دام قدور دفى المعاجم تعالم بمعنى علم متعدية فلا مانع من قياس ضدها عليها فيكون تجاهل بمعنى جهل متعدية

هذا وفى النفس شىء من تضييق مجلة المجمع وقصرها استعمال تعالم على التركيب الوارد فى المعاجم (تعالمه الجميع علموه) فخطأت من يقول تعالم الرجل المسألة وأرى أنها حجرت الواسع ومنعت القياس من غير موجب فما دام تعالم بمعنى علم

وعلم فاعله مفرد أو مثنى أو جمع ففاعل ماهو بمعناه كذلك ولا داعى لان يدل الفعل على التشارك مادمنا قد سلمنا أنه بمعنى علم ،

إذاً لا عليك ياخالد الادب ، وأمير شعراء العرب حين قلت رحمك الله

قلن تجاهلته .·. ذلك رب القلم

١٧ - أنجب — لم ترد أنجب فى المعاجم متعدية صراحة بل فسر بعضها أنجب الرجل أتى بنجيب وبعض آخر : ولد نجيبا وتفسيرها الثانى يقضى بتعديها ولكن المحافظين الذين يتشددون ويأبون إلا أن يأخذوا بالنصوص الصريحة عابوا استعمالها متعدية ما أغفلت المعاجم تعديها إلا أنها وردت فى شعر حفص الاموى وهو شاعر إسلامى عاصر كثير عزة وعاش حتى أوائل الدولة العباسية فقال فى سياق أقامه هشام بن عبد الملك وحاز فيه فرسه الزابد قصب السبق .

إن الجواد السابق الامام خليفة الله الرضى الهمام

أنجبه السوابق الكرام من منجبات ماهن ذام

وفى البيت الثانى كلمة السوابق تضاف إلى الكلمات التى عدوا جمعها وصفا لمذكر عاقل على فواعل شاذا ، ويستأنس على تعدى أنجب أيضا صراحة .

ا — بما ورد فى الأغانى ص ١٥ من الجزء الثالث عشر طبع الساسى عن على ابن الخليل وهو شاعر عباسى اتهم بالزندقة مع خليله صالح بن عبد القدوس فقبض عليهما الرشيد وقتل صالحا لاعتقاده أنه مصر على عقيدته لقوله .

والشيخ لايترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وعفا عن على وأجازه ، ووفد على بن الخليل هذا على يزيد بن مزيد الشيبانى وقد ولد له ولد فقال تسمع أيها الامير تهنئة بالفارس الوارد ؟ فتبسم يزيد وقال هات فأنشده .

يزيد يابن الصيد من وائل أهل الرياسات وأهل المعال

يا خير من أنجبه والد ليهنك الفارس ليث النزال

جاءت به غراء ميمونة والسعد يبدو فى طلوع الهلال

عليه من معن ومن وائل سيما تباشير وسيما جلال

ب - بما جاء فى مجمع الأمثال للميدانى ص ٢٠٥ من الجزء الثانى فى شرح المثل (أنجب من فاطمة بنت الخرشب الأنمارية) ، ولا يقولون منجبة حتى تنجب ثلاثة .

ولا مانع بعد ما تقدم من تعديها صراحة ومتع الله أستاذنا علياً الجارم بك بالعافية والسعادة وأبقاه شاعر العروبة وصيتها إذ يقول فى حفلة العيد المئوى لوزارة المعارف عن لسان المعارف .

أنجبت للبلاد أبطال عزم هم دروع البلاد فى الازمات
دعوا الشعب للعلا فرأينا خير شعب أجاب خير الدعاة
أنجبت كل عالم بهر الكو ن بآيات علمه البينات
أنجبت كل شاعر عبقرى صادق الحس بارع اللفتات

١٨ - قد لا يكرن - أنكرت مجلة المجمع إدخال قد على الفعل المنفى وقالت إنه لم يرد عن كلام العرب ونقلت عن ابن هشام فى المغنى (وأما قد الحرفية فمختصة بالفعل المتصرف الخبرى المثبت الخ) ولكن فى اللسان فى مادة « ذام » بمعنى العيب أو العاب يقول أنس بن نواس المحاربى وهو شاعر فارس .

وكنت مسودا فينا حميدا وقد لا تعدم الحسناء ذاما

واعتبرت هذا مما تركته المعاجم لأنها لم تذكره فى مادته فمثله مثل كسول للذكر إذ لم تذكره المعاجم فى مادة كسل وانما ذكره اللسان فى مادة زمل وروى له شاهدا من قول أحيحة بن الجلاح .

فلا وأبيك مايغنى غنائى من الفتيان زميل كسول

وقد حفزنى إلى هذا الاستطراد ماقرأته فى مجلة الكتاب فى عدد مايو ص ١٠٥ من أنكار الأخ الفاضل محمد عبد الغنى حسن الشاعر الكاتب كلمة كسول للذكر والصواب أنها للذكر والمؤنث .

كذلك روى السيوطى فى شواهده على المغنى للنمر بن تولب وهو شاعر مخضرم أدرك الأسلام فأسلم وحسن أسلامه وعمر وكان جوادا واسع القرى كثير الأضياف وهاباً لماله ولما كبر كانت أوامره : أصبحوا الركب ، أعينوا الركب ، اقروا ،

انحروا للضيف ، أعطوا السائل ، تحملوا لهذا فى حمالته كذا وكذا لعادته بذلك قال :

فان المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما
فان تتخطاك أسبابها فان قصاراك أن تهرما
وأحبب حبيبك حبا رويدا فقد لايعولك أن تصرما

وفى البيت الأول اكتفاء وهو حذف فعل الشرط وجوابه والاقتصار على الأداة أينما وفى الثانى رفع الفعل تتخطى بعد أداة الجزم أو إشباع الفتحة حتى تولدت عنها الألف وفى الثالث الشاهد على ورود الفعل المنفى بعد قد وفيه أيضا عقد الحديث رواه أبو هريرة والطبرانى « أحبب حبيبك هونا ماعسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » فلا مانع من استعمال قد لايكون .

١٩ — حذر من — أنكر بعض النقاد تعدى حذر بمن وقال إن حذر المخفف متعد إلى واحد بنفسه تقول حذرت الشىء أى خفته فاذا شدد تعدى إلى مفعولين ومنه قوله تعالى ويحذركم الله نفسه أى عقابه وقول العرب حذرته الشىء ولم ترد فى المعاجم متعدية بمن إلا مع الأسماء ففى التاج وأنشد اللحيانى

حذار حذار من فوارس دارم أبا خالد من قبل أن تتندما

وفى القاموس (أنا حذيرك منه أى) محذرك منه (أحذركه) فالتاج عدى حذار ومحذر بمنه والقاموس عدى حذيرك بمنه وفى التفسير بالفعل عداه بنفسه وكل هذا دعا النقاد إلى أن يحذروا تعدى حذر بمن ولكن روى المرزبانى فى معجم الشعراء لفارس مشهور وشاعر محسن هو سهم بن حنظلة بن حلوان .

كم من عدو قد رمانى كاشح ونجوت من أمر أغر مشهر
وحذرت من أمر فمر بجانبى لم يبكنى ولقيت مالم أحذر

٢٠ — منضدة : تحدى بعض النقاد جمعاً من مدرسى اللغة العربية أن يأتوه بشاهد على صحة هذه الكلمة وشنع على تركها فى كراسات الطلاب من غير تصحيح وفى الحق أن الذى دون فى القاموس كلمة نضد بمعنى منضود فهى فعل بمعنى مفعول

كقنص ونفض بمعنى مقنوص ومنفوض أو بمعنى السرير يوضع عليه النضد ولكن القواعد التى أشار إليها علماء الصرف والنحو لا تأباها فقد روى صاحب الفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه القياس فى اللغة العربية تحت عنوان مفعلة ، وهذه الصيغة مما اختلف علماء العربية فى القياس عليها فمنهم من وقف عند حد السماع مع اعترافه بكثرة ماسمع منه وفى كتاب سيبويه ماهو ظاهر فى جواز القياس فقد قال فى حديثه عن هذا الباب ، وليس فى كل شىء إلا أن تقيس شيئا وتعلم أن العرب لم تتكلم به ، قال صاحب المحكم فى حكاية كلام سيبويه : يعنى لم تقل العرب فى كل شىء من هذا فان قست على ماتكلمت به العرب كان هذا لفظه ، وممن صرح بصحة القياس فيه مظهر الدين صاحب شرح المفصل المسمى بالمكمل إذ قال : « اعلم أنهم إذا أرادوا أن يذكروا كثرة حصول شىء بمكان وضعوا لها مفعلة . وهذا قياس مطرد فى كل اسم ثلاثى كقولك أرض مسبعة أى يكثر فيها السباع »

هذا ماقالوه فى مفعلة التى تصاغ للكثرة أما التى للمكان من غير دلالة على الكثرة فالكلام فى ذى التاء كالتى للكثرة وأما مفعل فلا كلام فى قياسيته من كل فعل ثلاثى ولسنا بحاجة إلى إثبات منضد أو منضدة بالقياس مادام يزيد بن ضرار الذبيانى الملقب بمزرد أخى الشماخ وهو فارس مشهور وشاعر مفوه أدرك الاسلام فأسلم وكان هجاء خبيث اللسان ثم عدل عن الهجاء آخر حياته لقوله :

تبرأت من شتم الرجال بتوبة إلى الله منى لاينادى وليدها

يقول فى قصيدة مطلعها

ألا ياقوم والسفاهة كاسمها أعائدتى من حب سلمى عوائدى

وفى آخرها يخاطب آل الوحيد وهم قوم من بنى كلاب :

وعهدى بكم تستنقعون مشافراً من المحض بالأضياف فوق المناضد

ولا داعى بعد هذا الاستبدال النضد بالمنضدة فكلاهما وارد صحيح ؟

على السباعى

عيد النبي العربي

للأستاذ عمر الدسوقي

المدرس بدار العلوم

« ألقيت فى حفل أقيم بدار العلوم »

لبس الدهر تاجه العسجديا ... وبدا مشرقا طروبا رضيا

مزهر السعد فى مراح وبشر ... ينشد الكون لحنه العبقريا

ينفث السحر أغنيات عذابا ... ويصوغ الجمال شدوا طليا

يبعث الحور فى دلال وطهر ... يتراقصن فوق هام الثريا

قد عمرن السماء والأرض نورا ... وتخذن البهاء والحسن زيا

وسرى الطيب من شعور العذارى ... ينعش الروح والفؤاد الشجيا

ووفود من الملائك غنت ... فى ابتهاج غناءها الملكيا

فرنا النجم فى ابتسام وشوق ... وتبدى الوجود طلق المحيا

وتهادى الزمان تيها وعجبا ... قد حباه الإله يوما سريا

مهرجان قد نسقته الليالى ... لم ير الكون مثله مرئيا

هو عيد النبى أنعم بعيد ... تخذ الدهر من سناه الحليا

* * *

هبط الأرض كوكبا ألمعيا ... يحمل النور والفؤاد الأبيا

ينشر العدل يمنة ويسارا ... ويفيض الهدى نميرا شهيا

ضل من حوله الأنام وباتوا ... يعبدون الدمى ويبغون غيا

قدسوها فقبحوا من أناس ... غمطوا الله حقه السرمديا

قد أراقوا الدماء من غير جرم ... واشتروا بالتقى متاعا دنيا

وأدوا البنت ضـلة فتوارت زهرة تتفح العبـير الذكيا

* * *

كل من ذاق ذلة وهوانا يزدرى الناس حين يمسى غنيا
قبر العقل و نبرى الجهل يطوى حلة الروح والحصـافة طيا
لاترى المرء غير وحش أليف سكن الوحش هيكلا بشريا
وملوك تتوجوا بالمخـازى وأذاقوا الأنام عيشا زريا
شيدوا المجد من عظام الضحايا وبنوا للفسوق صرحا عليا

* * *

ياعهود الظلام بالشر عودى قد عرجنا إلى السماء رقيـا
فاصطفى الله للأنام نبيـا أروع القلب سـيدا عربيا
عف عن بهرج الحيـاة وغذى نفسه الحق منذ كان صبيا
لاذ بالغار من شرور وجهل ينشد النور بكـرة وعشيا
جاءه الوحى فيصـلا يتحدى شرعة الظـلم والضلال الخفيا
جاءه الوحى منطقا سلسبيلا ينقـذ الروح والفؤاد الشقيا
من عصير النجوم قد جاء سفرا ينضح النور والفتيق الشـذيا
أرأيت الرضـاب يجرى بيانا ونضيد الجمان معنى جليـا
يعلن الحق والمسـاواة دينا ويرى العـالم الطريق السويا
ينزع الشرك من قلوب مرانس نبت الشرك فى ثراها قويا
حمل الحقـد والجهالة شوكا وأتى اكله ضـلالا وغيا
فتصـدى لدعوة الخير قوم لم يزيدوا الضياء إلا مضيا
عبأوا الغدر والجهالة جيشا يشهر الجيش سيفه السمهريا
صـبر الحق للسـفاهة حينا ومشى ينشد النصير الفتيا
سمعت يثرب النـداء فضمت فى حنان مجاهدا ونبيـا
واسـتعدت لوقفة وكفاح فأتى النصر صـادقا يثربيـا
صرع الكـفر فى القلوب وأضحى من أثار الوغى خليلا وفيا

يظفر الحق حين تحميه جند لايبالون أى موت تهيا
من أراد الخلود عرسا نفيسا قدم الروح والعطاء السخيا

***

أى يوميك يا محمد أحلى يوم جاء الاسلام دينا رضيا ؟؟
سكب الخير فى قلوب غلاظ لا ترى بينها رشيدا تقيا
فاستحالت عصارة من حنان ترتدى النور والكمال حليا
أم غداة ابتنيت للعرب مجدا يذرع الارض والسماء رقيا
حندس البيد عاد يوما صبوحا ميت الذكر عاد بالعز حيا
سكن العرب فى الفيافى دهورا مادرى الناس أن بالبيدشيا
مالها اليوم ؟ كيف فاضت حياة كيف تهدى الورى ضياء سيتا
كيف هبت جحافلا وجيوشا تصرع الظلم حيث كان عتيا
تفتح الارض لابسيف ورمح إنما الحق قد أتى لوذعيا
فغدا مسرح العروبة روضا يفبت العلم باسقا أريحيا
قد غذته حضارة الفرس فنا وروته منابع الروم ريا
ظل دهرا يجود عطرا وأريا ماله اليوم قد تناهى ذويا ؟؟
إنه البعث والنشور لشعب كان بالبيد خاملا منسيا

. . .

أترانا نجدد العهد يوما ويرينا الزمان وجها نديا
نجمع الشمل ثم نخطو سراعا نرجع المجد والنعيم القصيا
آه لو تفهم العروبة معنى جاء من بعثك العظيم سريا
لغدا شأنها رفيعا جليلا يملأ الارض والسماء دويا

. . .

يانبي أرى معانيك تأبى أن يجول البيان فيها مليا
يبهر النور عينه فتراه خر فى حومة الفصاحة عيا
يتلى الدوح بالطيور إذا ما ألفت الروض يانعا سندسيا
يصدح الطير فى الرياض ويشدو وأرانى أطيل فيك الرويا

عمر الدسوقى

فى الطريق . .

مسرحية ذات فصل واحد

للأستاذ خلف القاضى

المدرس بمدرسة فاروق الأول

تقدمة : كان اليوم الذى خرج فيه النبى مهاجرا إلى المدينة - نهاية لثلاثة عشر عاما ، من المحن الشداد ، احتملها النبى الكريم فى سبيل الدعوة إلى الحق ، معتصما بالصبر والايمان

فى ذلك اليوم الخائف استحالت مكة الظالمة ، جبلا من النار ، ونطاقا من السعير يسد عليه طريق النجاة والخلاص ، فكان يخطو فى طرقها على أرض تموج بالفتنة ، وتنتظره أرصاد المنايا فى كل مكان .

ثم انطلق محمد وصاحبه ودليله على عيون المشركين فى الطريق الموحش إلى يثرب دار الأمان . .

وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون فى غيب الطريق ، حتى انشقت الصحراء عن بيت منعزل ، ليس فيه غير امرأة نصف ، وشاة هزيلة . يتمثل فيهما بؤس البادية .

وفى ظلال هذه الخيمة ، وقعت القصة .

وكانت البركة ، وتمت المعجزة للرسول الأعظم .

إننى راحل إليه !!.

المنظر : « فى البادية ، خيمة ، فيها امرأة ، وشاة ، ومتاع »

رجل : « يقبل ، وعليه ملامح الصحراء ، ومعه عصا طويلة »

أم معبد : « تستقبله خارج الفناء »

أين غنمك يا أبا معبد ؟ !.

أبو معبد : خلفتها فى المرعى ، يحرسها معبد .

أم معبد : ألا تخاف أن يأكله الذئب ؟

أبو معبد : لقد كبر معبد ، وأصبح فتى لايخاف الذئاب ، ولايخاف عليه .

أم معبد : « وقد ظهر على وجهها الحزن »

أراه بعيداً منا ؟ !.

أبو معبد : لاتحزنى ! إن معه القوس والسهام ، وإنى لانتظر نداءه لو أصابه مكروه ! . . .

ألا قليل من التمر ، يا أم معبد ؟ إن بى لظمأ وجوعا .

أم معبد « تبتسم ، وتدخل الخيمة ، وترفع غطاء الاناء المملوء باللبن »

أبو معبد : ياعجبا ! لبن ! . من أين لك هذا يا أم معبد ، والسنة جدباء ولاحلوبة فى الدار ؟ !.

أم معبد : لا والله . إنه مر بنا رجل مبارك ، وعلى يديه فاض هذا اللبن .

أبو معبد « فى همس » ماأقل مايمر بنا هنا رجل ! ! . حدثينى أكان وحده ؟ !.

أم معبد : بل كان معه رجلان : أما أحدهما فقصير القامة ، أسمر اللون ، وكان يمشى أمامه ، يرود الطريق .

أبو معبد : نعم ! نعم ! . إنه رائد هذه الطريق ، وإنى لأعرفه .

إنه هو عبيد الله بن أريقط ! .

أم معبد : وأما الثانى ، فكان أبيض اللون ، نحيفا ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، معروق الوجه ، خفيف العارضين .

أبو معبد : « فى همس »

أبيض ، معروق الوجه ، خفيف العارضين . . . .

إنه هو صاحبه ورفيقه الذى رحل معه إنه .

أم معبد . نعم ! هو من تظن . إنه أبو بكر ، فقد سمعت صاحبه يقول له : —

— وقد سألنى عن لحم قديد ، فلم يصب عندى — سلها يا أبا بكر عن التمر .

أبو معبد : أسفا ! فان الأزمة ، لم تترك لنا فضلا من الخير والحمد .

أم معبد : لا ! بل الخير كل الخير ، والبركة كل البركة ، جاءت مع الرجل الثالث .

أبو معبد : حدثينى . وكيف ؟ ! .

أم معبد : بعد أن عز القديد والتمر ، نظر هذا الرجل المبارك ، إلى الشاة ، التى خلفها الهزال عن الغنم ، وقال :

هل بها من لبن ؟ . قلت : هى أجهد من ذلك ! .

أبو معبد : ياليتها يا أم معبد ! . ياليت بها حلباً ! . . .

أم معبد : صبراً . فاستأذن منى أن يحلبها . قلت : بأبى وأمى أنت ! . نعم ! وإن رأيت بها من حلب فافعل ! .

أبو معبد : ومن أين ياأم معبد ؟ . ومن أين الدر والحلب ؟ .

أم معبد : فمسح ضرعها ، وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ودعا بدعاء . لم أسمع مثله من قبل ! وددت لو سمعته ، ياأبا معبد ! ! . .

أبو معبد : وددت . ولكن أتمى حديثك ! .

أم معبد : فما هو إلا أن سمى . ومسح ضرعها ، ودعا ، حتى اجترت الشاة ، ودرت اللبن ، وكثر وسال على الأرض ، وطلب إناء كبيرا ، يكفى جماعة كثيرة ، وحلب ، وحلب ، حتى فاض الاناء من حافاته . .

أبو معبد : ياعجبا ! . ماذا تقولين يا امرأة ؟ ! .

أم معبد : وهل جربت على كذبا ؟ .

أبو معبد : وأيهم شرب قبل صاحبيه ؟ .

أم معبد : سقانى ، حتى رويت ، ثم سقى صاحبيه ، حتى رويا ، ثم شرب آخرنا ، وقال : « ساقى القوم آخرهم »

أبو معبد : نعم السيد . ذلك الرجل ! .

« يلتفت مشيرا »

وهذا اللبن بقية الشراب ؟ .

أم معبد : وددت لو رأيت ! شربنا جميعا ، علا بعد نهل ، وحلب وشربنا ، ثم حلب ثالثا ، عودا على بدء ، حتى امتلأ الاناء ، وفاض ، وتركه لنا .

أبو معبد : ثم ماذا ؟ ! .

أم معبد : بعد أن رأيت ما رأيت ، بايعته على دينه ، وأمرنى بالصلاة ، وأسلمت وجهى لله رب العالمين ! .

أبو معبد : فديتك يا أم معبد ! هل لك أن تصفيه لى ؟ فقد اشتقت أن أراه .

أم معبد : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزر به صقلة ، وسيما قسيما .

. . .

فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، وفى عنقه سطع ، وفى لحيته كثاثة . أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن .

. . .

إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس ، وأبهاه من بعيد ، وأجسنه من قريب .

. . .

حلو المنطق ، فصل . لانزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ربعة .

لاتبغضه من طول ، ولاتقتحمه العين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدا .

• • •

له رفقاء يحفون به . إن قال : أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا الى أمره . محفود محشود . لاعابس ولا مفند .

أبو معبد : هو والله صاحب قريش . إنه محمد الذى سمعنا بأمره فى مكة، وتجاوبت أنباءه الفلوات ! .

أم معبد : أكنت تعرفه من قبل يا أبامعبد ؟ . وهل أراك تؤمن به ، لو لقيته ؟ ! .

أبو معبد : ليتنى ! ليتنى ياأميمة ! . ولو رافقته لا لتمست . صحبته ! .

أم معبد : أوتها جرمعه . وتضرب فى شعاب الوادى ؟ .

أبو معبد : نعم ! وليتنى أدركه إن عدوت ! .

أم معبد : هيهات ! لقد غادر المكان ، وارتحل منذ بعيد ، وما أراه الآن ، إلا على الطريق ، لملى ثنيات الوداع .

أبو معبد : ليتنى وليتك يا أم معبد ! ياليت لى قدراً ، يقربنى إليه ، ويشرفنى بصحبته !

أم معبد : . . . . . أهيىء الزاد للطريق ؟ .

أبو معبد : نعم ! وسأعد ناقتى للرحيل . !

وداعاً ، وداعاً يا أم معبد . إننى راحل إليه . ؟

صوت : ثغاء حزين من داخل الخباء ، وعدو وراء الظاعن .

أم معبد : « تقف فى طريق الشاة ، وتحول » .

— ستار —

السنة الثانية عشرة

(ابريل — يونيه ١٩٤٦ — جمادى الاولى — رجب ١٣٦٥ العدد الثانى)

صحيفة دار العلوم

(ج ١ ع ٤ ١٩٣٤)

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب عنانه

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بناى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٣٠ قرشا
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

فى رسالة الغفران لأبي العلاء

بقـــلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ٢ —

ثانيا — مواطن الخيال ومصبه فيها

نسج المعرى رسالة غفرانه على الخيال لحمة وسدى ، وإن وقعت جهزة تخيلاته من النوع البيانى الغالب على أدبنا العربى ، ذلك النوع الذى لايعدو تفسير ماهو موجود تفسيرا توضحه الصورة المبنية عادة على الاستعارة والتشبيه ، وهو وإن كان الغالب على أدبنا العربى فان القادرين عليه ليسوا بالكثرة الكثيرة من الأدباء ، لأنه يتطلب دقة ملاحظة واشتعال ذكاء يدرك بهما الأديب الميزات الروحية للاشياء ثم يصوغها صوغا ينفى عنها الجمود ويجعل فيها الحياة .

فمن ذلك تخيله ماتخيل فى أنهار الجنة الجارية بالماء أو اللبن أو العسل أو الخمر وماتستلزمه هذه الأخيرة حين الشرب من أباريق وكئوس وسقاة وندمان ، فقد استمد ذلك من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الواردة بمعناها أو تفصيلا لهذا المعنى ، والتى لسهولة تناولها ليست فى حاجة إلى أن نسوقها للاستشهاد .

ومنه تصوره رغبة أبى ذؤيب الهذلى أن يحلب ناقة ويشوب لبنها بالشهد كما كان يتمنى ذلك فى دنياه ، فانه أخذه من قوله فى حبيبته :

وان حديثا منك لو تعلمينه ... جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها ... تشاب بماء مثل ماء المفاصل

ومنه التجاؤه يوم الموقف إلى الشعر يتقرب به إلى رضوان وزفر من خزان الجنة ، وإلى حمزة بن عبد المطلب حين لم يجده ذاك ، وكذا طلبه الى جارية الزهراء ان تجيزه الصراط محمولا على ظهرها ويداه ممسكتان من فوق كتفيها بيديها على صدرها ، فانه أخذ الشفاعة بالشعر مما كان يفعله الشعراء من التقرب به إلى الملوك والسادة والأعيان ، كما أخذ تلك الصفة فى الحمل من الحملة المعروفة بالزقفونة فى مثل قول الجحجلول من أهل كفر طاب إحدى قرى الشام .

صلحت حالتى إلى الخلف حتى صرت أمشى إلى الورى زقفونه

ومن قول الآخر فيها وهو الذى تمثل به حين طاب إل الجارية ماطلب

ست إن أعياك أمرى فاحملينى زقفونه

ومنه تخيله المأدبة التى أرادها أن تقام فى الجنة لكل من كان فى دنياه ذا أدب وعلم ، وكذا حفلة الشرب والغناء التى أراد أن تعمر بكل من كان من عشاقهما فى الحياة الأولى ، فان كلتيهما لم تكن إلا عملية مكرورة معادة لمثلها فى الحياة الدنيا ، ولكن لدى أرباب النعمة والجاه والسلطان والسخاء الذين تعودوا البذل فى مآدب الأكل ومجالس الشراب ، موغلين فى السرف ومغرقين فى الافتنان .

ومنه تخيله ماتخيل من الأعمال التى نسبها إلى الجنى حين قرض على لسانه قصيدتيه الرائية والسينية فى ألوان من التمرد والشيطنة مما اعتاد الأنس أن ينسبوه الى الجنان ، وفى أحوال الرجم على حسب ما أدلت به عنه الشرائع ونطق القرآن ، ولكل من القصيدتين دلالة على ما كان بنفس المعرى من قدرة ذات سعة فى هذا الخيال ، وإليك من كل مثلا على كثرة مافيهما من أمثال .

قال من الأولى فى وسوسة الجنى لموسى عليه السلام :

وقد عرضت لموسى فى تفرده بالشاء ينتج عمروسا وفرفورا
لم أخله من حديث ماووسوسة إذ دك ربك فى تكليمه الطورا

وقال من الأخرى فى حمله زوجا على سوء الظن بعرسه حتى طلقها ثم ندمه بعد ذلك .

ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوءظن حديس

نقول لاتقنع بتطليقة واقبل نصيحالم يكن بالدسيس
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجد بحد تعيس
نذكره منها وقد زوجت ثغرا كدر فى مدام غريس

إلى غير ذلك من التخيلات البيانية الكثيرة التى كان آخرها فيها ذاك الذى ذكرناه آنفا آخر البحث الأول من رغبته أن يعتريه من الفتور عقب الشرب ما كان يعترى أخا الندام، وخلعه على نفسه من ذلك صورة لم يكن ليصل إلى مثلها أمثال النواسى فى خوالى الأيام .

على أن فى الرسالة من الخيال الابتكارى الذى يعمد فيه الأديب الى تأليف مجموعات جديدة من العناصر المخزونة فى ذاكرته كما يؤلف البستانى الطاقة الجميلة الرائقة من أزاهير بستانه ، مواطن ذات شأن ، وقبل أن نعدد من هذه المواطن أشياء ، ينبغى أن نصرح هنا بأن الرسالة فى موضوعها جملة من هذه الخيال الكالابترى على الصورة التى عرضناها ونحن نذكر أشخاصها ومتناولها ، فان تصوره رجلا يصعد به الى السماء ليرى نعيم الجنة وجحيم النار ، وتخيله الحديث عجبا عن هذا الرجل مع شخصيات يفرض تلاقيه بها فى كلتيهما ، غير ناس أن يصور يوم الموقف وموقفه منه موازنا بمواقف المحشورين ، وكذا تصوره جنة للعفاريت المؤمنين ، وتنزله ببعض منازل الجنة لمن تسومح بأدخالهم فيها ، ليس إلا صورة مبتكرة ألفها خياله من عناصر اختزنتها ذاكرته ، سابقا بها دانتى الايطالى بثلاثة قرون وملتن الانجليزى بستة ، هذين الروائيين اللذين لم يتصورا أكثر مما تصور ، ولم يفضله الأول فى جحيمه ولا الثانى فى فردوسه ، على ماخلف لكليهما من أثر يقتفى ومثال يحتذى ، وهذى بعض أمثلة من هذا الخيال الابتكارى التأليفى الذى بثه أبو العلاء فى ثنايا رسالته .

من ذلك تخيله الغناء يقع من إوز فى الجنة قد انتفضن قيانا كواعب يغنين بجميع الألحان حين يقول « ويمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر الأمر ومن شأن طير الجنة أن يتكلم فيقول له ابن القارح ماشأنكن ؟ فيقلن ألهمنا أن نسقط فى هذه الروضة فتغنى لمن فيها من

شرب فيقول على بركة الله القدير فينفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة وبأيديهن المزاهر وأنواع ما تلتمس به الملاهى فيعجب وحق له العجب وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلت عظمته ، إلى آخر ما انساق فيه من حديث عنهن استغرق صفحات .

ومنه مانخيله فى حور الجنة اللائى يخرجن من ثمارها حيث يقول « ويمر ملك من الملائكة فيقول له ابن القارح أخبرنى عن الحور العين اللاتى يقول فيهن الكتاب الكريم — إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين — فيقول الملك، هن على ضربين ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة ، فيقول وقد عجب مما سمع، فأين اللواتى لم يكن فى الدار الفانية وكيف يتميزن من غيرهن فيقول الملك اقف أثرى فيتبعه فيجىء به إلى حدائق لايعرف كنهها إلا الله ويقول له خذ ثمرة من هذا الثمر فاهصرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ماشاء الله من الثمار فيهصرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول من أنت ياعبد الله فيقول أنا فلان بن فلان فتقول إننى أمنى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير ويقول هذا كما جاء فى الحديث، أعددت لعبادى المؤمنين مالا عين رأيت بله ما اطلعتم عليه — » إلى آخر ما ساق فيه الحديث عن حور الثمار وأن من الثمار من تخرج منها أربع حوريات لاواحدة ولا اثنتان ولا ثلاث كما حدث فى مواضع أخريات .

ومنه تخيله أن الله أعطى بشارا الأعمى فى دنياه عينين فى آخرته لينظر بهما ما ينزل به من نكال ، وأنه إذا أغمضهما لكيلا يرى فتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وكذا تخيله إعطاءه سبحانه عوران قيس الخمسة عيونا لم ير أحسن منها فى عيون أهل الجنان .

هذا ولم تعدم الرسالة أن يتعرض فيها للخيال الاستيحائى الذى يستعرض فيه الأديب الأشياء فينطقها أو ينطق عنها ، فيحسن التعرض لما أراد

من هذا حديثه عن الثور والحمار الوحشيين وهو فى نزهته للصيد مع عدى بن زيد حيث يقول « فاذا نظر إلى صوار ترتع فى رياض الفردوس صوب الرمح لأخنس ذيال ؛ فاذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر قال الثور أمسك رحمك الله فانى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم يكن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنت أروض فى بعض القفار فمر بى ركب مؤمنون قد أكرى زادهم فصرعونى واستعانوا بى على السفر فعوضنى الله بأن أسكننى فى الخلود ، فيكف عنه الشيخ، ويعمد إلى علج وحشى ما التلاف عنده بمخشى ، فاذا صار الخرص منه بقدر أنملة قال الحمار أمسك ياعبد الله فان الله أنعم على ورفع عنى البؤس ، وذلك أنى صادنى صائد بمخلب وكان إهانى له كالسلب . فباعه فى بعض الأمصار فاتخذ منه غرب شفى بمائه الكرب وتطهر بنزيفه الصالحون ، فشملتنى بركة من أولئك فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب ، فيقول الشيخ . فينبغى أن تتميزن ، فمن كان منكن دخل الفانية فما يجوز أن يختلط بوحوش الجنة ، فيقول ذلك الوحشى لقد نصحتنا نصح الشفيق وسوف نمتثل ما أمرت »

ومنه حديثه عن أسد القاصرة حيث يقول « ويمم ابن القارح فاذا هو بأسد يفترس من صيران الجنة وحسيلها فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول فى قلبه لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الايام لا يطعم سواها شيئا ، فيلهم الاسد أن يتكلم وقد عرف ما فى نفسه فيقول ياعبد الله أليس أحدكم فى الجنة تقدم له الصحفة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذ بما أصاب فلا هو مكتف ولا هى الفانية ، كذلك أنا أفترس ماشاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز ، وأتدرى من أنا؟ أنا أسد القاصرة التى كانت فى طريق مصر فلما سار عتبة بن أبى لهب يريد تلك الجهة وقال النبى ﷺ اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، ألهمت أن أتجوع له أياما وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت بين الجماعة اليه فافترسته وأدخلت الجنة بما فعلت .

إلى غير هذين من ألوان الخيال الاستيحائى، وبه وبسابقيه الابتكارى والبيانى

يكون أبو العلاء قد جمع فى رسالته هذه بين ألوان الخيال جميعا فى أبدع تصوير وأجمل أداء .

وبعد فلعل من تمام هذا المبحث أن نذكر النبذة التى أنكر فيها الاستاذ العقاد على أبى العلاء الخيال فى رسالة الغفران ثم نعقبها بالكلمة التى رد فيها الدكتور طه حسين عليه هذا الانكار .

قال الاستاذ العقاد بعد أن أعجب بالرسالة وأن أحدا لم يسبق أبا العلاء الى مثلها .

« أما أن ينظر اليها كأنها نغمة من نغمات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثيلها الشعراء ، والقصص التى يخترعونها اختراعا أو ينظر اليها كانها عمل من أعمال توليد الصور والبساس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة ، فليس ذلك حقا ، وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالته الغفران ، كلا ، ولا هو مما يغضب المعـــرى أن يقال هذا المقال فى رسالتـــه » .

وقال الدكتور طه حسين بعد كلام فيما كتب الاستاذ العقاد عن الرسالة فى غير ناحية الخيال .—

ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا فى رسالة الغفران ، فان هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ، نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه فهو بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء عاد فأثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ، أما أنا فلن أنخدع له ، فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعرا عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « سنه سوده » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن دانت إنما صار شاعرا نابغة خالدا على العصور والاجيال وائقا من إعجاب الناس جميعا ، بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران أستغفر الله ، إن من الاوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسة قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيرا ، وما الخيال ؟ أما اذا كان ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لاشىء أو يؤلف أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على

حظ من الخيال، لانه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لاشىء ، ولم يؤلف بين متناقضات ولكننا نعلم أن علماء النفس لايسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا أن الخيال لايخترع شيئا من لاشىء وإنما يستمد صوره ونتائجه من الاشياء الموجودة ، يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس ويفتنها ، واذا كانوا صادقين وأحسبهم صادقين ، فحظ أبى العلاء من الخيال فى رساله الغفران لاحد له.

ليس لابى العلاء حظ من الخيال ! وإذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لان خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا لذيذا. لم يكن أبو العلاء ملزما أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار. فدانت لم يخترع فرجيل ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم ، وإنما استمدهم جميعا من الأدب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هذا مصدر مجده الخالد ، لانقل إن حظ أبى العلاء من الخيال قليل ، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جدا قيم جدا، خليق بالخلود ، لأنه الخيال المنتج حقا ، هو الخيال الذى تجده عند دانت ، والذى تجده عند أناتول فرانس بنوع خاص ، وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ، فليس بين الرجلين إلا فرق واحد هو أن تشاؤم الكاتب العربى محزن مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق ، ومن عريب الأمر أن من الفرنسيس من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ، فقد انخدع بعض الكتاب الفرنسيين بكثرة مايروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى ، فقالوا إن الرجل لاشخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل ، ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران ، لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين ، ولكن غير العقاد خليق أن يتورط فى مثل هذا الخطأ ، فسر البلاغة ـ ولقد كدت أقول الاعجاز ـ أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد .

السباعى بيومى

أثر الحضارة العربية في التربية (١)

للاستاذ عبد الحميد سعده

تنشد جميع الأمم الحضارة وتسعى لتظفر منها بالحظ الاوفى وتبذل جهدها فى استكمال مقوماتها . ولا نبعد عن الحقيقة إذا فهمنا أن الحضارة هى هذا النهوض الذى تعمل الشعوب على تثبيت دعائمه فى مختلف المظاهر الحيوية للفرد والجماعة ، وهذا النظام الذى يكفل للانسانية عيشة راضية موفقة .

ولا بد لهذه الحضارة من دعائم لاقامة بنائها وتوطيد اركانها . وقد تختلف الشعوب فيما تتخذ لحضارتها من أسس ، وفيما تختط من سبل ولكنها فى الغالب ترمى إلى الحياة الرغدة والى خير الفرد والمجتمع .

والحضارة الحديثة هى ميراث كونته أمم مختلفة ، وبناء تعاونت شعوب وأفراد على إقامته . وأن أوفر الأمم والأفراد حظاً هم الافذاذ الذين قويت هممهم وصحت عزائمهم على الخير ، واتجهت مواهبهم إلى نبيل الغايات .

وان بناء الحضارة هو صورة للانسان وجهوده ، وفيه مقوماته من جسم وعقل وخلق . فللحضارة مظهرها وزخارفها ، ولها أسسها العقلية وألوانها الخلقية وطابعها الذى به تتميز . ومن أنواع الحضارة ما ليس له الا الجسم والمظهر الزائف السريع الزوال ، ومنها ما له دعائم قوية من العقل والخلق وهو أثبت الأنواع وأقواها ، وهو الذى تبقى آثاره على مرور الأيام .

واذا أردنا أن نصور ما عسى أن يكون للحضارة من مقومات تشبه ما للانسان

---

(١) محاضرة القيت فى قاعة بورت بالقاهرة فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٦

من مواهب وصفات ، فانا نجد ذلك فى التربية العقلية والخلقية . فالصلة اذن وثيقة بين الحضارة وعناصر التربية . ولاغرابة فى ذلك ، فقد عرفنا أن الحضارة من عمل الانسان وفيها تتجلى صفاته . وأرسخ الحضارات قدما وأقواها شأنا ما قام على العقل الراجح والخلق القويم .

وهناك ناحية أخرى لها فى الحضارة وفى التربية أثر وهى هذه الدعائم الثلاث التى تقوم عليها الحياة الصحيحة وهى : الحرية والعدالة والمساواة ، ولقد كان لحضارة العرب حظ عظيم من هاتين الناحيتين وهما ناحية التربية والثقافة ، وناحية هذه الدعائم الثلاث التى عليها بقاء الأمم وأمنها وسعادتها ، فقد كان شعارهم فى كل ما فتحوا من بلاد وأمصار أن ينشروا الثقافة ويقيموا الدعائم للحضارة . وسنجمل القول فى آثارهم فى التربية قبل الاسلام وبعده :

كانت فطرة العرب وبيئتهم وحياتهم وصفاتهم العقلية والخلقية فى العصر الجاهلى هى الصفحة الأولى الناصعة التى خطت عليها أصول حضارتهم . ومن الشعوب من رزقوا حظا من الاستعداد يجعل نصيبهم وافراً من النهوض والحياة الصالحة حينما تتاح الفرص وتتوافر الاسباب . وقد فطر العرب على الحرية واكسبتهم بيئتهم الصحراوية صفاء فى الذهن وسرعة فى الخاطر ودقة فى الملاحظة ، وكان لهم بحكم العنصر من المواهب مالاخوانهم الكلدانيين والبابليين والفينيقيين الذين سجل لهم التاريخ آثارهم وحضارتهم ، غير أن العرب فى الجاهلية لم تتح لهم فرصة من خصب الارض وثروتها ، فلم تكن حضارتهم مؤسسة على ماتغل الارض من ثروة زراعية أو معدنية ، أو على شاهق المبانى وضخم المؤسسات ، بل كانوا كالعصامى الذى لا عدة له الا مواهبه التى أمده الله بها ، ولا سند له الا سعيه وجده ، ولا عون له الا عقله الذى يسترشد به ، وذكاؤه الفطرى الذى يهديه الى طرائق الحياة . وقد اكسبهم كل هذا ميلا الى عيشة الاستقلال والاعتزاز بالشجاعة والفروسية .

وقد أشار « توماس كارليل » فى كتابه « الابطال » فى وصف العرب الى شىء

من هذا فقال . لا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها ، الا أن يكونوا أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي الفكر » .

وقال أيضا : « والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها من شدة حزمهم وقوة ارادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذا وأبيكم رأس الفضائل وذروة الشرف الباذخ » .

وكانت تربيتهم لاولادهم تسير على غرار هذه الصفات فكانوا ينشئونهم على نهجهم ويعلمونهم ركوب الخيل والرماية ويغرسون فيهم شيم الكرم والمروءة والوفاء والنجدة ، ويملئون قلوبهم وعقولهم بنصائحهم .

وكانت مدرسة الحياة هى معهدهم . وكتاب الطبيعة هو مصدر معارفهم ، فنظروا فى السماء ونجومها ، ولاحظوا السحب ومهاب الرياح . وانطلقت السنتهم بالبيان الرائع والشعر الرصين ، وأثر عنهم فى أقوالهم ما يعد دروسا نافعة فى الحياة .

فمن ذلك ما قال علقمه بن لبيد يوصى ابنه :

« يا بنى اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا صحبته زانك ، وان خدمته صانك . وان اصابتك خصاصة مانك ، وان قلت صدق قولك ، وان صلت شد صولك . وان مددت يدك بفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان سألته اعطاك ، وان سكت عنه ابتداك وان نزلت بك احدى الملمات آساك .

وقال اعرابى لرجل :

« أى أخى ان يسار النفس أفضل من يسار المال ، فان لم ترزق غنى فلا تحرم تقوى ، فرب شبعان من التعم ، عريان من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خير ، ترحب به الارض وتستبشر به السماء ، ولن يساء اليه فى بطنها وقد أحسن على ظهرها .

وقالت اعرابية توصى ابنا لها أراد السفر .

أى بنى اجلس امنحك وصيتى وبالله توفيقك فان الوصية اجدى عليك من كثير عقلك . أى بنى ، اياك والنميمة فانها تزرع والضغينة وتفرق بين المحبين ،

واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضا الا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته ، واياك والجود بدينك والبخل بمالك ، واذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا يتفجر ماؤها ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه »

وغير ذلك كثير مما يدرس الآن دراسة أدبية لا علمية . ولا تهذيبية . ولو درست هذه الاثار من الناحية التربويه لاتضح أن فيها كثيرا من الاصول النافعة التى جادت بها هذه العقول التى نشأت فى كنف الفطرة .

يتضح من هذا أن العرب فى الجاهلية على سذاجة حياتهم وأميتهم كان لهم حظ من الثقافة العقلية والخلقية بأسلوب طبيعى خال من مظاهر الدرس والبحث ، ولم تكن تربيتهم فى معهد أو مدرسة بل فى رعاية الاباء والامهات ، وفى أحضان البيئة والحياة العملية وهم وان لم يكن لهم نصيب من الثقافة المنظمة ذات الطابع الحديث بدراسة العلوم والفنون ، كان لهم حس مرهف وذكاء فطرى وصفات كريمة سجلها التاريخ . وكان بيانهم الرائع من أعظم مفاخرهم ، يتناقلونه شفاها دون قلم أو قرطاس . فبراعهم هو اللسان ، وقرطاسهم هو صفحات عقولهم . ولهم فى الجدل وقوة الحجة مقدرة رسخت فى دمائهم ، وكانت مجامعهم وأسواقهم منتديات للنقد واللأدب . فهم وان كانوا أميين من حيث القراءة والكتابة لم يكونوا أميين فى عقولهم أو تجاربهم . بل كانوا على جانب محمود من الثقافة الطبيعية الحيوية . ذلك لان الامية شىء والثقافة شىء آخر ، فكم من أمى له عقل المثقفين ، وكم من مثقف ثقافة تقليدية لا يعد الا فى مستوى الاميين .

∴

هذه هى المرحلة الأولى أو المدرسة الأولى للتربية العربية . وهى مرحلة نستطيع أن نشبهها بالمرحلة الأولية من التعليم . ولعل فيها من الأسس والأصول ما تستبشر به التربية الحديثة التى تعتد بالحرية وتغتبط بالمخايل الصافية للفطرة السليمة

فلننظر إلى حالة العرب حين انتقلوا الى المرحلة الثانية من مراحل التعليم ودخلوا المدرسة التى وضع الاسلام أسسها

فى هذه المرحلة انتشر الاسلام وامتلأت بتعاليمه قلوب العرب ، وامتزجت فضائله بنفوسهم . وقد ثبت الاسلام أصول العدل والحرية والمساواة والديمقراطية. وهناك ظاهرة واضحة فى الفتوح الاسلامية . وهى أنها لم تكن استعمارا ، بل كانت ترمى الى نشر الدين وإشاعة فضائله لمن شاء أن يعتنقه عن رضا واقتناع ولم يكن المسلمون يعملون على محو الأجناس بل كانوا يمتزجون بها بالمصاهرة . وللاسلام فى أصوله كثير من المرامى الاصلاحية والنواحى التى تنهض بالثقافة وترقى بالعقول وتهذب النفس . فقد نشر أصول الحياة الصالحة واعتد بالمواهب الانسانية وغذاها من منابع الثقافة . وفوق كل هذا جاء رافعا لواء العلم مشجعا على طلبه ، وتجلى ذلك فى كثير من ايات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله وأوامره .

فمن ذلك قوله تعالى . يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الالباب — يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يتذكر الا اولو الألباب

وقال ﷺ . لاحسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها - وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والاخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا المجلسين على خير . وأحدهما أحب الى من صاحبه ، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه ، فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما المجلس الاخر فيتعلمون الفقة ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما ، وجلس الى أهل الفقه

وقال عليه الصلاة السلام . لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم . وقال عليه الصلاة والسلام : يحمل العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وغير ذلك من الشواهد كثير وهذا التشجيع العلمى ظاهرة واضحة فى الدين الاسلامى ، وهو الذى حفز المسلمين من العرب وغيرهم على الاهتمام بالتعليم ومعاهده

وكتبه وما يتصل بذلك . وكان كل هذا أساسا لهذه النهضة العلمية المباركة التى عمت العالم . وأحيت ما كان قد طمسه الزمن وطال عليه الأمد وغفلت عنه العقول

وكانت الخطوة الاولى التى بنى عليها النهوض التعليمى فى الاسلام هى محو الأمية فالدين نفسه يتطلب معرفة القراءة ، وأول ما نزل من القران الكريم ايات فيها الاشادة بالقراءة وبالتعليم .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق،خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)

وفى غزوة بدر كان فداء الاسرى أن يعلم كل منهم عشرة من الاطفال القراءة والكتابة

وقد عنى المسلمون بطلب العلم يحفزهم اليه هذا الدافع الدينى ، وكان نهجهم فى ذلك متدرجا طبقا لتدرج حضارتهم ، وامتداد ملكهم ، وكثرة تجاربهم واتساع افقهم الحيوى ، وساروا فى ثقافتهم العلمية فى مراحل :

«١» فكانت المرحلة الأولى هى تفهم القران الكريم وحفظه ، والقران هو أساس الدين وعماد مافيه من تشريع وارشاد فى شئون الحياة للفرد وللاسرة وللمجتمع ، وهو أساس ثقافى شامل ، وقد تفرعت من دراسته علوم شتى استلزمها فهمه ، كاللغة والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ومشاهد الكوم وغير ذلك من شعب الثقافة . ونشأ عن هذا أيضا تدوين العلوم وتأليف الكتب المختلفة فى كل فرع منها . وكان الهدف لكل هذا هو معرفة أصول الدين وأحكامه وتفهم ما فيه مما يكفل الخير والاصلاح

ولعلنا اذا تلمسنا سببا لهذه الدراسة الشاملة للقران الكريم والاشتغال بالعلوم المتعددة التى يتضمنها تفهمه فانا نجد أن هذا أشبه بطريقة تجميع مواد الدراسه التى بنيت على مبادىء «هربات» أو بطريقة المشروع وهى من أحدث طرق التعليم وتستخدم الان فى مصر فى المدارس النموذجية بالقاهرة وهى طريقة يختار لها موضوع أساسى يتخذ محورا للدرس ثم يترك للمتعلمين البحث فيه من شتى نواحيه على حسب ما تتجه اليه عقولهم وما يمت الى الموضوع بصلة ولهذه الطريقة فوائدها التى أوضحها علماء التربية

سار المسلمون فى هذه المرحلة من الدراسة سيرا مقرونا بالهمة والنشاط وكانت أساليبهم فى البحث والتفكير تجرى على الطرق الاستنباطية والقياسية فكانوا يتتبعون الجزئيات للوصول الى القاعدة الكلية ، ثم يعودون فيطبقون هذه القاعدة على الاحوال الجزئية . وقد ظهر ذلك جليا فى علوم كثيرة وأخصها بحوثهم فى الفقه الاسلامى وأصوله ونظرياته العامة ولهم فى ذلك من الدقة المنطقية ما يقدره المشرعون فى عصرنا الحديث

(٢) المرحلة الثانية أو الوثبة الثانية

وفيها اتجه المسلمون فى دراستهم وبحثهم الى العلوم الكونية وهى الفلسفة والرياضة والعلوم وما الى ذلك مما يسمى الان فى بعض المعاهد العلوم الحديثة وأن ما تشبع به المسلمون وما أيقظه فيهم الاسلام من حب البحث والدرس حفزهم الى أن يبحثوا فيما خلفه اليونان وغيرهم من فلسفة وعلوم وليس فى الدين الاسلامى ما يمنع ذلك مادام بعيدا عن المساس بالعقيدة أو افسادها فان البحث وراء الحقائق الكونية أو العلمية ومعرفة ظواهر الطبيعة وأسرار ماخلق الله كل هذا مما يحث عليه الدين الاسلامى . فان للاسلام الى جانب ميادين الدين والعبادة ميدانه المدنى والسياسى والاجتماعى

وفى القران الكريم الكثير من الايات التى تتضمن الحث على النظر والتفكير قال تعالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق من شىء » - « أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدل على حقيقة ثابتة وهى أن الأسلام كان منشطا للحياة العقلية مشجعا على البحث والتفكير مثبتا أصول الاجتهاد فى تطبيق الأحكام الدينية ، منكراً المحاكاة العمياء ، رافعا من شأن العقل الانسانى . وقد شد أزر الفلسفة وغذاها ، لأن قواعده فطرية لاتنافى المنطق والتفكير السليم .

لهذا عكف المسلمون على الاشتغال بما ترك اليونان وغيرهم من علم وفلسفة ، ونشطوا ترجمة ذلك ، وكافئوا المترجمين بالمال الكثير .

نشط ذلك أيام أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، ثم جاء الرشيد حفيد المنصور فبهر ملوك أوربا بما وصل اليه العرب من علم وثقافة واختراع . وجاء المأمون فأتم ماأسسه سابقوه من الخلفاء . وفى عهده ازدادت العناية بالفلسفة وبالبحث والجدل . وكان للعلماء عنده شأن ومكانة عالية . وكانت مجالس المناظرة والجدل فى عصره من أخص الظواهر التى تدل على النشـــاط والبحث ، والتاريخ الأدبى حافل بذلك .

وقد سار خلفاء المسلمين وملوكهم على هذا النهج من الاهتمام بالعلم والترغيب فى طلبه . وظهر الاشتغال بالفلسفة وبالعلوم الكونية فى جميع مظاهرها واضحا فى جمعية أخوان الصفاء التى ألفت فى القرن الرابع الهجرى . وقدحوت رسائلهم أنواعا من العلوم الحسية والعقلية والفلسفية . وتعتبر هذه الرسائل صورة من المنهج الشامل للثقافة العربية فى نواحيها العلمية والفنية والفلسفية .

وقد وصلت الثقافة العربية غايتها فى القرن الرابع الهجرى . وكان مركز هذه الثقافة الشاملة العالمية مدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية ومنها كان ينبعث نور العلم والحضارة ، وفى كنف خلفائها نضجت الذخائر العلمية القديمة ووضعت أسس الثقافة التى سطعت على العالم وأيقظت الانسانية .

وكان العرب فى تلك العصور هم حملة مصباح الثقافة ، وقد أخذ ضوءه يشع ويسطع ويعم الممالك الشرقية ، ثم انبعث نحو الغرب مجتازا افريقية إلى المحيط . ومن هذا المضيق الذى لايزال يحمل اسما عربيا وهو مضيق « جبل طارق » عبر العرب الى الأندلس فوطدوا فى هذا الأقليم ملكهم ، ونشروا حضارتهم وثقافتهم ، وظهرت فيه مواهبهم ، وكان للفن الجميل شأن فى عهدهم ، تدل على ذلك آثارهم الرائعة التى لاتزال ماثلة فى ربوع الأندلس للآن .

وقد سار العرب فى أسبانيا على غرار ماكان فى بغداد من العناية بالعلم والاهتمام بنشر الثقافة واذاعة العرفان ، وكان للاتصال العلمى وثيقا بين المدينتين العظيمتين بغداد وقرطبة ، وكان العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين المشرق والمغرب رغبة فى التعلم والتعليم .

وقد عرف ملوك أوربا للخلفاء فى الاندلس مثل ماعرفوا لخلفاء بغداد ، فارسل ملك الروم لعبد الرحمن الناصر الهدايا الثمينة ، وكان لاستقبال رسله حفل رائع فى قرطبة سجلت كتب الأدب وصفه الممتع .

, قد تقاطرت وفود الاوربيين على الاندلس ، وعظم نزوح طوائفهم إليهـا للأخذ عن العرب ، وكان العرب على عادتهم يذيعون العلم ولا يكتمونه ، ويسيرون فى ذلك على النهج الديمقراطى الذى طبعت به حضارتهم وحياتهم . وفوق هذا قد امتزجوا بأهل الاندلس امتزاج مصاهرة وائتلاف ، فكان كل هذا داعيا إلى الاطمئنان والنشاط العقلى .

**

سارت عاصمتا المشرق والمغرب بغداد وقرطبة تتنافسان فى الاستزادة من العلم وتثبيت دعائمه ، وكانت هذه المنافسة خيرا على العالم . ثم ظهر منافس ثالث وهو مدينة القاهرة ، وكان مظهرها فى الفنون أقوى منه فى العلوم . وقد نشطت هذه العواصم الثلاث وسارت سيرا حثيثا تحدو الثقافة بعنايتها وتبذل للعلم ورجاله معونتها فجنى العالم من ذلك أطيب الثمرات . وكان لهذا النشاط أثره فى النهضة العلمية فى العالم بعد أن خمدت جذوة العلم والبحث فى العصور الوسطى فى أوربا . والفضل فى هذا يعود الى العرب ونهضتهم وماجاء به الاسلام من مبادىء شجعت العلم ونشطت التعليم وأشاعت الثقافة وأعادت للعقل حريته ومكانته .

لم يقتصر النهوض العلمى ، الذى اينع بعناية العرب ، على البحث والدرس ، ولا على ما كشفه المسلمون من أصول علمية وفنية ، بل أن العرب عملوا على نشر العلوم والثقافة بوسائل وهى :

معاهد العلم ــ التأليف ــ المكتبات

أما المعاهد العلمية فكانت فى أول الامر فى المساجد التى كانت تقام فيها حلقات العلم ومجامع الارشاد ومنابر الخطابة الدينية والسياسية والاجتماعية . ثم أنشئت الكتاتيب بجانب المساجد لتعليم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة .

وقد أنشأ العباسيون المدارس يتعلم فيها الخاص والعام . وقد أمر هارون الرشيد

أن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فتابع الخطا ، وازداد العلم والتعليم فى عهده نشاطا وذيوعا حتى شملت المدارس المملكة الاسلامية جميعها على سعتها .

واهتم العباسيون كذلك بترجمة العلوم واعداد التراجمة فأنشئوا فى بغداد مدرسة ألسن اتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطورى ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم فيها مجانا ستة آلاف تلميذ .

ولم يرتض المأمون أن يكون تقدم الفنون منوطا بسخاء الخليفة بل رصد لذلك أموالا ووقف عليها أوقافا دائمة فتحت بها مدارس فى جميع المملكة ، وأحضر لديه كثيرا من علماء اليونان والفرس والكلدانيين وأباح لهم الالتحاق بالوظائف الحكومية، ومحا بذلك ماكان شائعا من أبعاد الاجانب عن مناصب المسلمين .

وقد سار ملوك الاسلام من الفرس والسلاجقة والاتراك على هذا النهج فاهتموا بانشاء المدارس . ومن أهمها المدرسة النظـــامية والمدارس الكثيرة التى أنشأها المماليك فى القاهرة .

ومنها أيضا المدرسة المستنصرية فى بغداد وهى من أعظم آثار المستنصر بالله الخليفة العباسى . وأنا نسوق ماجاء فى وصفها من كتاب « تراث الاسلام » فى المقال الذى وضعه « الفردجيوم » الخاص بالفلسفة والالهيات :

« ولكن أعلى الجامعات الاسلامية ذكرا وأرفعها مكانا هى المستنصرية ، وقد أسست ببغداد سنة ١٣٣٤ م

وقيل أنها فاقت كل ماسبقها فى الاسلام من دور العلم فى مظهرها الخارجى وأبهة زخارفها وفاخر أثاثها واتساع بنيانها ووفرة أوقافها . وكانت تضم أربع مدارس مستقلة للشريعة ، تقوم كل منها بتدريس مذهب من المذاهب الاربعة .

ويتولى أمرها استاذ يعهد اليه بخمسة وسبعين طالبا (فقيها) يلقنهم العلم دون أن يسألوا على ذلك أجرا ويتقاضى الاساتذة الاربعة مرتبا شهريا كما يتقاضى كل طالب دينارا من الذهب كل شهر .

وكان للمدرسة ـ الى جانب هذا ـ مطبخ غنى يمد الاساتذة والطلاب بجرايات يومية من خبز ولحم .

ويقول ابن الفرات ان المستنصرية كان بها مكتبة عامرة بالكتب النادرة فى شتى العلوم قدرتبت بحيث يسهل رجوع الطلبة اليها ويتيسر نسخ المخطوطات للراغبين فى نسخها ، وكانت ادارة المكتبة توزع على الطلاب مايحتاجون اليه من ورق وأقلام وتزودهم فوق ذلك بالمسارج ومايلزم لاضاءتهـا من زيت الزيتون كما كان بالمسكن صهاريج خاصة بتبريد مياه الشرب وساعة حائط فى بهو المدخل، ولاشك فى أنها كانت نوعا من أنواع الساعات المائية ، كما كان فى داخل المعهد حمام للطلاب وبيمارستان عين له طبيب كان عليه أن يحضر كل صباح ليصف للمرضى ماتتطلبه حالتهم من دواء كما ضمت المدرسة مخازن كبيرة قد زودت بجميع أنواع الطعام والدواء .

(المكتبات)

وهى مظهر من مظاهر النتاج العلمى والاهتمام بالتـدوين ، وعون على البحث والتحصيل ، ولها الآن مكانة فى معاهد العلم على اختلاف درجاتها .

وقد عنى المسلمون بانشاء دور الكتب العامة والخاصة ، فانشأ الرشـيد بيت الحكمة فى بغداد ، وأنشأ الحاكم بامر الله الفاطمى دار الحكمة فى القاهرة ، وكانت مكتبة قرطبة تحوى كثيرا من الكتب فى شتى المباحث العقلية والنقلية التى الفها أو ترجمها العرب فى مختلف أنواع المعرفة . وكان الحكم بن عبدالرحمن الناصر مغرما بجمع الكتب ، وكان يبعث التجار الى الاقطار ويزودهم بالأموال لشرائها ، وكان كذلك يجمع فى داره المهرة فى صناعة النسخ والضبط والتجليد للقيام بما تتطلبه الكتب من اعداد ونقل

كل هذا كان فى تلك العصور التى لم تنتشر فيها الطباعة ولم يكن للمؤلفين والدارسين من وسيلة الا الكتابة والنسخ بالايدى . ولا تزال طائفة من هـذه المخطوطات العربية التى لم تخرج إلى أيدى القراء بعد دليلا على هذه النهضة العلمية المحمودة ونرجو أن تتجه الهمة الى اظهار هذه الذخائر حتى تتم الاستفادة منها .

سارت هذه النهضة العربية الاسلامية تنشر العلم والثقافة وتحارب الجهل الذى كان مخيما على العقول . وقد نبعت من بلاد العرب وعمت المدن الاسلامية فى البصرة والكوفة ثم بغداد وانتشرت فى الممالك الشرقية ثم عبرت البحار الى بلاد الاندلس فازدادت ازدهارا بعد أن تجمع للعرب كثير من ألوان العلم والمعرفة وقد أخذ عرب

الاندلس هذا التراث الشامل ودرسوه وتنافسوا فى البحث فيه، حتى فى عصور الانقسام واستقلال بعض الحكام باطراف البلاد وأجزائها كان تناقش هؤلاء الملوك فى العلم وتنشيطه عظيما بل كان هو الوسيلة لتثبيت النفوذ واقرار السلطان. وكان ذلك فى الشرق والغرب معا .

ومن الاندلس سطعت أنوار العلم والتربية على أوربا فأخذ أهلها عن العرب نظام الجامعات ووسائل البحث والدرس ورأوا فى اللغة العربية المعين الصافى لشتى العلوم ووجدوا أن العرب قد نقلوا ما فى الثقافات القديمة اليونانية وغيرها وحصوا ذلك وهذبوه وأضافوا اليه ما يصيفه العالم الدارس وبذلك ظفرت أوربا بهذه الذخائر العلمية فكانت عونا لها فى نهضتها .

ومن هذا يتضح أن العرب كانوا أبطال تلك الأيام وأن فضلهم على الثقافة عظيم بما أذاعوا من علم ، وما أقاموا من مدارس وجامعات ، وما ألفوا أو ترجموا من كتب وما أنشئوا من مكتبات ، وما قاموا به من حفز التفكير وايقاظ العقول وتشجيع البحث والاهتمام بالتربية الاستقلالية ، وكانوا وحدهم أساتذة العالم عدة قرون . وأن جامعات أوربا لم تستغن عن تدريس ما نقل اليها من مؤلفات العرب إلا فى الازمنة الأخيرة .

وقد قال العلامة سيديو :

« ان الكنوز الادبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمى واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى ، وتؤيد الرأى القائل بان العرب هم أساتذتنا فى كل شىء »

ننتقل بعد ذلك إلى الجانب الفنى من التربية وهو الطرق التى كان العرب يتبعونها فى بحثهم العلمى والاساليب التى كانوا يسلكونها فى التعليم ، وهو الجانب الذى تعنى به معاهد التربية ويهتم به رجالها الان .

أما طريقة البحث فقد كان اساسها فى العلوم هو التجربة والسير على الاسلوب المنطقى ، وقد ساروا على هذا النهج فى علومهم النقلية منذ بدءوا يشتغلون بالعلوم الشرعية فى فجر نهضتهم . وان أروع وادق ما استحدثوا ذلك العلم الذى وضعوه على غير مثال سبق وهو علم الأصول « اصول الفقه » وإن الذين يتتبعون مسائله وبحوثه

المتنوعة يرون فيه لونا دقيقا من ألوان البحث العلمى ويجدون من القواعد العامة والاساليب الاستنباطية والاستقرائية والنظريات العلمية فى كل مذهب من مذاهب أئمة المسلمين ، مايدل على عبقرية ومنطق سليم .

وقد ساروا على هذا النهج فى بحوثهم العلمية والكونية والفلسفية ، وكانت التجربة أساس نتاجهم العلمى

ويقول الاستاذ جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب :

يقول الاوربيون ان « بيكون » أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية ، ولكن الانصاف يقضى بأن نعترف بأن الفضل فى ذلك للعرب وحدهم . وقد أبدى هذا الرأى مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب

وقال العلامة سيديو :

إن من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداءة هو روحها العلمى الصحيح الذى كان سائدا لها فى استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات ، وفى عدم التسليم بمالا يقوم على التجربة والترصد .

وقد كان العرب فى القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا فى استكشافاتهم المفيدة .

هذه هى طريقة العرب فى الدرس والبحث ، على حين كانت الطريقة فى أوربا هى دراسة الكتب والاقتصار على رأى المعلم .

واما طريقتهم فى المواد الادبية والنقلية فهى ان يعد الاستاذ درسه ويكتب الموضوع ثم يلقيه على الطلاب بعد الحوار والشرح وهم يكتبون عنه . ثم تكون هذه الدروس كتبا واماليا تنشر بين الناس فى علوم مختلفة . ولدينا الان طائفة من هذه الكتب والاماليا

وبعدان تكونت طائفة صالحة من المؤلفات اصبحت الطريقة ان يتخير الاستاذ كتابا يدرسه مع طلابه ويشرح لهم موضوعاته ويحاورهم فى مسائله . وبعض الاساتذة يكتبون تعليقات على الكتاب الذى يشرحونه تسمى « الحاشية » وبعضهم يضيف الى الحاشية شروحا واضافات تسمى « التقرير » وقد طبع من كل هذا أنواع لانزال الى الآن فى الكتب الازهرية .

وكانت هذه الطريقة متبعة فى المعاهد العلمية فى الشرق وفى الازهر ، ولا تزال بقية منها ليست بالقليلة فى المعاهد الدينية بعد أن دخلت فى دورها النظامى الجديد

ومن حسنات هذه الاساليب ذلك الحوار الذى يشبه حوار سقراط ، وان كان قد تحول فى عصور الهبوط العلمى الى جدل حر فى قليل الجدوى يدور حول الألفاظ والعبارات فى كثير من الاحيان .

. . .

أما النواحى الفنية فى التدريس وأصوله فلهم منها نصيب له شأن : لهم فى علم النفس وعلم الاخلاق مايعتبر أساسا صالحا لفهم الطبيعة الانسانية وطرق تهذيبها وتربيتها ووسائل كسبها للعلوم . ولهم أيضا بحوث كثيرة فى التربية الخلقية وفى العناية بالفضائل الانسانية وطرق غرسها فى نفوس الناشئين . ولهم كذلك طرق عملية فى تخير مناهج الدراسة وفى وسائل التدريس وأساليبه .

. . .

فى النواحى النفسية نجد بحوثا لها قيمتها فيما كتبه ابن سينا فى كتابه الشفاء وفى مختصره وهو كتاب النجاة

فقد أوضح فى المقالة الخاصة بالنفس فى كتاب النجاة كثيرا من الاصول النفسية فتحدث عن النفس باعتبارها جنسا وقسمها ثلاثة أقسام :

النباتية والحيوانية والانسانية موضحا الفروق بين هذه الاقسام .

ثم قسم النفس الحيوانية إلى محركة ومدركة ومن المحركة : القوة النزوعية والشوقية والقوة الشهوانية والقوة الغضبية

والمدركة قسمان : قوة تدرك من الخارج وهى الحواس الخمس ، وقوة تدرك من الباطن ، ومن هذه مايدرك الصورة ومنها مايدرك المعنى . ثم تكلم عن الحس المشترك وهو قوة تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة فى الحواس الخمس .

وتكلم أيضا عن الخيال وعن النفس الناطقة وعن القوة النظرية التى من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة — وهذا هو إدراك الكلى ، وعن الفرق بين إدراك الحس وإدراك التخيل وإدراك الوهم وإدراك العقل — وهذا شبيه بالادراك الحسى والادراك العقلى فى كتب علم النفس الآن .

وتعرض أيضا الى طرق اكتساب النفس الناطقة للعلوم والى اختلاف المتعلمين فى استعدادهم وفيما لهم من ذلك بحكم الخلقة .

وفى رسائل إخوان الصفا كذلك بحوث نفسية لها قيمتها عن قوى النفس .

وهى خمس قوى حساسه هى الحواس وخمس قوى أخرى وهى : المتخيلة — المفكرة — الحافظة — الناطقة (أو المعبرة) — الصانعة . وتفصل الرسائل انتقال المحسوسات من المتخيلة إلى الحافظة لتبقى إلى وقت الحاجة ، ثم تتناولها القوة المعبرة وتعبر عنها ثم تقيد بالكتابة . وفيها أيضا بحوث فى النفس الناطقة والشهوانية والغضبية ، وكذلك فى الحاس والمحسوس وفى الحس والاحساس وفى كيفية الادراك فى الحواس المختلفة وكيفية وصول آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة وكذلك فى طاقة الانسان من المعارف ، وفى بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها وفى أمراض النفوس وعلاجها ، إلى غير ذلك من مختلف البحوث التى تعتبر أساسا صالحا للتربية العقلية والخلقية .

وتمتاز هذه الرسائل بأنها تسوق كل هذا فى أسلوب مقرون بضرب الأمثلة وبالايضاح الذى يقرب الحقائق للاذهان مما يدل على مهارة واضعيها ومقدرتهم التعليمية .

وهذه الرسائل تعتبر صورة لمنهاج ثقافى لمرحلة ثانوية تجمع كثيرا من ألوان المعرفة التى نحرص على أن يتعلمها شباننا فى عصرنا الحاضر .

وقد لفت نظرى فى هذه الرسائل موضوع هو أشبه بمنهاج دراسى مصور أو مشفوع بوسائل الايضاح .

فقد جاء فى احدى هذه الرسائل مايأتى :

« ذكروا أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه . فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقوموهم قبل إيصالهم إلى مجلسه لأنه لايليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون فى العلوم المتخلقون بالأخلاق الجميلة المبرءون من العيوب .

فرأى من الرأى الرصين والحكمة أن يبنى لهم قصرا على أحكم مايكون من

البنيان ، فأفرد لكل واحد منهم مجلسا وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه فى جوانب ذلك المجلس ،وصور فيه كل شيء أراد أن يهذبهم به . ثم أجلسهم فى ذلك القصر ، وأجلس كل واحد منهم فى حصته المعدة له ووكل بهم الخدم وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ماصورت لكم بين أيديكم واقرءوا ما كتبت فيه من أجلكم ، وتأملوا ما بينته لكم، وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من أجل ذلك حكماء أخيارا فضلاء أبرارا فأوصلكم إلى مجلسى فتكونوا سعداء منعمين أبدا .

وكان مما كتب لهم فى ذلك المجلس من العلوم :

(١) ان صور فى أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج مطالعها ، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها .

(٢) وصور فى صحن المجلس صورة الارض وأقسام الاقاليم وخطط الجبال والبحار والبرارى والانهار ، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك .

(٣) وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها ، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها .

(٤) وكتب فى الجانب الاخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات .

(٥) وكتب فى الجانب الاخر علم الدين والملل والشرائع والسنن والحدود والاحكام .

(٦) وكتب فى الجانب الاخر السياسة وتدبير المملكة وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين وبين ارزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والاعوان .

فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك .

وهذا مثل ضربته الحكماء .

ذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى — والاولاد الصغار هى الانسانية — والقصر المبنى هو الفلك بأسره — والمجالس المتقنة هى صورة الانسان — والاداب

المصوره هى عجيب تركيب جسده ـ والعلوم المكتوبة فيه هى قوى النفس ومعارفها ونحن نبين هذا فصلا فصلا » .

وانا لنجد فى كل هذا نظاما تعليميا يستحق الرعاية من رجال التربية فى عصرنا الحديث .

• • •

وليس هذا حسب هو مانجده للعرب من البحوث فى التربية والتعليم . فأنا نجد كذلك لبعض الباحثين آراء عملية لها مكانتها ، إذا قيست بمعيار الاراء الحديثة فى التربية .

فالغزالى له فى هذه النواحى آراء نافعة فى كتاب « أحياء علوم الدين »

فمن ذلك :

« آداب المتعلم » :

(١) طهارة النفس عن مذموم الأوصاف

(٢) ألا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم .

(٣) أن يعلم نسبة العلوم إلى القصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره .

« آداب المعلم »

(١) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه .

(٢) ألا يطلب على افادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئا .

(٤) الوظيفة الرابعة وهى من دقائق صناعة التعليم :

أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة ويهيج الحرص على الاصرار

(٥) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله .

ومن ذلك بحوثه فى الاخلاق وحقيقة الخلق وما ينال به حسن الخلق ، وفى تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق ، وبيان علامات حسن الخلق .

ومن ذلك ماساقه فى رياضة الصبيان ووجه تأديبهم :ـ

(١) أن يمدح عنده الصبى المتأدب .

(٢) أن يجازى على مايظهر منه من خلق جميل وفعل محمود

(٣) لاتكثر القول عليه بالعتاب .

(٤) أن يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة

(٥) الحفظ من قرناء السوء

(٦) أن يؤذن له بعد الانصراف من الدروس أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لايتعب فى اللعب . فان منع الصبى من اللعب وارهاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش .

ولابن خلدون فى مقدمته آراء لابأس بها وقد ساقها فى الفصل الذى عقده فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه :

فتحدث فيما يأتى :

(١) فى أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة .

(٢) فى أصناف العلوم الواقعة فى العمران .

(٣) فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم .

(٤) فى وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق افادته :

١ ـ وذلك أن تلقين العلوم إنما يكون مفيداً اذا كان على التدريج .

٢ ـ لاينبغى أن يزيد المتعلم على ماتتسع له طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو فقهياً .

٣ ـ وبحث فى الفكر الانسانى وفى النظام المنطقى للتفكير .

٤ ـ وفى تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية فى طرقه، فى المغرب وفى الاندلس ، وفى أفريقية ، وفى المشرق

٥ — وبحث أيضا فى طريقة معاملة المتعلمين وفى أن الشدة مضرة بهم ثم ختم ذلك بذكر نصيحة الرشيد للاحمر الشيبانى معلم ولده الامين وهى :

« ياأحمر إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . اقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه مااستطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة »

هذه صفحة من جهود العرب فى التربية والتعليم ونشر الثقافة ، وأنها لصفحة مجيدة يفخر بها التاريخ . ولسنا نبغى بعرضها أن نغض من جهود علماء العصر الحديث فى التربية أو أن ندعى ان الاول لم يترك للاخر شيئا كما يقال ، ولكننا إنما نسطر الواقع ونسجل لذوى الفضل جليل عملهم وصادق جهودهم فيما أدوا للانسانية .

وانا لنرجو أن يكون هذا الماضى المجيد حافزاً للعروبة وللشرق حتى تنهض شعوبه وتسير فى ركب الحياة متعاونة متآزرة وتتخذ لمستقبلها دعائم من العقل الراجح والهمة الوثابة والخلق القويم .

عبد الحميد حسن

شوقى والعلم

للاستاذ احمد محمد الحوفى

تمهيد ، شغف شوقى بالعلم ، دعواته اليه وتوضيحه لآثاره ، جرائر الجهل ، العلم فى المدرسة وبعدها ، حظ المرأة من العلم ، الغرض السامى من العلم ، فخره بماضى مصر العلمى ؛ جلال المعلم .

(١)

أبرز سمات العصر الحديث أنه عصر العلم والثقافة ، وكل ماتشهده من جديد فى العالم ، ومانعجب به من طريف فى هذه الحياة ، ومانستمتع به من خير أو نصطلى به أحيانا من شر إنما مرده الى العلم ، ومرجعه إلى الثقافة .

والأمم تسمو بعلمائها ، فتمجد فى عهود السلم ، وترهب فى أعاصير الحرب ، ويكاد الواقع يقرر أن الاستعمار فى الزمن الحديث إنما هو استعمار العلماء للجهال ، فحيثما أنار العلم ، وشع فى النفوس كانت القوة والسلطان والمجد وحيثما أطبق الجهل بظلامه خوت النفوس من معانى العزة والكرامة والمجد ، فتسلط العالم على الجاهل ورغب القوى فى امتلاك الضعيف ، واستعمر القوى بعلمه الضعيف بجهله ، وإن كان عدد الغالبين المستعمرين لايبلغ عشر عدد الضعفاء المغلوبين .

ومأساة الشرق بالغرب تؤيد هذا ، فان أوربا لم تستعمر الشرق إلا فى عهود جهالته ، الجهالة التى جنت عليه الضعف والفقر والمرض ، وجرت وراءها الفرقة والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كنوز الخيرات التى يطئونها بأقدامهم ، فتزاحم الغربيون لاستغلالها وامتلاكها واحتكارها ، ومنوا على بعض المواطنين بأن يكونوا عمالا فيها ، وظل الشرق فى غفلته أو سكرته إلى أن بعثه العلم من رقدته ، إذ علم أفراد منه فتصدروا صفوفه ، ونفخوا من روحهم القوى

فى روحه ، ونصبوا أمامه المثل العليا لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم ، فسرعان ما استفاق الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق كلها تجاهد وتناضل .

وقد يمترى بعض الناس فى أن العلم وسيلة القوة فى الحروب ، كأنهم لا يعلمون أن الحروب تعتمد على الجيوش ، ولابد لها من علوم متنوعة تتصل بطبيعة الأرض ومواقع البلدان ، وأحوال الجبال والسهول والوديان ، وطبيعة الجو ، وحساب الأبعاد ، وإصابة الأهداف ، واختراع الآوزار والآلات : من طيارات وغواصات وقنابل ومدمرات .

وإذا كانت الحرب الاخيرة فى جملتها حرب آلات ومخترعات فان هذه الآلات والمخترعات كانت وليدة العلم ، وثمرة الجهاد الطويل للابتكار ، وكان فى كل أمة آلاف من العلماء جيشتهم فى معاملها ومصانعها ليخترعوا .

وما القنبلة الذرية إلا ثمرة لبحوث متواصلة ، ولولا العلم ما كان تحطيم الذرة وإن كنا لا نعنى الاشارة بما نشأ عنه أو ينشأ من تهديد المسلح للاعزل ، وإنما نعنى الاشارة بالآثار المحمودة النافعة الخيرة التى سيجنيها العالم من استخدام الذرة فى الصناعة والطب وغيرهما من وسائل الرفاهة والكمال .

وإن العلم هو الباعث على وثبات الشعوب ، ونهضات الامم ، وأيما نهضة اصطنعتها القوة المادية وحدها كانت كالحصن شيد على دعائم من الرمال ، لا بقاء له ولا صولة ولا طاقة له بأول جولة .

(٢)

لهذا كله كان أمير الشعراء حريصا على أن تتسلح مصر بالعلم ، فى الحرب والسلم ، وكان كلفا بالدعوة اليه يرددها فى كثير من قصائده ، حتى ليصح أنها عقيدة من عقائده .

وليس ذلك بعجيب منه بعد ماذاق حلاوة الثقافة شرقية وغربية ، قديمة وعصرية وعلم من تجارب الايام ، وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش فى عصر اسماعيل وما بعده ، عصر الافاقة واليقظه وإشراق العلوم بمصر .

ثم إنه رأى أوربا تتسابق فى ميادين المعرفة ، وتتنافس فى حلبة الاختراع ، وتعتز بعلمائها وأدبائها كما تعتز بملكها وفتوحها ، فود لو تقتدى مصر بها ، ولا يبقى جاهل تحت سمائها .

(٣)

يقرر أن العلم هو الوسيلة للفوز والغلب ، وحياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج المملكة وحارسها وحاميها ، لان العلماء بآرائهم واختراعهم يذودون عن الحمى ، ويقون الوطن غير العدوان ، كما تحمى الاسود عرينها .

يقول فى مدحة من مدائحه للمغفور له الخديو عباس :

بالعلم تمتلك الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب مابين آساد وأشبال

ويقول للمغفور له الملك فؤاد فى حفلة افتتاح الجامعة المصرية :

وألق فى أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلاطب ولا أسس

ويقول له أيضا :

إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانيين العلم والادبا

ويقول أيضا .

فلم تبرح القصر الا شفيت جدوب العقول ومحالها
لقد ركب الله فى راحتيك يمين الجدود وشمآلها
تخط وتبنى صروح العلو م وتفتح للشرق أقفالها

ويقول له فى قصيدة الازهر .

والله ماتدرى لعل كفيفهم يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غبنا وجل المشترى والمشترى

ويقول فى قصيدة دمشق :

الملك حول لسان تحته أدب وتحت عقل على جنبيه عرفان

ولم ينس فى الاحتفال ببنك مصر أن يقرن المال بالعلم فى الجلال والقدر ،

وانه دعامة من الدعائم التى يقوم عليها صرح الوطن ، وما قيمة المال بغير علم ؟ أليس العلم هو الذى يثمر المال فى وجوه نافعة ، ويبتكر الوسائل للوصول اليه ؟ هذه مصر قد احتكر الاجانب صناعتها وتجارتها ، وزاحموا حتى فى زراعتها منذ كانت تجهل كنوزها ، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها ، وتسترد بعض مالها ، لأنها أحق بخيراتها .

يا طالبا لمعالى الملك مجتهدا خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبق ملك على جهل واقلال

. . .

وانما تمسك الامم ملكها الوطيد بالعلم والعدل أولا ، وكل ملك شيد بالقهر والغلب وحد السيف مع مجافاة العلم فمصيره الزوال ، لأن أسباب بنائه ، ومظان بقائه ، هى أسباب فنائه .

استمعوا إلى شوقى فى قصيدته « الاندلس الجديدة » يخاطب مدينة أدرنة من كريات العواصم العثمانية فى مقدونية ، ويتحسر على سقوطها فى يد البلغار سنة ١٩١٢ ثم يعزو تقوض ملك الترك إلى أن دولتهم قامت على البطش والجبروت ، لا على الثقافة والعلوم

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوام
أبنى الممالك ما المعارف أسه والعدل فيه حائط ودعام
فاذا جرى رشداً ويمنا أمركم فامشوا بنور العلم فهو زمام

***

وإذا كان الملك عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتحول جثثاً هامدة ، فان الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الانسانية ، وخصائصها الادمية ؛ فيئول بالجهال إلى فصائل البهم ، إذ ليس لهم من معنى الانسانية إلا أسمها

الجهل لا تحيا عليه أمة كيف الحياة على يدى عزريلا

. . .

إنى نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داء للشعوب مبيداً

الجهـل لايلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

...

أيقنت أن الجهل علة كل مجتمع سقيم

وقد كرر شوقى هذا المعنى فى تحيته للترك ، وكأنه كان يستشف من وراء الغيب أن الكلمة الأخيرة فى الحروب ستكون للقلم والعلم ، لأن المخترعات الفتاكة فى غنى عن العدد وعن الشجاعة :

هـذا الزمان تناديكم حوادثه يادولة السيف كونى دولة القلم
فالسيف يهـدم فجراً ما بنى سحرا وكل بنيان علم غير منهدم
قد مات فى السلم من لارأى يعصمه وسوت الحـرب بين البهم والبهم
وأصبح العلم ركن الاخذين به من لايقم ركنه العرفان لم يقم

...

وكلما صاغ شوقى قصيدة فى موضوع ذى صلة بالعلم أو بالفن — على أنه الجانب التطبيقى من العلم — سكب فى قلوب الشباب من روحه الوثاب

ها هو فى قصيدة عن الطيران عند قدوم «فدرين» و «بونيه» طائرين من باريس إلى مصر سنة ١٩١٤ يلتفت إلى الشباب المصرى يوقظه من غفلته ، ويبعث فيه الثقة والغيرة والطيران بمصر إلى جو المعالى على أجنحة من العلم :

إنما مصر اليـكم وبـكم وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حـر ومستقبلكم فى يمـين الله خير الأمناء
لاتقولوا : حطنا الدهر فما هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلهـا ظهرت فى المجد حسناء الرداء
فخذوا العلم على أعـلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واطلبوا المجد على الارض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

وفى تحية أخرى لطيارين فرنسيين مجد العلم المخترع ، العلم الذى لو تقدم به الزمن واقترن بالتحدى من فرد لعصره لعد معجزة ، ثم أثنى على الشجعان من العلماء

الذين أهلكتهم جرأتهم مثل « إيكار » ، و (عباس بن فرناس) وحسبهم من حسن الأحدوثة أنهم خلفاء الرسل فى المعرفة والاستشهاد ؛ ونهز الفرصة فصرخ فى أذن الشرق الغافل ليستفيق ، فالحياة زحام وصراع يهلك فيها من استنام ، والحياة جد وكفاح لايغنى عنهما شيئا ماض مجيد كان للاباء والأجداد :

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم أسرجو الريح وساموها اللجاما
صارما كان لكم معجزة آية للعلم آتاها الأناما
قدرة كنت بها منفردا أصبحت حصة من جد اعتزاما
طلبة قد رامها آباؤنا وابتغاها من رأى الدهر غلاما
أسقطت إيكار فى تجربة .. وابن فرناس فما استطاع قياما
فى سبيل المجد أودى نفر شهداء العلم أعلاهم مقاما
خلفاء الرسل فى الأرض همو يبعث الله بهم عاما فعاما
أيها الشرق انتبه من غفلة مات من فى طرقات السيل ناما
لاتقولن : عظامى أنا فى زمان كان للناس عصاما
شاقت العلياء فيه خلفا ليس يألوها طلابا واغتناما
كل حين منهمو نابغة يفضل البدر بهاء وتماما

...

وفى قصيدته التى كرم بها المغفور له أحمد حسنين باشا الرحالة يقول للشباب :

قل للشباب بمصر عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع
ما الجاه والمال فى الدنيا وإن حسنا إلا عوارى حظ ثم . ترتجع
عليكمو بخيال المجد فأتلفوا حياله ، وعلى تمثاله اجتمعوا
وإن نبغتم ففى علم وفى أدب وفى صناعات عصر ناسه صنع
وكل بنيان قوم لايقوم على دعائم العصر من ركنيه منصدع
شريف مكة حر فى مبالكه فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا ؟

...

والفنون الجميلة فى رأى شوقى نفحات من الله تعالى جمل بها الحياة وعطرها ، وهذب بها النفوس ورقق الطباع ، وأرجع الى الناس نشاطهم إذا ما فتروا ، وأملهم إذا ما يئسوا ، والفن الجميل زينة الممالك وحلاها :

يقول فى رثاء سيد درويش :

لاترق دمعا على الفن فلن يعدم الفن الرعاة الامناء
هو طير الله فى ربوته .. يبعث الماء اليه والغذاء
روح الله على الدنيا به فهى مثل الدار والفن الغناء
تكتسى منه ومن آذاره نفحة الطيب واشراق البهاء
وإذا ما حرمت رقته فشت القسوة فيها والجفاء
وإذا ما سئمت أو سقمت طاف كالشمس عليها والهواء
وإذا الفن على الملك مشى ظهر الحسن عليه والرواء

...

والشعراء فى رأيه هم الناس ، أى الكملة فى الحيوية وفيض الشعور والاحساس

جاذبتنى ثوبى العصى وقالت أنتم الناس أيها الشعراء

ولما كادت باريس تسقط فى الحرب العالمية الأولى تفجع الشاعر لسقوطها المتوقع لأنه يعرف لها فضلها على الأدب والفن والعلم ، ولأنها مقصد الطلاب من الشرق والغرب :

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة يالفك مازعموك
إن كنت للشهوات ريا فالعلا شهواتهن مرويات فيك
تلوين أعلام البيان كأنهم أصحاب تيجان ملوك أريك
فاضت على الأجيال حكمة شعرهم وتفجرت كالكوثر المعروك
والعلم فى شرق البلاد وغربها ماحج طالبه سوى ناديك

* * *

والاسلام يدعو إلى العلم ويكرر الدعوة ، إذ قام الاسلام على السمو بالروح وتطهير القلب وتربية العقل بالتفكير فى خلق السموات والأرض ، وأقام الاسلام

أسسه على العقل والتفكير ، فرفع من قواعد العلم وحببه إلى النفوس ، وحسب العلماء فخارا أن الله تعالى يقول « يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات » ويقول «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ويقول سبحانه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » : ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويقول : « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه » .

لذلك ذكر شوقى من مآثر الرسول على العالم أنه بعث بدين يربى العقول ويرفع من أقدار العلماء .

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم
والجهل موت فان أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم
خططت للدين والدنيا علومهما ... ياقارىء اللوح بل يالامس القلم
أحطت بينهما بالسر وانكشفت ... لك الخزائن من علم ومن حكم
لما اعتلت دولة الاسلام واتسعت ... مشت ممالكه فى نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة ..... رعى القياصر بعد الشاء والغنم
كم شيد المسلمون العاملون بها ... فى الشرق والغرب ملكا باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ما عزموا ... من الأمور وما شدوا من الحزم
ويجلسون إلى علم ومعرفة .... فلا يدانون فى عقل ولا فهم

. . .

ويقول :

ظلموا شريعتك التى نلتسابها ... مالم ينل فى رومة الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها واهتدى ... فى الدين والدنيا بها السعداء

(٤)

ويمد شوقى بصيرته إلى بواعث الجرائم فيجدها ناجمة من ضيق العقل واضطراب الرأى والجهل بمصاير الأمور ومصادرها .

فى تهنئة للزعيم الخالد سعد زغلول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه وهو

يتأهب للسفر إلى انجلترا للمفاوضة — عاب على الشباب أنه منصرف عن واجبه الأول ليلهو بالسلاح ، وأنه طائش لا يميز ، وأن اغتيال الزعماء ليس بوسيلة للتحرر ، وما وسيلة التحرر إلا الجيش اللهام والعلم الهادى والخلق الممسك بالزمام :

أرى مصر يلهو بحد السلا ح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقو ل يجيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلا د ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضى دولة وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا د وبالعلم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العلو م وأين الفنون واتقانها
وأين من الخلق حظ البلا د إذا قتل الشيب شبانها

. . .

والجهل يعمى المنتخبين عن اختيار الكفء الصالح للنيابة ، لأنهم ينخدعون بالوعود المعسولة ، والدعايات الجوف ، والزلفى الخادعة

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد « خوفو » لم تر القنديلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم فالناجحون ألذهم ترتيلا

. . .

فعلى شيوخ الأمة ونوابها أن يتداركوا التعليم فى مصر فينشروه فى كل مكان تظله سماؤها ، ويعيش فيه أبناؤها :

البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا
نرجو إذا التعليم حرك شجوه ألا يكون على البلاد بخيلا

. . .

وعلى الشباب أن يسموا فى تنوير الشعب ليتخير النواب العلماء الأكفاء للدفاع عن حقوقه حتى لا يوصم الرأى العام بأنه كالقطيع يساق ولا يقاد :

قل للشباب اليوم بورك غرسكم دنت القطوف وذللت تذليلا

ناشدتكم تلك الدماء زكية لاتبعثوا للبرلمان جهولا
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر منهم التفضيلا

. . .

دار النيابة هيئت درجاتها فليرق فى الدرج الذوائب والذرى
الصارخون إذا أسيء إلى الحمى والزائرون إذا أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الأولى يمشون فى ذهب القيود تبخترا

(٥)

وشوقى لا يريد بالعلم الاقتصار على برامج المدارس لأنها ليست إلا مفاتيح للاستبحار والتعمق ، وكم من متعلم اقتصر على ماعلمه فى المدارس ، وودع الكتاب يوم غادر المدرسة فصار بعد حين فى عداد القارئين ، لا فى عداد المثقفين الذين يسايرون الحركة الفكرية ويغذون أرواحهم كما يغذون أجسامهم . وإنما يريد شوقى بالعلم هذا النشاط الذهنى المتوقد ، وهذا النهم إلا الاستزادة من المعرفة وليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه للوظيفة وحدها :

وأطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآداب أخر
كم غلام خامل فى درسه صار بحر العلم أستاذ العصر
ويجد فيه أمسى خاملا ليس فى من غاب أوفى من حضر

. . .

وكم منجب فى تلقى الدرو س تلقى الحياة فلم ينجب

ويقول فى أسواق الذهب تحت عنوان : « شهادة الدراسة وشهادة الحياة مابال الناشيء وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كحل بأحرفها عينيه ، وظفرت بزخرفها كلتا يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقطوعة . طوى الدفاتر وترك المحابر ، وذهب يخايل ويفاخر ، ويدعى علم الأوائل والأواخر ، فمن ينبيه أن الشهادة طرف السبب وفاتحة الطلب والجواز إلى أقطار

العلم والأدب ومن يقول له أرشده الله إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟ »

(٦)

وشوقى حريص على تعليم الفتاة لأنها بعد حين الأم التى تلد الأطفال أو الأشبال وتربيهم على أحسن مثال ، الأم التى تستحق كلمة نابليون انها تهز المهد بيمينها وتحرك العالم بيسارها .

واذا النساء نشأن فى أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

ويقول مبينا حظ النساء من العلم فى صدر الاسلام وعصور الازهار ومفاخراً بما كان لهن من آثار .

هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة كنسائه المتفقهات
رضى التجارة والسيا سة والشئون الأخريات
ولقد علمت بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الد نيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الاسلام تن طق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نمي ن الهاتفات الشاعرات

(٧)

ولا بد أن يكون الغرض من العلم ريا للنفوس العطاش الى الخير والحق والجمال ، لأن العلم من نور الله ، وهبة من عطاياه ، ولو صح أن الله تعالى يرى لكان العلم هو المصباح الذى يراه به العلماء ، فكيف يسوغ أن يستخدم العلم فى الشرور وفيما يغضب الله ؟ إن الابطال الخليقين بألقاب البطولة هم العلماء ، لأنهم لايحاربون إخوانهم من الناس بالسيف والرمح ليقوضوا الحضارة ويخربوا

المدنية ، وإنما يحاربون أمراض الانسانية وأدواءها لتصح وتسلم وتكمل ، وهذا هو الجهاد ، وتلك هى البطولة :

لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم جل الله شأنا
ياطرازا يبعث الله به فى نواحى ملكه آنا فآنا
من رجال خلقوا ألوية ونجوما وغيوثا ورعانا
قادة الناس وإن لم يقربوا طبعات الهند والسمر اللدانا
وهم الابطال كانت حربهم منذ شنوها على الجهل عوانا

. . .

أما العلم الذى يفتن فى ابتكار معاول التدمير والتخريب والازهاق والاحراق وتسلط الباطل على الحق ، والشر على الخير فالجهل خير منه والانسانية منه براء .

يقول شوقى بعد وصف الغواصة :

فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحواها
واف على العلم الذى تدعونه إذا كان فى علم النفوس رداها

ويقول فى رثاء مصطفى فهمى باشا معرجا على الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ :

يتفاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على العلماء

(٨)

ويفخر بسبق مصر فى مجالى العلم ، وتفوقها على العالم القديم ، ويكرر الفخر بفضلها وأستاذيتها .

ففى قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ مرجليوث يفخر بأن النيل مهد الحضارة ، فى واديه نبتت ، وعلى عبريه ترعرعت ، وضاع عبيرها فنبه الأمم .وهذه الاثار الخالدات وصحائف البردى العتيقات نواطق وشواهد ، والى مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلها منك الحفى المشفق
ملأت وبارك حكمة مأثورها فى الصخر والبردى الكريم منبق

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق

وكان نهازاً للفرص ينوه فيهن بمجد مصر وفضلها، يريد أن يبعث فى الشباب النخوة، ويحيي لهم مثل البطولة ومعالم السبق. ويستحثهم الى إعادة ما مضى، ويريد أيضا أن يفاخر الأمم بهذا المجد ليعلى شأن مصر الموفقة فى الجغرافيا الفلكية والاقليمية، وينوه برحلات المصريين وجوبهم البحار، فى عصور لا كهرباء فيها ولا بخار:

نزلن أول دار فى الثرى رفعت للشمس ملكا وللاقمار سلطانا
تفننت قبل خلق الفن وانفجرت علما على العصر الخالى وعرفانا
أبوة لو سكتنا عن مفاخرهم تواضعا نطقت صخرا وصوانا
لم يسلك الأرض قوم قبلهم سبلا ولا الزواخرا ثباجا وشطانا
تقدم الناس منهم محسنون مضوا للموت تحت لواء العلم شجعانا
جابوا العباب على عود وسارية وأوغلوا فى الفلا كالأسد وحدانا
أزمان لا البر بالوابور منتهبا ولا البخار لبنت الماء ربانا

وجميل منه أن يعود الى المؤتمر فيأمره أن يقف وقوف العالم ليناجى العلم مهده. ويذكر عهده، أزمان شب وترعرع فى رعاية الكهان والنبيين.

يا موكب العلم قف فى أرض (منف) به يناج مهدا ويذكر الصبا شانا
بكى تمائمه طفلا بها وبكى ملاعبا من ربا الوادى وأحضانا
أرض ترعرع لم يصحب بساحتها إلا نبيين قد طابوا وكهانا

(٩)

وبعد، فقد مجد شوقى العلم أى تمجيد، فما قدر المعلم فى نظره؟ إنه لقدر عظيم وبحسبه أنه يكاد يكون رسولا، وأن الله تعالى هو المعلم الاول، علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم، وأنه تعالى ابتعث الأنبياء معلمين:

وإنك لا تجد فى الأمة أعظم منه أثرا، ولا أجل خطرا. لأنه يبنى نفوسا وعقولا، وأن المعلمين هم الذين يحملون العبء ثقيلا، وهم هداة الامم الى الخير والحق والجمال، وقائدوها الى العزة والكرامة، ولذا قال بسمرك بعد حرب السبعين

« إنما غلبتنا جارتنا بمعلم المدرسة » قال شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا
أمعلمى الوادى وساسة نشئه والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين إذا دعوا ليعلموا عبء الأمانة فادحا مسئولا
إنى لأعذركم وأحسب عبأكم من بين أعباء الرجال ثقيلا

احمد محمد الحوفى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية

اسماء بنت ابى بكر (١)

للأستاذ محمد بيلى الفار

سيداتى — سادتى

أقرأ عليكم الليلة صفحة من صفحات المجد الباقية سجلتها بأعمالها العظيمة أسماء، وأسماء بنت أبى بكر وأبو بكر قرشى من سادات بنى تميم مصابيح الظلام أولته قبيلته زعامتها حين استند ساعده، لما توسمت فيه من خلال الخير فقد كان رقيق الطبع رزيناً لا يغلبه الهوى حسن الحديث حلو المعاشرة. قال ابن هشام: كان أبو بكر رجلا محبباً سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجراً ذا خلق معروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته.

أما أمها فقتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر — والتاريخ لم يحدثنا عما يكشف عن صورة واضحة كهذه الأم المنجبة — ولكن حسبها أن يختارها أبو بكر زوجا له فالرجل الذى عرفه التاريخ بصفات العظمة والحصافة — لا يختار زوجه بهواه بل بعقله ورويته — فقتيلة مما لاشك فيه زوج صالحة، لأن أبا بكر — العالم النسابة بجيد الاختيار — وقتيلة أم صالحة أيضاً لهذا الاختيار ولما أنجبت من ولد ولئن لم يكن لها من الولد غير أسماء إنها بهذه النجيبة أم صالحة وجد صالحة فأسماء إذاً غراس طيب فى تربة طيبة — وأسماء شجرة مباركة تعهد تهايد صناع قد استكمات ما يجعل أشجارها تؤتى ثمارها ناضجة شهية بعد حين — وأسماء إذاً قد تخرجت فى مدرسة الشرف والحصافة والعلم ولقنت من أبيها وممن كان يجالس أباها ما يثقف العقل ويوسع الأفق ويهذب النفس ويبصر الطفل بدنياه.

---

(١) القيت من محطة الاذاعة بمصر

تخرجت أسماء فى مدرسة زعيم قومه ومن كان فيصلا فى أمورهم يقول فيصدق وإن قال غيره ما يقوله كان غيره موضع الريبة والتكذيب .

وإذا كان الطفل صورة بيته ، أبيه وأمه فأسماء صورة صادقة واضحة لهذا البيت الغنى بالأدب والعلم والذى هو أحد البيوت العشرة التى انتهى إليها الشرف فى قريش الجاهلية والذى بقى شرفه موصولا بأبى بكر فى الاسلام .

ومن الحق أن نقول ، بعد أن درسنا سيرة أبى بكر فى بيته ، كما قال الأستاذ العقاد ! إن النشأة فى حياة أبى بكر البيتية لا تتمثل فى شىء كما تتمثل فى نشأة بنتين عائشة وأسماء . وعائشة رضى الله عنها ليست من موضوع حديثنا .

أما أسماء ذات النطاقين فما حمد الناس فضيلة لامرأة بنتاً وزوجا وأما إلا كانت أسماء أجمل نموذج لهذه الفضيلة ، وأسمى صورة من صورها .

أسلمت أسماء مع أبيها ، فهى من الأوليات السابقات — وكتبت أسماء لنفسها فى هجرة الرسول وصاحبه إلى المدينة صحيفة شرف مخلدة تقرأ مقرونة بالتمجيد والاعجاب .

خاطرت بنفسها لاخفاء هجرة الصاحبين على المتربصين والمستشرفين فكانت فى ذلك مستودع سر هائل حملته أمينة عليه ومن حولها شياطين قريش يلجون فى تعرف أخبار محمد ويبذلون فى ذلك أموالهم ونفوسهم — وأسماء موطن من مواطن هذا التقصى وهدف من أهداف ذلك البحث لأنها ابنة أبى بكر صديق محمد الوفى وصاحبه الامين .

دلت أسماء بكتمان السر والاحتفاظ به موفورا على أنها ممن يقدرون الأسرار ويحتفظون بالامانات وإن كانوا فتيانا قد كثرت من حولهم المحاولات لاستخلاص ما تحمل قلوبهم من أسرار عظام . كانت أسماء تمسى الصاحبين ، وهما فى الغار يستعدان للهجرة ، كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون سمعته أو رأته من أحاديث القوم وأخبارهم .

ولما كانت ليلة السفر لم تجد أسماء لسفره الطعام وقربة الماء ما تشدان به الى الراحلة غير نطاقها فخرجت عنه وجعلته شقتين شدت بأحداهما السفرة وبالاخرى

القربة فسميت لذلك ذات النطاقين ولئن سلمت أسماء من الليل ومخاوفه والطريق وعثراته إنها لم تسلم من أذى قومها فلقد أحاط بدارها ذات صباح رجال من قريش ليتعرفوا أمر أبيها فلما تجاهلت خبره أمعنوا فى أذاها حتى لطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها فما استكانت وما ضعفت بل ردت عزيمتها وإيمانها القوم خاسرين ذلك شأن أسماء الفتاة .

أما أسماء الزوج فقد كانت من المثل العليا للزوج المخلصة تشارك زوجها نعماء الحياة وبؤسها وهى تؤمن أن ذلك واجبها .

تزوجت الزبير بن العوام وكان فقيراً لا مورد له فلن تر عيباً — وهى — بنت أبى بكر السرى المثرى — أن تعلف فرسه وأن تطحن بيديها النوى لبعيره وأن تستقى له الماء وتخرز الدلو وأن تحمل على رأسها علف دوابه مسافة ميلين فى الذهاب ومثلهما فى الاياب وما زال هذا شأنها حتى علم أبوها مصادفة بما تحمل من جهد ومشقة فى خدمة زوجها فأعانها بخادمة تحمل عنها بعض ما تحمل من أعباء ثقال قامت بها زمانا وهى من علمنا من شرف المحتد وعزة البيت وثرائه ولكن العظيم لا يمن ولا يفخـــر بل قد يظن أن نفسه لم تقم بشىء إلى جانب ما يجب أن تقوم به .

هذا مثل من أمثلة أسماء الزوج .

أما أسماء الأم ففيها يقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام إن أسماء هذه رضى الله عنها أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس وحب أسماء أن يكون ابنها عبد الله المقدام الجرىء العالم الفقيه اللسن الفصيح أول مولود فى الاسلام بعد الهجرة والذى خلع قلوب الأمويين واستخلص لنفسه من براثنهم ملك الحجاز والعراق فدان له القطران بالطاعة زمانا .

بعثت فيه أمه ما وهبت من صفات العظمة والسمو فكان منبتا كريما لغراس هذه النفس الابية الكريمة .

كانت نتيجة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين أن ضيقوا عليه الخناق فى مكة فانفض عنه الأعوان والأنصار وخذله الأهل والولد

وبذل له أعداؤه ما شاء من أمن وجاه وغنى إن رجع عن قصده وانقطع عن السير فى طريقه فاستشار أمه فى موقفه قال ! يا أماه لم يبق معى إلا اليسير ومن لادفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ! فما خلع الهول قلبها كما يخلع قلوب النساء ولاضعفت ضعف الامهات حنوا على الابناء ولو فعلت لكان لها عذر وألف عذر ولكن أسماء قابلت الامر العظيم والروع المفجع بفؤاد غير متصدع وأقبلت على ابنها تقول ! ياولدى إن كنت على حق تدعو اليه فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيتلعبوا بك وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ! القتل أحسن ما يقنع به يا ابن الزبير والله لضربة بسيف فى عز أحب الى من ضربة بسوط فى ذل هذه كلمات أم عجوز جاوزت المائة قد تعاقبت عليها ملمات الزمن وأحداث الايام فكف من الاسى بصرها وضعف جسمها بيد أن نفسها وكرامتها وشجاعتها وعزيمتها مازالت فتية قوية فلم تلن فى موطن تذوب فيه قلوب الاقيال والصناديد ولا تحتمله الافئدة ولو كانت قطعا من حجر وحديد .

قالت لابنها ما قالت فكان آخر ما سمع وآخر ما وعى — وقع لعبد الله بعد القتل ما كان يخشى من تمثيل وتصليب فجاءت أمه الحجاج تسأله أما آن لهذا الفارس أن يترجل ! فقال الطاغية فى غطرسة وكبرياء المنافق — فأجابت مغضبة والله ما كان منافقا وقد كان صواما قواما فاهتاج الحجاج لردها وقال اذهبى فانك عجوز قد خرفت فقالت لا والله ما خرفت ولقد سمعت الرسول عليه السلام يقول ! يخرج من ثقيف كذاب ومبيد أما الكذاب فرأيناه — وأما المبيد فأنت هو .

موقف نبل جازت اسماء فيه الشتائم بشتمه ولم تبال سلطانه القاهر ولا أن ترجع من لدنه غير مدركة غايته .

طوى الموت أسماء بعد ليال من ابنها فى العام الثالث والسبعين من الهجرة فضم قبرها عظيمة ينبغى أن تقام لذكرها مواسم المديح والثناء وأن يكون تاريخها بعد ما يسمر به الآباء والأبناء ؟

محمد بيلى الفار
المفتش بالمعارف

فى الأدب المغربي (١)

للأستاذ عبد الله محمد العمراني

خريج دار العلوم

تحت هذا العنوان أريد التحدث قليلا فيما يختص بأدب المغرب الأقصى وحياته منذ الفتح الأندلسى (سنة ١٧٢ هـ) إلى آخر القرن الثالث عشر الهجرى .

وهو موضوع طويل وعريض . وأخشى أن يكون طوله وعرضه عاملا من العوامل التى ساعدت على التقصير الذى أعترف به من الآن . إن الوقت لا يسمح لى الآن بالدراسة التفصيلية لهذا الأدب ، كما أن مصادر البحث التى يمكن الرجوع اليها قليلة جداً . ولهذا سأقتصر على أن يكون هذا البحث مركزاً للغاية . وسأجتهد فى إعطاء فكرة تثير السبيل أمام من يريد التوسع فى هذا الأدب . وقد تتاح لى الفرصة لدراسة ألوان الشعر والنثر حين يكون فى الوقت متسع ، ويكون مجال البحث أيضا واسعاً .

الغرض من هذا البحث

قد يتفق لبعض الناس هنا فى مصر (كعبة العلم فى العصر الحاضر وملتقى الشرق والغرب) أن يسألنى عن موقع البلاد المراكشية وهل المراد بها الغرب الأقصى ؟ كما يتفق للبعض الآخر أن يستفسر عن موقع مدينة ما من هذه البلاد ، فآسف أشد

---

(١) محاضرة القيت فى قاعة على باشا مبارك بدار العلوم

الأسف لأن هذا البعض أو ذاك يجهل مثل هذه الحقائق ، ثم أدله على موقع هذه أو تلك لأكون قد أديت بعض الواجب على فى ايقافه على مايريد .

قد طرق سمعى مثل هذا السؤال غير مرة فكنت أقول فى نفسى : إذا كانت هذه هى الحال فى معرفة البلاد فكيف الحال فى معرفة أهلها وانتاجها الادبى وغير الأدبى ؟ أفلا يحق لى ولمثلى أن يتعرف إلى الناس مادام أنه قدعرفهم ؟ وأن يعرفهم ببلاده وأدبها مادام هو ببلادهم ؟ فليكن ذلك ! وليقدم كل واحد على التعريف بوطنه وأدبه . فان زمن الوحى أو المعجزات قد انقضى . إن الادب لايعرف الحدود الجغرافية ولن يعرفها ، بل هو حق مشاع بين أفراد الجنس البشرى عامة ، وبين أفراد الامة الواحدة خاصة . إذن فما هذه الحدود والقيود التى تجعل أدب قطر عربى يحجم عن اقتحام قطر عربى آخر مثله ؟

أجل ، هى حدود الصدود والبعاد التى تجعلنا نتساءل : ألا من وصال ؟

وإذا كانت الحروب الحديثة يرجع اليها الفضل التام فى التعريف بالمناطق أو المدن التى تدور حولها رحى الحرب فانى لاأرى مانعاً من أن أعلن الحرب على الادب المغربى ؟ لعل ذلك يثير من حب استطلاع القراء وأدباء الشرق مايشفى غليلى وعليل كل من يشعر بأن أدب قومه أو بلده يجب أن يسرى على الالسن سريان تيار النور فى أسلاك الكهرباء .

يجب أن نقضى على ماهو كائن أو كان ، وأن نلتفت إلى ماينبغى أن يكون ، يجب أن يكون الأدب أداة اتصال وهمزة وصل بين أمم الارض جميعاً ، وبالاحرى بين أقطار الأمة الواحدة . وما ذلك إلا لان الادب هو السفير الحق بين هذه الامم بعضها مع بعض ، وبين أجزاء الامة الواحدة من باب أولى ان كان هناك أجزاء .

ان رسالة الادب لن تنقضى ، وان جميله لن ينكر مهما كان نوع هذا الادب ولونه . ويذكرنى هذا بمعركة أدبائنا التى وقعت بعد انهيار فرنسا فى هذه الحرب الضروس والتى كان أحد جانبيها فى مصلحة الامة المهزومة يبكيها ويرثى لحالها ، وذلك على الرغم من أنها طالما سامت أبناء أمته سوء العذاب .

إن العصر الحديث يمتاز بالسرعة فى كل شىء ، حتى إن العالم صار ازاء المواصلات

كانه كرة صغيرة أمام الشخص يضع أصبعه على المواطن المختلفة التى يريدها فيصلها بأقصى سرعة . أمع هذا نجد صعوبة فى وصل المغرب بالمشرق ؟ أم نجد صعوبة فى توحيد المناهج الثقافية والادبية بين مختلف الاقطار العربية . ولعل المؤتمر المقبل للتعليم الاسلامى سيقضى على كل الحدود والقيود فيما بين الآداب العربية المختلفة ، ولعـــله كذلك سيحل من مشكلات التوحيد الثقافى مايحقق شيئا من الآمال فى هذا السبيل .

الأدب وأهميته

ان الادب — وهو فن من الفنون الجميلة — لابد أن يتغير تغير البيئة ، وأن يتأثر بكل مالها من مؤثرات فيه ؟ ومن هنا كان لكل أمة أدبها الخاص .

ومن هنا أيضا كان الكاتب أو الشاعر صورة من بيئته الاجتماعية المحيطة به . وما الأدب إلا لحن جميل ترددة ألسن الامة شرقا وغرباً بعد أن تفتن فيه قرائح الأدباء بقدر ماتسمح لها به بيئتها وظروفها الاجتماعية ، وبقدر ماتدركه وتحسه من ألوان الجمال الفنى ، ثم بقدر مايعبر عن عواطفها ومشاعرها المستقلة — نوعاً ما — عن عواطف و مشاعر أقرانها فى أى نحو من أنحاء العالم .

فأهمية الادب تبدو فى تعبيره الصادق عن حياة الامة وروحها . والحياة بأنواعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد أن تتراءى على مرآة صافية صقيلة هى الحياة الادبية . وإذا ماأردنا أن ندرس حياة أمة من الامم فلا بد من الرجوع الى انتاجها الفنى ، والادب فى الطليعة من هذا النتاج . ان ارتباط التاريخ بالادب شديد ، ومن ينكر أن التاريخ العربى مثلا — مدين بالشىء الكثير للادب فى كشفه عن الحياة الجاهلية وجلاء غامضها ؟

ويقال هذا فى حياة الامة ذات الادب اللفظى من ألوان الشعر والنثر ، أما الامة ذات الادب الرمزى كانواع التصوير والنحت فلا تخلو من أن يكون أدبها مصحوبا بنقوش تعبر عنه وتحدد لنا الاشياء الادبية المطلوبة . على أن الامة قد تجمع بين الادبين فيسير اللفظى والرمزى جنباً الى جنب كلاهما يكمل صاحبه فيعبر عما نحن

فى حاجة الى دراسته وكشف غموضه . ولايخفى أن للادب فى كل حال من هذه الاحوال الثلاث مقامه الذى يختلف قوة وضعفاً باعتبارين مختلفين .

سقنا كل هذا لنخلص الى نتيجة واحدة هى أن الادب بنوعيه مصدر مهم فى حياة الامة وتاريخها ، بل فى أية ناحية من نواحى هذه الحياة .

الصلة بين الآداب عامة

كلنا يعرف أن لكل أمة أدبها الخاص وهذا مما لاجدال فيه . وكلنا يعرف أن للامة العربية ممالك وأقطاراً ، فلا عجب إذن أن يكون للادب العربى ممالك وأقطار أيضا ، والا فما كان للاندلس أدب ولا للمغرب والشام وبلادالعرب مثلا — آداب أخرى ، وإلا فمافكر كذلك أدباء مصر الآن فى أن يكونوا لها أدبا أوهو كائن بالفعل ولكنهم فى حاجة الى أن يجمعوا شمله ويلموا شعثه حتى يصير كائنا حيا معترفا به من لدن البيئات الادبية الاخرى .

انه لمن السخف جداً أن يقال : ان الادب الجاهلى نسخة من الادب اليونانى القديم أو ان الادب فى قرطبة صورة مكررة لأدب بغداد .

وقد يقال : ان العواطف الانسانية وحدة لاتتفك أجزاؤها ، وسلسلة متصلة الحلقات لايدرى أين طرفاها ، فلم لايكون الادب باعتباره معبراً عن تلك العواطف وحدة كذلك ؟ والجواب على هذا هو أن طريقة الاداء والتعبير عما فى النفس تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان ، وان كانت العواطف والمشاعر لاتختلف ذلك الاختلاف .

ان الطبيعة وهى الام الرءوم ، مستعدة لامداد كل انسان بما يخصه ، ولكن الانسان هو الذى يختلف فى كمية مايأخذه وكيفيته ، وهذا هو مصدر التعدد والاختلاف بين انتاج الاشخاص بعضهم مع بعض أولا ثم انتاج الشخص الواحد ثانياً .

وما الشأن فى اختلاف الاداء وطرق التعبير عن العواطف الانسانية إلا كشأن الصور الزيتية المتعددة لمنظر ما ، فالمصدر واحد ولكن الاختلاف جاء من

نظرة كل فنـــان الى المنظر الذى أمامه ، فكانت النتيجة أن تختلف الاوضاع والالوان الزاهية لتبدو الصورة ملائمة للطبيعة حينا ، وفائقة اياها فى حسنها وجمالها حيناً آخر .

ومع هذا الاختلاف فان الآداب عامة لاتعدم صلة قربى وتشابه بين بعضها والبعض الآخر . وهو تشابه محدود على كل حال ، وان كان يطيب لبعض الناس أحياناً أن يسموه بالاخذ أو السرقة الادبية . والقول الفصل فى هذا هو أن المعانى مشتركة والعواطف واحدة وأنها ملك مشاع بين جميع أفراد الجنس البشرى ، فلكل واحد الحق فى أن يتصرف كما يشاء وأن يعبر عما يحسه ويدركه كيفما يريد . والاتفاق فى طريقة الاداء وأسلوبه قد يكون ناشئا من أن الاديب اللاحق متأثر بالسابق أى أنه قرأو حفظ له كثيراً ثم نسى ماحفظ أو قرأ . ولكن الخلاصة المهضومة والممثلة ، لاتزال عالقـــة بذهنه يستطيع التعبير عنها متى أراد .

فعملية الهضم والتمثيل ، تحيل المعـانى أو الافكار المنسية جزءا من لحم الكاتب أو الشاعر ودمه ، وأظن أنه من الاجحاف وعدم الانصاف بعد عملية التمثيل هذه أن يقال : إن هذا المعنى لفلان ..... وان كان له فضل السبق والتقدم فيـــه .

على أن وجوه الشبه هذه أو مايسمونه بالاخذ أو السرقة قد تكون بين أديبين من أمتين مختلفتين لكل منهما لسان خاص ، وقد يكون أحدهما أو كلاهما غير عارف بلغة الآخر . يعلل هذا بأن الانسانية جمعاء مشتركة فى معانى وأحاسيس يحسها كل من له عقل أو قلب ، ولا فرق فى هذا بين زمان أو مكان أو لسان . فآداب اللغات المختلفة تتشابه كتشابه الآداب فى اللغة الواحدة ، مثل الاداب فى هذا كمثل الناس فى صورهم وأجسامهم كلاهما يعيش على نوع من الوراثة تشابه فيه الفروع الاصول فى قليل أو كثير ، وفى أزمان متلاحقة أو متباعدة . إن الانسانية ليست متشابهة فى الاشكال والالوان فحسب ، ولكن فى القرائح والعقول أيضاً .

شخصية الادب المغربى

لئن كان للمغرب الاقصى شخصية ثابتة واستقلال ذاتى فى عاداته وتقاليده فلا يدهشنا أن يكون له أدب ذو شخصية ثابتة واستقلال ذاتى كذلك . ومادام الأدب صورة للمجتمع ولما فى الحياة التى يحياها أهل ذلك المجتمع ؛ وما دامت هذه الحياة تختلف باختلاف المؤثرات فيها من عوامل البيئة والوراثة ، فانه من المحتمل جداً بل من المتعين أن يكون لكل مجتمع أدبه الذى يكون مستقلا بقدر ماتسمح به طبيعة ذلك المجتمع التى تطبعه بطابع خاص ، وتصبغه بصبغة ملائمة لحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يغرب عن البال أن المغرب منذ وطئت ثراه قدما المولى ادريس بن عبدالله سنة ١٧٢ هـ ظل مستقلا عن المشرق سياسيا حقبا طويلة من الزمن فنشأت به وازدهرت دول عظيمة الشأن فى التاريخ السياسى للمغرب الاقصى فلا عجب إذن أن يستقل عنه أدبيا ، ولا عجب أيضا أن يكون لفنون القول سياسة كما كانت لامور الدولة سياسة وللسياسة كما لا يخفى تأثيرها البالغ فى احياء الادب وتوجيهه وصبغه بالصبغة التى تلائمها فى كثير من الاحيان واذا عرفنا ذلك عرفنا (أن المبدأ الذى يقول : بأن الأدب للأدب ، قلما يتحقق لكل الناس وفى كل حين . وعلى كل حال فهو مبدأ ينبغى أن يعمل الناس على تحقيقه فى أى وقت كان)

لقد اختلفت الأذواق ولا زالت تختلف فى معرفة البلاغة التى هى مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ومادامت هذه الأحوال تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار فلا شك أن بلاغة أهل المغرب — كما يقول ابن خلدون — غير بلاغة أهل المشرق وبلاغة الاندلس غير هاتين ، لأن عربية المغرب متأثرة بالبربرية (لغة السكان الاصليين) وعربية المشرق متأثرة أيضاً بالفارسية والتركية وعربية الاندلس متأثرة كذلك بلغة الفرنجة والجلالقة (الاسبان) . فمعرفة أية بلاغة من هذه لاتحصل إلا لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، إذ أن كل واحد مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته ،

وهنا أرى نفسى مضطرا للرد على صاحبى كتاب : المطرب فى أدب الاندلس والمغرب ، فقد تجنيا على الادب المغربى وحكما عليه حكما لا يوافق حقائق الامور .

إن هذا الحكم ناشىء من أنهما لم يحسنا الاطلاع على فوائد هذا الادب والغوص وراء لآلئه ودرره . وهذا يحصل كثيرا من أدبائنا الذين ألفوا الحكم على الاشياء قبل معرفتها وتجاهلوا أن الحكم على الشيء فرع دراسته الدراسة العميقة ، وأن البحث العلمى الدقيق يجب أن يتحرى الحقائق وأن يضع الامور فى نصابها لا أن ينظر بعين السخط فيجعل من القبة حبة ، أو بعين الرضا فيجعل من الحبة قبة كما يقولون .

كما أن حكمهما أيضا قد يكون ناشئا من قياسهما المخطىء قياس الشعر الجيد الرصين على ذلك الشعر العامى الذى قرأاه فى مقدمة ابن خلدون وغيرها ، الشعر الذى ينبغى أن نعده شاهدا لا على ضعف الملكة الشعرية هناك ، بل على أن هناك نوعا جديدا من الشعر العامى الاجتماعى نبت وترعرع فى أصيص واحد مع الشعر العربى الفصيح . على أن هذا الشعر العامى — كالفصيح — يختلف من مكان الى مكان ، فبلاغته لا يمكن أن تدرك إلا لمن خالط لغة المكان وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها كما تقدم . إذن لا يمكن أن نصغى أو نتقبل حكم صاحبينا فى هذه الناحية ، إلا اذا تقبلنا حكم أجنبى عن مصر (لا يحسن عاميتها) فى ديوان الاستاذ بيرم التونسى مثلا أو مجلة من مجلات الفكاهة المصرية .

ولعل هذا لم يخرج بنا عن الموضوع مادمنا بصدد الحكم على أن الآداب مستقلة بعضها عن بعض نوعا ما من الاستقلال ، وأن بلاغة هذه الآداب تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان

مميزات هذا الأدب

لا بد لى لكى أعطى صورة صادقة عن هذا الادب المغربى — من أن أجمل مميزاته فى ميزتين اثنتين أستطيع الدعوى بأنهما كافية فى اعطاء هذه الصورة واذا كان لكل دعوى دليل فدليلى الذى أقدمه بين يدى القارىء الكريم هو أن يصغى أو يتأمل ما يأتى : —

(١) السهولة : يمتاز الادب المغربى بأنه سهل فى لفظه ومعناه ، أسلوبه وخياله ، تعبيره وتفكيره ، ليست فيه تلك الصعوبة التى قد تضر بضروب الآداب وألوانه أكثر مما تنفع .

إن للتفكير مجاله فى الحقيقة والخيال ، وللتعبير مجاله كذلك ، ومادامت الحقيقة

ثابتة واضحة ، ومادام الخيال توأما لها فالمنتظر أن الأدب سيكون على جانب عظيم من السهولة فى التفكير الذى يخامر الرءوس ، وفى التعبير عما يجول بالنفوس ، وما ذلك إلا لأن مصادر الوحى والالهام من طبيعة وبيئة وحياة سهلة كذلك

ومما يزيد الطبيعة وضوحا تميز الفصول السنوية بعضها عن بعض ، فلكل أوانه وموسمه إلا أن الأدب له فى كل موسم موسم

فللشتاء الذى هو موسم المطر أوانه الذى يجتمع فيه المحبان فى ظلال بنت العنب (الخمر) وزقزقة العصافير تلك هى الصورة السحرية التى يصورها لنا ابن الطيب العلمى مؤلف الانيس المطرب :

أقول للمحبوب فى روضة والطل يسعى والثرى يشرب
زوج لبنت الكرم ابن السما فالطير فى منبره يخطب

وللربيع أوانه الذى يقترن فيه ركوب الخيل بركوب الازهار على قصبان الاشجار ، وتشدو فيه الطير فوق الغصون فتهتز هذه بدورها وكأنها ترقص على تغريدها تلك هى الصورة الجميلة التى تخيلها القاضى ابن زنباع فأداها ببعض أبيات من قصيدة يصف بها الربيع خير اداء :

أعريت خيلك صيفها وخريفها وشتاءها ، هـذا أوان ركوبها
أو ماترى الازهار مامن زهرة الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها تلقى فنون الشدو فى أسـلوبها
تشدو وتهـتز الغصون كأنما حركاتها رقص على تطريبهـا

إلى غير ذلك مما لاأريد الاطالة به فى هذا الموطن .

فهذا الشعب الذى طبيعته فى أساسها غير عربية . والذى عربيته ليست أصيلة فيه ، لاينتظر منه التقعر فى اللفظ والتعمق فى المعنى ، ذلك التقعر والتعمق الذى قد يزرى بالآداب حين ارادة الحكم لها أو عليها وحين عقد الموازنة بين بعضها وبعض .

وانما المنتظر أن تكون لهذا الادب رقة كتلك التى نراها فى الرياض والازهار والاطيار ، وسلاسة كسلاسة المياه المنصبة خلال الجداول والانهار وجزالة كتلك التى تحكيها الجبال الراسيات ويمثلها البحر فى هيجانه وموجانه ... إلى غير ذلك

من فنون القول وصنوف المقول فيه مما يصور الطبيعة والبيئة والحياة ، ويعبر عنها أصدق تعبير . وهذا غاية ما نرجوه من أدب شعب عرف طبيعته فاستطاع أن يعبر عنها واستطاع أن يحسن ذلك التعبير .

(٢) الصدق : ويتجلى صدق هذا الادب فى أنه يتحرى الحقيقة على الخيال ، بل ربما كان خياله فى الواقع حقيقة ، لأنه يسبل عليه ثوبا من الصدق يصير به كأنه من الحقيقة فى الصميم . وهل الخيال إلا صورة صادقة للحقيقة تنعكس على مرآة العقل الصقيلة فلا نلبث أن ندرك الصلة بين الصورتين ، وأنها صلة قربى وشيجة . مثل الحقيقة والخيال فى هذا مثل من يقف أمام المرآة .... لايلبث أن يوحد بين صورتيه : الحقيقة والتى يراها أمامه ، ثم لايلبث أن يدرك الفرق وكأنه لافرق .

إن هذا الادب معبر عن البيئة التى نبت فيها لانه يغنى ويشدو بطبيعة قدلانحصل عليها فى أى بلد من البلاد . فهذا البلد الذى يحب الفروسية من قديم الزمن ، نجد حبه لها لايدانيه الاحبه للأدب الذى يستطيع الاديب أن يجمع بينه وبين الفروسية فى حلبة واحدة ويقارن بين الاثنين فيعطينا صورة هى - بلابرهان - من صور المغرب الاقصى .

يجب على الاديب قبل التعبير والتصوير أن يقف أمام المنظر ، بل يجب عليه أن يطوف حوله وبين جنباته طويلا حتى يعطينا صورة حقيقية كالتى رآها وانطبعت بها نفسه . ولا جدال فى أن تصوير من رأى وجرب غير تصوير من سمع وقلد ، وأن تصوير ما انطبع فى النفس وتأثرت به غير ذلك الذى يعتمد على غيره

فها هوذا القاضى عياض ، قد رأى منظرا طبيعيا يتمثل فى خامات زرع بينها شقائق نعمان هبت عليها رياح ، فأخذ يصور ذلك بصورة يكفى أن يقال فيها : انه الخيال الذى يتفق والحقيقة : —

أنظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

ويتجلى صدقه أيضا فى وصف الطبيعة المغربية الخاصة ، ووصف حياة المغاربة الممتازة عن غيرها . فهو مصور لها فى سرائها وضرائها : فنى السراء يعبر بالتغريد

فى جنات الارض وبالتحليق فى أجواز السماء ، وفى الضراء يعبر بالنوح والشجن باديا عليه الالتجاء والرجوع الى الله وهو اذا لم يجد وسيلة للتعبير فى تلك الايام السود عن تلك المحن والدواهى ، فقد يكون وقوفه عن السير والتقدم ضربا من هذا التعبير الصادق ، وهل الاضراب عن العمل فى الوقت الحاضر ، إلا وسيلة صادقة للتعبير عما يجول بالخواطر ؟

إن احكام التفكير واتقان التعبير ينتجان حسن الاداء ، وهو الادب الحى الذى لا يموت

عصور ادبنا المغربى

لقد جرت عادة المؤرخين والأدباء ، أن يقسموا العصور على حسب الانقلابات السياسية والحركات الهائلة التى تمر بالشعب فى حياته التى يحياها . وإذا كان المؤرخون محقين فى هذا التقسيم فى معظم الأحيان ، فان الادباء قد لا يكونون كذلك فى بعض الأحيان . فليس للأدب عمر خاص ينتهى بانتهاء أجله كالانسان ، وليس له حياة تابعة لغيره فيحيا بحياة الدولة ويموت بموتها . وانما هو فى طريقه يواصل السير مادام لا تصدمه عقبات فى تاريخ الدولة الجديدة .

وعلى هذا الأساس الذى لا يعتبر الانقلابات السياسية فروقا أساسية بين بعض العهود وبعض ، سندمج عهد دولة بنى أبى العافية ودولة مغراوة وبنى يغرن فى عهد الادارسة الذى استغرق زمنا أطول مما استغرقته الدولتان اللتان تلتاه ، والذى كان عرق الادب فيه ينبض بماء الحياة ، كما سندمج عهد المرابطين فى عهد الموحدين ، وعهد بنى وطاس فى عهد بنى مرين[1] . وهناك عصران مستقلان قائمان بذاتهما هما : عصر السعديين وعصر العلويين . فتكون عصور الادب على هذا خمسة ، سنفرد كل عصر منها بكلمة تبين حال الأدب فيه بوجه عام :

---

(١) عهد الادارسة : (١٧٢ ـ ٣١٣ هجرية) آل أبى العافية : (٣١٣ ـ ٣١٢) المغراوة وبنى يغرن : (٣٦٢ـ٤٠٠) المرابطين : ٤٠٠ـ٥٦٤)الموحدين : (٥١٤ـ٣٦٢) مرينيين : (٦١٠ ـ ٨٧٦) الوطاسيين : (٨٧٦ ـ ٩١٥) .

(ا) عصر الأدارسة بما فيه عهد الدولتين التاليتين (١٧٢ — ٤٠٠ هـ) :

إن المولى إدريس بن عبد الله هو أول من استقل بالمغرب، عن الخلافة العباسية بالمشرق، فأسس هناك أول دولة عربية . وان مالاقاه من ضروب التكريم والمؤازرة، جعله يصلح من المغرب وأهله . وجعله يستولى على المغرب الاوسط من أول سنة ؛ بما قضى على هرون الرشيد بالخوف من بسط يد هذه الدولة الفتية على ما كان تحت ظل الخلافة العباسية، فأنفذ له من قضى على حياته بالحيلة والسم الناقع

إن خبر هذه الدولة مسجل على صفحات التاريخ بماء الفخار، فليرجع اليه من شاء التوسع، وانما نريد الوصول هنا الى القول بأن حركة الفتوح هذه التى قام بها ادريس وابنه الاصغر من بعده (١٨٨ — ٢١٣)، لم تكن لتلفت الدولة عنها الى الناحية الادبية وانما كان همها توطيد مركزها أولا وقبل كل شيء .

ثم ان حدوث الفتنة بين أبناء ادريس الاصغر، وتقسيمهم المغرب إلى مناطق حكم بينهم حسب اقتراح جدتهم السيدة كنزة، كل هذا مهد السبيل إلى قيام دولة آل أبى العافية الجديدة على أنقاض الدولة الادريسية، بعد حروب استمرت بين الطرفين، وظل فى بعضها الحسن (٣١٠ — ٣١٣) (من أسباط المولى ادريس) يطعن فرسان هذه الدولة فى المحاجم الواحد تلو الآخر حتى لقب « بالحجام » كما يقول الشاعر :

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لطعن فى مكان المحاجم

وظل موسى ابن أبى العافية مؤسس الدولة الجديدة (٣١٣ — ٣٤١) يطارد الادارسة حتى طردهم من فاس (عاصمتهم الرئيسية) فالتجأوا الى بنى عمهم بالريف فيما يعرف بقلعة حجر النسر، ولكن هذا الطاغية حاصرهم أيضا هناك وأراد استئصالهم لولا أن أكابر دولته لم يوافقوه على قطع دابر أهل البيت من المغرب فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس مقر حكمه . ثم ما لبثت دولة رنانة من مغراوة وبنى يفرن أن تظهر فى أفق المغرب حتى عج هذا الافق بدخان الحروب والفتن الداخلية الطاحنة .

وما نريد فى هذه العجالة احصاء الفتن والاضطرابات التى حصلت بين الدول

الثلاث المتعاقبة ، وانما نزيد اضافة أنه طوال وجود الدولة الفاطمية (التى ظهرت سنة ٢٩٧ هـ أواخر القرن الثانى الهجرى) بافريقية (تونس) والنزاع قائم بينها وبين الدولة الاموية بالاندلس على المغرب الاقصى .

هذا هو العصر الاول الزاهر لا بفنون الآداب ولكن بفنون الحرب والقتال فما عسى أن يكون مركز الادب فيه . بل ماذا ينتظر من أمة هذا شأنها فى التقلب والانقسام على نفسها . وفى التشوق للحكم على أيد مختلفة ! لاينتظر منها بالطبع أن تبرز فى الاداب والعلوم والفنون بقدر ما برزت فى فنون الطعان وعلومه وآدابه ان كانت للطعان آداب .

إن هذا العصر مبكر بالنسبة لاولئك البربر (السكان الاصليين) الذين لم يتغلغل فيهم الروح العربى ، ولا الثقافة العربية كل التغلغل . صحيح أنهم تقبلوا الاسلام بصدر رحب ، يوم أشربوا فى قلوبهم بشاشته التى خالطت منهم اللحم والدم ، فكانوا أول سلاح لنشر دين التوحيد فى ربوع الاندلس . ولكنهم سرعان ما رجعوا الى أنفسهم فظلوا ينقبون بين خفاياها كى يجدوا لها منفذا الى الحكم ومباشرة السلطه الزمنيـة ، ان لم يكن فى ظل دولة حالية . ففى ظل دولة جديدة يسعون فى انشائها ، مادام لهم الحق فى هذا بصفتهم أعضاء فى هذا المجتمع الإسلامى الجديد . ان هذه الحروب والفتن لاتشغل الادباء عن التفكير والانتاج فحسب ، ولكـنها قد تقضى عليهم القضاء المبرم

وعامل آخر من العوامل التى ساعدت على خمود الأدب فى هذا العصر ، هو أن عدد العرب كان به قليلا نسبيا لايكاد يؤثر فى العقلية البربرية السائدة . إن البلاد كانت فى حاجة ملحة الى رسل الثقافة العربية ينشرون لواءها فوق هذه الاراضى الممتدة فى مدة أقل وبصفة أسرع . ولكن امداد هذه البلاد بالمهاجرين العرب وبرسل الثقافة العربية ، لم يكن متوافرا ؛ ذلك لان خط السير للهجرة كان متجها غالبا الى الاندلس المزدهرة ، ولان الانسجام التام لم يكن قد حصل بعد بين هذين القطرين الشقيقين .

ويجب ألا ننسى ذلك الثغر الجميل (سبتة) الذى ظل يحمل مشعل الثقافة

العربية فى حين كان المغرب جله فى ظلام دامس .

ولم نقل كله لأننا استثنينا القاعدة الادريسية (فاس) فالراية الأدبية فيها ظلت تخفق فى زميلتها (سبتة) .

إن موقع سبتة على البحر المتوسط (الرومى) وقربها من العدوة الاندلسية جعلها محطاً لرحال كثير من الأدباء والعلماء أولا ، وسوقا رائجة للأدب والعلم ثانيا . ولو لم تكن حركة هاتين المدينتين الادبية مقصورة عليهما بالذات نظرا للحروب والفتن الداخلية ، لكانت هناك وجهة نظر أخرى فى الحكم على أدب هذا العصر وهو أنه لايسر الناظرين إن لم يكن يحزنهم ؛ ولكن الذى يخفف وقع هذا الحكم على النفس هو أنه منصب على المجموع لا الجميع .

(ب) عصر الموحدين بما فيه عهد المرابطين (٤٠٠ — ٦١٠)

أما وقد حكمنا على العصر المتقدم بالانحطاط النسبى فلا غرابة فى أننا سنضطر الى فترة انتقال بين عصر الخمود وعصر الحركة ، ولا غرابة أيضا فى أن تكون هذه الفترة هى مدة حكم المرابطين .

وهى وان كانت طويلة إلا أنها كافية فى بعث الأمن والطمأنينة فى أرجاء البلاد وفى ايقاظ الروح الأدبى والعلمى فيها .

ولكى يرقى أدب هذا العصر فانه اتخذ سلما ومتكأ يصل به الى مايبغيه من درجات الكمال والرقى . هذا السلم أوالمتكأ هو الأدب الاندلسى ؛ فلقد تأثر الأدب فى عهد المرابطين ، بالأدب الاندلسى تأثرا شديدا ، كما تأثر أدباء هذا العهد بأدباء الاندلس أيضا . ذلك لأن الاتصال بين الطرفين كان قائما ، ولأن الحركة الأدبية بالأندلس كانت مزدهرة تؤتى أكلها كل حين .

ان الشعور بالنقص لهو الشعور بالواجب فلا عجب أن يكون التقليد والمحاكاة هى الخطوة الاولى فى سبيل اداء هذا الواجب . وهى خطوة طبيعية يخطوها كل من آمن بوجوب مسايرة الزمن وأهله ، إن لم يكن فى مقدمة القافلة ففى وسطها على الأقل

ومما دعا الى اتباع هذه الخطة خطة التأثر بالادب الاندلسى — زيادة على الاتصال المباشر — ماكان يغلب على الدولة المرابطية من صبغتها الدينية . ونحن نعلم أن نهضة عبدالله بن ياسين من رؤساء هذه الدولة كانت دينية محضة أساسها

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى الله حق جهاده ، نعلم ذلك من نفس التسمية التى كان سببها مرابطة عبدالله مع أصحابه الثمانية فى جزيرة يعبدون الله فيها بعد أن كاد يأس من اتباعه فى غيرها فكانت هذه المرابطة خير دعاية لجلب الناس واستمالتهم فكان النجاح فى المهمة وكانت الدولة ولقد تعب الناس فى محاولة معرفة السبب الذى من أجله دعوا بالملثمين أيضا الى أن أتى الشاعر فعبر عن الحقيقة الواقعة أو أنه هدى الناس إليها إذ قال :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وما دامت الدولة مصبوغة بالصبغة الدينية فلا غرابة فى أن تصطبغ بها النهضة أيضا ، ولاغرابة كذلك فى أن تقرب الدولة العلماء والفقهاء على غير علم من الأدباء والشعراء ، وذلك على الرغم مما جادت به قرائح هؤلاء من مدائح راحت ضحية فى سبيل العلم .

هذه الروح الدينية لم تكن متعمقة ذلك التعمق الذى تنشأ عنه الخلافات المذهبية والآراء المتضاربة التى كانت سببا من الاسباب التى فرقت شمل الوحدة الاسلامية بالمشرق ، وانما كانت يسيرة يسر الاسلام ومبادئه ، ومشبعة بروح السلف الصالح وذلك قبل أن يتألق — فى آخر هذه الدولة — نجم جديد كان فيما بعد مؤسس دولة الموحدين ؛ ونعنى به محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

ذلك النجم الذى كان شروقه بالمشرق وأبى غروبه بالمغرب قبل أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل ، فلقد طاف بالبلاد الاسلامية الشرقية ولقى تقديراً من رجالها أمثال أبى حامد الغزالى وقدم منها مزوداً بمعارف جديدة ، وبطريقة الاشعرى فى تفسير القرآن ، تلك الطريقة التى لم يرو فيها حرفا واحداً عن المفسرين وانما اعتمد على ما كان يختلج به صدره ، فلم يكن بالمغرب الاسلفيون يمرون بالمتشابهات مرور الكرام ، إلى أن أتى (المهدى) فحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الاشعرية .

وكان المهدى — رغم بربريته التى كان يؤلف بها — فصيحا لسنا يستميل الجماعات بألفاظه العذبة مما حدا أمير المسلمين على بن يوسف بن باشتين ٥٠٠ ٥٣٧

أن يعقد مناظرة بينه وبين علماء حضرته ، فكان يسكتهم جميعا ويخجلهم ولولا اعجاب الامير به غاية الاعجاب لما سلم من أذاه ولاسيما أن وزيره (مالك بن وهيب) حرضه على قتله قائلا : هذا رجل مفسد لاتؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال اليه .

فأمثال هذه المناظرة ان كانت تدل على شيء فانما تدل على أن دولة الادب صارت فى رهان واحد مع دولة الفقه والعلم وبينما نرى فى عهد الدولة المرابطية من يتلبس بلباس الفقهاء كى يصل المناصب العالية ويتولى الوزارة كما حصل من مالك بن وهيب الآنف الذكر ، نرى فى عهد دولة الموحدين من ينهض الى الوزارة على أكتاف الدولة الادبية ، وذلك كابن جعفر بن عطية المتوفى سنة ٥٥٢ الذى كان يصاحب أميره عبدالمؤمن بن على فى غدواته وروحاته ، والذى اتفق مرة أن صاحبه الى بعض بساتين مراكش ، وبينما هما فى طريقهما اذا بوجه جارية يطل من شباك ، وكانه الشمس الضاحية فنظر اليها الامير فأعجبه حسنها فقال ارتجالا :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال ابوجعفر : حوراء ترنو الى العشاق بالمقـــل

فقال عبدالمؤمن : كانما لحظها فى قلب عاشقها

فقال أبوجعفر سيف المؤيد عبد المؤمن بين على

هذا الأديب الذى ندم الامير عليه بعد الايقاع به بسبب ذنب لم يغفره له . فلقد جمع الشعراء وأراد أن يمتحنهم بهجوه فلم يشفوا غليله فقال كلمته الخالدة : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه »

ولعل نظرة الدولة الموحدية إلى الادب نظرة العطف والتشجيع مما ساعد كثيرا على ازدهار الأدب فى هذا العصر ، إذ كان عبدالمؤمن منحة من الزمن وجمع الى حسن سياسته حسن التصرف فى الادب وفنونه . ولقد مدحه محمد بن أبى العباس السمعانى ببيت استعاده منه مرارا وأمره بأن يقتصر عليه قائلا له : لقد قلت فى هذا كل شيء . وأجازه عليه بألف دينار ولعل النفس تتشوف الى هذا البيت :

ماهز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن على

ولقد أورد صاحب المعجب فى وصف احتفاله ببيعة أهل الاندلس له على

ظهر جبل طارق الذى سماه هو «جبل الفتح» ما أورد بعضه قال: وكان يوم عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس مالم يجتمع لملك قبله. واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون فكان أول من أنشده أبو عبدالله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد قال فيها:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشده ابن الشريف المعروف بالطليق المروانى:

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن: إلى أين؟ الى أين؟ رافعا بها صوته فقال الشاعر:

أين المفر وخيل الله فى الطلب؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم فى أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن: بمثل هذا تمدح الخلفاء.

وأنشد ابن سيد الاشبيلى الملقب باللص:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل
انى استقر به؟ انى استقر به؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقال له عبد المؤمن: لقد أثقلتنا يارجل، فأمر به فأجلس.

إلى غير ذلك مما لانزيد به استقصاء وانما مجرد تمثيل فحسب. هذه نظرة هذا الخليفة إلى الادب والأدباء. أما نظرته الى العلم والعلماء، فتتجلى فى أنه أمر فى سنة ٥٥٠ هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة واستنباط الاحكام منها، ثم كتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة. إن النهضة التى حظى بها الفقه فى الدولة المرابطية أنتجت كثرة المحصول مما حدا بأميرنا أن يقوم بحركة التطهير هذه. ولا ريب فى أنه لم يحمله على هذا إلا حبه للبحث والاستطلاع من جديد، ثم حبه لرقى العلم والأدب معاً.

لقد أصبح الأدب المغربى الآن قائما بنفسه بعد ما كان يعتمد على أخيه الاندلسى فى تخطى العقبات التى كانت تعوق سيره واطراده فى النمو بين حين وآخر ولم تكن غضاضة على العقلية المغربية فى هذا ، مادام أغلب الشعب كما تقدم من العنصر البربرى ، وصعب على هؤلاء أن يطفروا أو يصلوا القمة سراعاً فى آداب هى فى الأصل ليست آدابهم ؛ وانما التعلم بالتعليم .

ولقد استطاع الادب المغربى أن ينهض من كبوته التى أصابته من جراء غلبة النهضة العلمية عليه أول الامر ، كما استطاع آخر الامر أن يتسابق فى مضمار واحد مع آداب عصره . فلم يعد يتأثر بأدب الأندلس إلا كتأثره بأدب غير الاندلس . بل الحقيقة أنه لم يبق مجال للتأثر الآن ، لأنه خلفه مجال آخر جديد هو مجال المنافسة الادبية بين القطرين .

عصر المرينيين بما فيه عهد الوطاسيين (٦٠٠ — ٩١٥)

إن ارتباط الأدب بالعلم ونهضتهما معا يجعلان الأدب فى القمة ، ويجعلان الانتاج الادبى فى أعلى درجة من سلم الرقى الفكرى فلا تخاف على مركز الأدب فى هذا العصر المرينى ، بل لانخشى شيئا إذا قلنا أن سنة النشوء والارتقاء (سنة الله فى أرضه) ظلت مطردة لم تقم فى وجهها عقبات تعوقها عن السير والنمو الطبيعى .

ولقد كان التقدم شاملا فى جميع ميادين الادب والعلم ، فحركة التطهير فى الكتب الفرعية فى العصر الموحدى لم تؤت أكلها فى ذلك العصر وحده وفى دائرة العلم المحدودة فحسب ، وانما كانت لها اليد الطولى فى سبيل رقى الأدب فى هذا العصر التالى .

ان الوسط الادبى فى هذا العصر كان على غاية من العلو اشترك فى بنائه جميع الطبقات من السوقة إلى الملوك . ولقد أغرى هذا الوسط الفكرى الراقى كثيرا من ذوى الحيثيات وأرباب الشخصيات الادبية فجعلهم يؤمون حواضر المغرب ومدنه التى لها يد فى تمكين العرش الادبى . وجعل أمثال ابن الاحمر وابن الخطيب وابن خلدون يأوون الى كنف الدولة المرينية ويستظلون بظلها .

إن هذه الدولة عربية الأصل تمت إلى قيس عيلان ، فلا نعجب إذا كانت خدمت المغرب خدمات جليلة فى ظل لواء الاسلام وفى دائرة العروبة المجيدة . ولا نعجب أيضا إذا رأينا الامتزاج والانسجام التام بين العرب والبربر وفناء الجميع فى سبيل المصلحة العامة وفى خدمة الوطن الذى يحبه الجميع .

وان هذه النظرة العربية الاسلامية لتعيد إلى الأذهان ماكان من عز الاسلام ومجده الذى لايفنى . وهذه النظرة يعبر عنها أحسن تعبير الأمير عبد الواحد المرينى بقوله :

فرقت فى الميدان كل مليك وجمعت بين جراءة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالكا كيلا يعيره العدا بسلوك

وهاهو ذا السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ — ٧٥٩) يعطينا صورة عن طريق غير مباشر لما يجب أن يكون عليه أمير المسلمين أو الرئيس اطلاقا :

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج

إن القوة الأدبية لتسير جنباً إلى جنب مع القوة السياسة فى هذا العصر ، فكانت الدولة السياسية على أشد ماتكون قوة وصولة ، وكانت الدولة الأدبية تجاريها فى هذا أيضاً مع العلم بأن صولة الأدب هى ازدهاره وعظمته . وإذا كان الملوك قد اشتركوا فى الحركة الأدبية وفى أعلاء بنيانها ، فلا ندهش إذا ما أنتج لنا الأمير أبو الحسن المرينى مثل هذه الموشحة اللطيفة :

مطلع : فى نغمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لامنى خلافه فظل فى نصحه مليم
دور : دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب
ولاتطل فى المنى عتابى فلست أصغى إلى عتاب
لاترج ردى إلى جواب والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافة واختال فى برده الرقيم ..

وتصل أبياتها الى خمسة وعشرين بيتا عدا المطلع (انظرها فى نفح الطيب ص ٢٢١

ج ١) وفى هذا العصر بدأ تكون الشعر العامى الذى ظن بعضهم أنه كل أدب المغرب أو أنه يعطى صورة حقيقية منه : وهى صورة مهما اعتبرناها صادقة لاتدل إلا على أن الشعب المغربى أراد أن يعبر عن حياته اليومية فراح ينشد الشعر بلغته العامية على منوال الشعر العربى الفصيح فى أوزانه وبحوره وأغراضه .

إن هذا الشعر العامى كان يسير فى ركاب واحد مع زميله الفصيح ، فلقد تعددت مناحيهما وأغراضهما حتى أنهما ليعطيانا صورة حية للحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى فى ذلك العصر .

وكان من فحول هذا اللون من الادب ابن شجاع وهو من أهل تازا ، على ابن المؤذن سلمان ، والكفيف وهو من زرهون .

ومما قال ابن شجاع فى قصيدة وهو يصف حالة اجتماعية خطرة

المال زينة الدنيا وعز النفوس يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم إذا افتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير يكاد يتفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجى من هو فى قومو كبير لمن لاأصل عندو ولا لو خطر

ومن مقطوعة له يصف لنا الحب الخائن :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يافلان لا يلعب الحسن فيك
مامنهم مليح عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطفوا وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويت لو وشت قلبى معو وصيرت من خدى لقدمو نعال

وأما الشاعر الكفيف فلقد ابدع فى مذاهب هذا الفن ، ولقد وصف رحلة السلطان أبى الحسن وبنى مدين إلى افريقية (تونس) يذكر هزيمتهم بالقيروان ويعزيهم بما وقع لغيرهم ، يقول فى مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى

الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام ويسمى براعة الاستهلال .

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها فى كل حين وزمان
إن طعناه عطفهم لنـــا قسرا وان عصيناه عاقب بكل هوان

وهى مقطوعة طويلة جداً تشبه أن تكون ملحمة ، وقد ذكر بعضها فى (المقدمة). وكان هناك نوع من الشعر تشوبه روح الفكاهة ، مما يتفكه به الادباء فى مجالسهم أو يداعب فيه الصديق صديقه . فهاهو مالك بن المرحل يداعب شيخوخته بهذين البين :

ياأيها الشيخ الذى عمره قد زاد عشرا بعد سبعينا
سكرت من أكواس خمر الصبا فحـــدك الدهر ثمـــانينا

ولابى عبد الله المكودى وقد بعث له بعض أخوانه بشراب مذيق أى ممزوج ماء :

بعثت بخمر فيه ماء وإنمـــا بعثت بماء فيه رائحة الخمر
فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر

إن شعراء هذا العصر وأدباءه الكثير يعجز المقام والوقت عن حصرهم ، ولكن لابد لنا من أمثلة من الشعراء ونماذج من شعرهم كى ندعم بها القول فنقول : قد تقدم القول بأن العرش الادبى فى هذا العصر اشترك فى تمكينه جميع الطبقات على السواء . وتقدم كذلك رأى الزجال ابن شجاع فى الحب والهوى ولكنا نرى أن السلطان أبا العباس المرينى يخالفه فى الرأى مخالفة تامة ، وقد لانستطيع لهذا تعليلا اللهم إلا إذا كان هوى السلطان سلطان الهوى :

أما الهوى ياصاحبى فألفته وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لهـــا طرازاً مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا لامرحباً بفراقنا لامرحباً

وبمناسبة ذكر الفراق نورد بيتين لابن هانىء السبتى فى النوى قال موريا :

ماللنوى مدت لغـــير ضرورة ولطالما عهدى بها مقصورة

إن الخليل وإن دعته ضرورة لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

إن سبته بما انتجته من خول الادب لتستحق أن تسمى « بمصنع الأدباء » ولعل الطبيعة قد أعدتها لتكون كذلك . ويكفيها فخراً أن تنجب أمثال مالك بن المرحل الذى يقول فى وصفها :

اخطر على سبتة وانظر الى جمالهـــا تصبو إلى حسنه
كأنها عود غنـــاء وقد ألقى فى البحر على بطنه

ذلك الشاعر الذى قاسى من محبوبه ماجعله يفكر فى رفع الدعوى عليه أمام محاكم الحب ، وماذا كانت تكون النتيجة لو وجدت هناك محاكم للحب حقيقة ؟ الحكم فى هذا للقضاء ! وان كان الظاهر أن حجج المدعى قوية :

شكيت لقاضى الحب ، قلت : أحبتى جفونى وقالوا أنت فى الحب مدعى
وعندى شهود بالصبابة والاسى يزكون دعواى اذا جئت أدعى :
سهادى وشوقى وا كتئابى ولوعتى ووجدى وسقمى واصفرارى وأدمعى
ومن عجب أنى أحن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى
وتبكى دما عينى وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

ولولا ضياع شعر هذا الشاعر الذى اعترف ابن خلدون بشاعريته على تحفظه المعهود فى اصدار أحكامه لعرفنا عنه الشىء الاكثر .

وأقول . ان المغاربة لازالوا مرضى بحب الكتب وملء الخزانات بالمطبوعات والمخطوطات النادرة ، ولو ساعدوا على نشرها لكان الادب المغربى — أولا وبالذات — ملء الافواه والاسماع ، ولكان للنظريات العلمية المغربية — ثانيا — كراسى فى معاهد العلوم الحديثة على اختلافها .

وخلاصة القول أن الادب فى هذا العصر كان مرآة صافية لحياة الشعب ترتسم عليها عواطفه وميوله أكثر منه فى أى وقت مضى . فللحقيقة دون الخيال والوضوح دون التعمق المقام الاول ، كما أن للرقة فى غير ضعف والجزالة فى غير عنف مثل ذلك المقام أيضا .

وليت الامر يقتصر على هذا الحكم العادل فيحتفظ الادب بمركزه ، ولكننا نرى عهد بنى وطاس الذى تلا هذا العهد المرينى والذى أدمجناه فيه وكونا منهما عصرا واحدا ...، نراه عهد فتن وحروب لم يكد المغرب يذوق فيه طعم الراحة والطمأنينة ، ولم يستغرق هذا العهد لحسن الحظ زمنا طويلا ، فلم تلبث العناية الالهية أن أغاثت المغرب بالزعيم الذى أسس الدولة السعدية . فأعاد السلام والأمن الى البلاد ، كما قضى على الفتن والحروب التى كادت تقضى على دولة الادب ،

(د) عصر السعديين (٩١٥ — ١٠٥٠)

ان سنة النشوء والارتقاء كانت تكون مطردة لولا مايعوقها عن هذا الاطراء من حين لآخر . ولولا هذه العوائق لظل الادب مزدهرا سائرا فى طريقه لاشىء يعوقه .

لقد كانت الدولة الوطاسية — كما تقدم — أشغل من ذات النحيين مع أعدائها الداخليين والخارجيين ، فلا بد اذن من أن يشغل الادب والادباء شاغل أيضا وسط هذه الزعازع الهوجاء ، والامواج المتلاطمة ، الى أن يبعث اللطف الا لا هى من يقود سفينة الادب الى شاطىء السلامة أولا ، ثم من يقوم بعمليات اسعاف للأدباء ثانيا حتى يفيقوا من غشيتهم فنطمئن على السفينة وعلى سلامة الركاب .

لقد قدم بمقدم الدولة السعدية الامن والسلام يرفرفان باجنحتهما على ربوع المغرب ، فعاد للادب تبعا لذلك حيويته وقوته ، وعاد يحلق بجناحيه من جديد فى أجواز السماء

ولعل مما يصور لنا الحركة الادبية فى أجلى مظاهرها تلك الخصومة الادبية التى تقوم بين الادباء بين حين وآخر . والتى تكون بين اثنين ثم تتشعب الى ثلاثة فينقسم الرأى العام الادبى حسب هذا التشعب فيتعصب كل فريق الى رأيه ومن ورائه أعوانه وأنصاره . وعلى هذا الاساس قامت خصومة أدبية فى مسألة الهيللة (لا إله إلا الله) وهل الحق سبحانه يدخل فى المنفى بلا؟ وهل تنتفى بها ألوهية الصنم وغيره مما يعبد بغير حق ؟ وقد لا يسمح الوقت ولا المقام بتبيين وجهة نظر كل واحد من أركانها

الثلاثة : الامام الخروبي (٨٩٧ - ٩٥٩) واليستثني (٨٩٧ — ٩٥٩) والهبطي توفي سنة ٩٦٣ ، وإنما يسمح الوقت والمقام بأن نقول . إنها كانت على غاية من العنف والحدة حتى أراد السلطان (الشيخ السعدي ٩٤ - ٩٦٤) أن يتدخل فيعقد مجلسا للمناظرة بين الثلاثة ولكن الهبطي لم يرد الدخول فيها فلم يجد تدخل السلطان فيها شيئا . ولقد تعصب كل لرأيه وألفت في المسألة رسائل ، وظلت موضع نزاع شديد بين الطلبة وعلماء الكلام حتى أتى العصر العلوي فتصدى لها أبو علي اليوسي وألف كتابا قيما اسمه « مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص » ويظهر أن اليوسي كان رائده الاخلاص فكان النصر حليفه في حل الاشكال ومن كلامه في كتابه قوله : واذ قد تعرضنا لكلام هؤلاء الأئمة فلا بد أن نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ماعند كل واحد في كلامه مما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه معطيا أن شاء الله كل ذي حق حقه ومعطيا أيضا الحق حقه فان لحوم العلماء مسمومة والصدع بالحق سنه معلومة ... الخ

وقد يقال إن هذه المناظرة أقرب إلى التوحيد منها إلى الأدب . والجواب على هذا هو أن الأدب لا يعرف الحدود والقيود أو أن الأدب هو الاتساع في العلوم كما يقول ابن قتيبة .

إن عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ — ١٠١٢) (من ملوك هذه الدولة) كان عهداً ذهبيا بالنسبة الى دولة الأدب ، فلقد كان بلاطه طافحا بالعلماء والأدباء من كل صوب وحدب وعلى رأسهم المقرى صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما . ولقد اتفق مرة أن ضم مجلسه ثلاثة أشخاص : مكي ، مدني ، مقدسي ، فقام المكي وقال : يا أمير المؤمنين ! إن المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال قد شد أهلها اليك الرحلة وأنشد : —

إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يحمد
فطيبة ومكة أهلهما والمسجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : أنه لم يتفق هذا لملك قصدت إيالته . قال المقرى (راوي الحكاية) :

فتبسم لذلك أيده الله وأجزل لهم العطا ، دأبه بكل وافد عليه من أى بلد كان . لقد كثر عدد النوابغ فى هذا العصر فى ظل هذه الدولة الوريف ، وذلك بفضل تشجيع الدولة للأدب واقبال السلاطين أنفسهم على التأدب . فها هو ذا المنصور وها هو ذا غزله : —

حرام على طرف يراه منام وحل لجسم قد جفاه سقام
وكيف بقلب فى هواه مقلب وأنى له بين الضلوع مقام
فياشادنا يرمى الحشا أنت بالحشا أما لمحل أنت فيه ذمام ؟

وإذا كان الأمر كذلك بأن كان للمنصور سلطتان : أحداهما زمنية والاخرى أدبيه فلا غرو فى أن يشرك معه فى سلطته الزمنية زعيم الادب فى ذلك العصر ونعنى به الوزير عبد العزيز النشتالى (توفى سنة ١٠٣٢) ، ذلك الاديب الذى يقول عنه المنصور نفسه : أنا نفتخر به على ملوك الارض ، ونبارى به لسان الدين بن الخطيب ومنزلة ابن الخطيب غير خافية على أحد فهو إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع كما يصفه ابن خلدون بالحرف الواحد . وأما منزلة النشتالى فاذا تركنا شهادة المنصور جانبا وأقبلنا على هذين البيتين فقط من شعره استخلصنا منهما حكما يتفق ومكانته العالية فى رقة الاحساس وجودة النسيب :

حين أزمعت عند خوف البعاد وعدتنى من الفراق العوادى
قال صحبى وقد أطلت التفاتى أى شىء تركت قلت فؤادى

ولقد كان من دواعى القول تلك المناسبات (من حفلات ومواسم وأعياد) التى كانت تقام فتكون غذاء صحيا لفنون النظم والنثر . ومن هذه الاعياد التى بدأت بالمغرب وتكررت ولازالت الى الآن عيد المولد النبوى . ذلك العيد الذى كانت تتكرر به المباريات الشعرية بتكرر السنوات ، ومن هذه القصائد قصيدة لصاحبنا النشتالى وهى تربو على المائة بيت يقول فى مطلعها :

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى

إلى أن يتخلص من مدح النبى صلى الله عليه وسلم الى مدح المنصور ثم يختتمها بقوله :

وهاتيك أبكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسنا أن يقال شبيهها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدين تحميه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقادلك الأموال في زي عبدان

ثم ها هي ذي صحة المنصور وقد انحرفت قليلا فتنحرف لذلك صحة العالم ولكن رب العالم شاء أن يبل عالمه من علته بمجرد إبلال المنصور من مرضه ، ذلك هو ما يعبر عنه النابغة الهوزلي :

تردى أذى من سقمك البر والبحر وضجت بشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى عليك مسهدا وأصبح مذعورا الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة يهنا ويدعو أن يطول لك العمر

الى أن يقول .

بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ويحميك رب العرش مابقى الدهر

هذه هي الناحية السياسية للمنصور نلتمسها في تضاعيف الكتب وقصائد الشعراء وأما الناحية الادبية له فقد نلتمسها في اختراعه أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه ، فاذا سقط الكتاب أو وقع في يد عدو أو غيره لا يدري مافيه وهذا نموذج طيب ربما كان هو الاصل لحروف الشفرة ، المستعملة الآن . ولقد كان المنصور يتقن الخط المشرقي بازاء اتقانه الخط المغربي ، وحدث أن كتب بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتب سره أبي عبدالله بن عيسى يستدعي منه كتابا فبعثه اليه بن عيسى ومعه هذان البيتان

شقت كئوس السرور دهاقا خطوط اتتني في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحرا فجاءت اليه من المشرق

وكاتبه هذا هو مؤلف « الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور »، قال المقرى : وهذه التسمية وحدها مطربة .

وكذلك عرف المنصور الرساله الادبية وقدرها حق قدرها ليس فقط فى حدود الدولة التى يرأسها وانما تعدى ذلك فالتفت الى الاقطار الشقيقة الاخرى والى توثيق الصلات الادبية بين بعضها وبعض وبين أدبائها الذين هم مصباح الهدى والوئام فى كل العصور

فلقد استجاز المنصور أدباء مصر الشقيقة فى ذلك العهد فأجازه الامام محمد بن أبى الحسن البكرى بفصول فى النثر يعجبنى منها قوله فى ختامها وقد أدرك غرض المنصور من توثيق العلاقات الادبية على الدوام . « فمولانا مجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العبد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عن أهل الامر ، وكذلك مجاز أهل العصر أجازة عام بعام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه السبب فى تحصيل ذلك المرام (وهى مؤرخة : ١٤ /٤/ ٩٩٢ هـ)

وكذلك أجازة العلامة بدر الدين القرافى صاحب ذيل الديباج وغيرهما من الادباء والعلماء الاجلاء .

وأن ازدهار هذا العصر كالذى قبله وبعده فى مختلف فنون الادب والعلم لتجعل الباحث فى حيرة وارتباك لانه لايدرى ما يأتى وما يدع . ويجب ألا ننسى عاملا مهما من عوامل ازدهار الادب فى هذا العصر ، هذا العامل هو الزاوية الدلائية التى أخذت بضبع الادب آخر هذا العصر ، فلقد كانت حصنا حصينا للادب والعلم وأخذت على عاتقها أن تنشر العلم وتؤدى طلبته فتخرج على يديها عدد عظيم من الادباء والعلماء . ولكن هذه الزاوية كانت لها مطامع سياسية اثر انقراض الدولة السعدية فقامت بحروب مع مؤسس الدولة العلوية الشريفة فاضطرته الى تقسيم المغرب بين الزاوية والدولة ، الى أن أتى المولى الرشيد العلوى (١٠٧٥ - ١٠٨٢) فقضى عليها القضاء المبرم كما سيأتى القول فى العصر الثانى

ان هذه الزاوية لتفخر بأنها كانت معقلا من المعاقل الحصينة للعلم والادب فى عهد ما ، وانها لتفخر كذلك بانها ظلت تمد العصر العلوى بزعماء الحركة الادبية زمنا غير يسير ، وذلك رغم انقراضها من هذا الوجود .

(٥) عصر العلويين (١٠٥٠ — ١٣٠٠) :

هذا هو آخر عصور الأدب المغربى التى أردنا الحديث عنها ؛ وهو وان كان يبدأ بقيام الدولة العلوية الحالية ، إلا أن الدراسة الأدبية لهذا العصر ستقف عند آخر القرن الثالث عشر الهجرى ولن تتعداه إلى اليوم . وماذلك إلا لأن مراجع البحث فى هذه الفترة معدومة بسبب الظروف الحاضرة ، على أنه قد تواتينى فرصة أتمكن فيها من المراجع ومن الكتابة إن شاء الله .

أما فيما يتعلق بحياة الأدب فى هذا العصر فانها ظلت تواصل سيرها قدما ، وعلى الرغم من الحوادث التى صدمت الحياة الأدبية فى أول هذا العصر عند القضاء على الزاوية الدلائية ، إلا أنها ظلت منتصرة على طول الخط .

المولى رشيد (١٠٧٥ — ١٠٨٢) : إن الرشيد فى قضائه على هذه الزاوية يغفر له فعلته هذه أمران :

(١) خوفه السياسى على دولته الجديدة وعلى وحدة المغرب الذى يجب ألا يتجزأ

(٢) إكرامه لطلبة العلم وأساتذته من أهل هذه الزاوية بعد الايقاع بها . فقد نقلهم جميعا الى العاصمة (فاس) ومن بينهم الاديب والعلامة أبو على الحسن اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ ، ذلك الأديب الذى يقول عن نفسه : لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لفعلت ، والذى رثى زاويته التى تخرج فيها بقصيدة تنيف أبياتها على الخمسين بعد المائة يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن يثمر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وإذا عرفنا أنه بكاها وقال فيها ماقال ، وهو فى أحضان الدولة التى قضت عليها ، عرفنا المقدار الذى كان يتمتع به الأدباء من حرية القول فى ذلك العهد . وذلك هو الأديب الذى يشرح لنا علاقة الزهر بالغيث فى أسلوب ساحر :

ان بين الغمام والزهر الغـــض لرحما قديمة واخاء
بان إلف عن إلفه فتوارى في الثرى ذا وذاك حل السماء
فاذا ما الغمام زارت جنابا ه اذنت فيه بالحبيب اللقاء
ذكرت عهده القديم فحنت عند لقياه فاستهلت بكاء
فترى الزهر بارزا من خبايا ه يحيي الوفود والاصدقاء
بادى البشر والبشاشة جذ لان لبوسا من كل لون رداء
ثملا من شمول شمس الضحى وهـــو على بسط سندس خضراء
راقصا والصبا تهنيه والور ق غوانى القيان تشدو غناء

أما اليوسى العلامة فيكفى أن يقول فيه أبو سالم العياشى (١٠٣٧ – ١٠٨٠هـ) صاحب الرحلة المعروفة :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

المراد القول بأن طلبة العلم ورجاله ظلوا يدرسون ويدرسون العلم والأدب ، وظلوا يكرعون من مناهل الثقافة العذبة ، ويواصلون الدراسة تحت ظل من يناصر العلم والادب ويعاضدهما من ملوك هذه الدولة وأرباب البلاط فيها .

فلنحمد الله على أن الحركة الادبية فى هذا العصر لم تكن أقل نشاطا منها فى أى عصر مضى . وكيف يموت الأدب وهذا الخليفة الرشيد يثيب على بيتين من الشعر قالها فيه شاعر جزائرى فيصله بألفين وخمسمائة أو خمسين ديناراً على رواية أخرى وهذا البيتان هما :

فاض بحر النوال فى كل قطر من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـــر خلاصا فلم يجده فاتا

انظر الى هذا الخيال البديع الذى يجعل من الفقر شخصا يبحث عن خلاصه من الغرق الذى هو نعمة وسلام على البلاد وأهلها ، ونقمة وحرب عوان على الفقر وحده ، ثم تكون النتيجة القضاء عليه قضاء مبرما ... حقا ان من الشعر لحكمة

أم كيف يموت الادب وهذا المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ – ١٢٠٤)

يحتضن الادباء والشعراء ويحبوهم برعايته السامية ، فلقد ألف ابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ أرجوزته الشهيرة بالشمقمقية (لأن أباه كان صاحب نوادر وملح مع السلطان فكناه أبا الشمقمق) التي يقول في مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

والتي يقول عنها صاحب الاستقصاء (١٢٥١ — ١٣١٥) : « إنها من الشعر الفائق ، والنظم البديع الرائق ، أبان منشئها عن باع كبير ، واطلاع غزير ، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها ، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب » (ص ١٢٢ ج ٤)

ولكن ماحيلة الشاعر وقد تعذر عليه الوصول الى السلطان صاحب أبيه ؟ لم يعد في امكانه إلا أن يتحين فرصة خروجه في موكب من مواكبه الفخمة فيصعد على نشز من الارض ويصيح :

ياسيدى سبط النبي أبو الشمقمق أبى

فيعرفه السلطان ويأمر باحضاره الى القصر ، ثم ينشده الشاعر أرجوزته التي تقرب من ثلاثمائة بيت فتقع من المولى الموقع الحسن فيجزل صلته ويرفع منزلته

لقد تعددت الفنون الشعرية والاغراض الادبية بتعدد الادباء . وانتاج كل أديب ، ومن العسير أن أعطى في هذه العجالة صورة من كل غرض ، وانما حسبي أن أتخذ نموذجا يقاس عليه غيره . وليكن هذا النموذج في ميدان الغزل والنسيب ذلك الميدان « الطبيعي » للانسان ، والذي يصدر فيه كل شاعر على حسب سجيته ووفق هواه . ولاقتطع شيئا من قصيدة الوزير محمد ابن ادريس المتوفى سنة ١٢٦٤ التي تذكرك بموسيقى عبد الوهاب وغنائه وتنسيك نفسك التي قد تكون مثقلة بهموم الحياة :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر وبحسن قد كالقضيب الزاهر
وبغرة كالفجر تحت ذوائب كدجنة فأعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية في وجنة وردية ذات الأريج العاطر

وبريقها المعسول الا أنه يشفى الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز على من نيل المنى وألذ من رشف الرحيق لخاطرى الخ

وهذه قطعة خالدة للأديب أبى عبد الله الشرقى صاحب العلمى مؤلف «الانيس المطرب»:

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها
وخدها أبهج من وردها ونورها ألطف من نورها
وقدها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
العيش والجنة فى وصلها والموت والنيران فى هجرها
عاطيتها راحا مشعشعة كمثل ياقوت على نحرها
راح أراح الأنس فكرى بها من شارة الدنيا ومن شرها
وهى فى مجلس أفراحها كأنها الزباء فى قصرها
لو تسعد الدنيا بزورتها لاصطلح الناس على شكرها

وهى لرقتها تستحق الخلود أيضا تلحينا وغناء.

ومما يتفرع من هذا الموطن «شعر الاشارة» الذى يمت بصلة قربى الى باب الغزل والنسيب. ان التصوف لمن الادب الصميم، فكيف لا يكون المتصوفة من أرباب الادب أيضا وهل هناك فرق بين الادباء والمتصوفة الا أن ليلى الاديب مريضة وليلى المتصوف ممرضة! على أنه قد لا يجدى تمريضها مع صبابته شيئا فيفنى فى هواها وتبقى ليلى وحيدة فى هذا الوجود استمع الى قول السيد الحراق

أتت الدجى كى لا يراها رقيبها ويخلص من شر الوشاة حبيبها
فنم بها اشراق نور جمالها وأخبر عنها اذ تضوع طيبها
فوالله لا يخلو بها غير عاشق رقيق المعانى فى الامور لبيبها
فنى فبدت فى موضع الوصل وحدها ولما يكن شىء هناك يريبها

ولا أريد الاستشهاد كثيرا فان هذا مما يطول بهذا البحث القصير وأرجو الله أن أكون قد أعطيت صورة مصغرة لحياة الادب فى هذا العصر خاصة وفى العصور السابقة له عامة ، كما أرجو أن أكون قد وفقت فى اعطاء هذه الصورة ولو بعض التوفيق ؟

عبد الله محمد العمرانى

فهرس العدد الثانى من السنة الثالثة عشرة من صحيفة دار العلوم

صفحة		
٣	فى رسالة الغفران لابى العلاء .	للاستاذ السباعى بيومى الاستاذ بدار العلوم
١٠	اثر الحضارة العربية فى التربية	للاستاذ عبد الحميد حسن
٢٩	شوق والعلم	للاستاذ محمد احمد الحوفى المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية
٤٣	اسماء بنت ابى بكر	للاستاذ محمد بيلى الفار المفتش بالمعارف
٤٧	فى الادب المغربى	للاستاذ عبد الله محمد العمرانى خريج دار العلوم

(السنة الثانية عشرة)

يولية — سبتمبر ١٩٤٦ — شعبان — شوال ١٣٦٥ العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

ع ١ ح ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب هتانه

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

فى رسالة الغفران لأبى العلاء

بقـــلم

السباعى بيومى الأستاذ بكلية دار العلوم

— ٣ —

ثالثا — مسائلها الأدبيه وسائر معارفها

قد اشتملت رسالة الغفران على كثرة كثيرة من المسائل الأدبية وألوان عدة من المسائل اللغوية والنحوية والعروضية ، وتعدت هذه وتلك إلى معارف أخرى فكان لها بذلك شأن على غير شأنها القصصى ، كشف عما كان لصاحبها من رأى فيما به صرح أو اليه أشار ، وهذه بعض أمثلة لما ذكرنا : —

المسائل الأدبية

١ — فمن مسائلها الأدبية — وقد رأينا أن يكون الأول هنا وان لم يكن الأول هناك — عقيدته فى صناعة الأدب وأنها صناعة فقر وفاقة وانها كثيرا ما تودى بصاحبها وقد كشف عن هذه العقيدة على لسان إبليس حين قال لشيخ الرسالة ابن القارح ، من الرجل ؟ قال أنا على بن منصور من أهل حلب كانت صناعتى الأدب ، أتقرب به الى الملوك ، فقال « بئس الصناعة إنها تهب غفة من العيش لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة القدم ، وكم أهلكت مثلك فهنيئا لك اذ نجوت »

٢ — ومنها تكذيبه على لسان امرىء القيس ما نسبه اليه المحدثون من التسميط فى الشعر حين قال له أخبرنى عن التسميط المنسوب اليك ، أصحيح هو عنك ، ثم أنشده بعض ما يرويه الناس وهو :

ياقوم ان الهوى إذا أصاب الفتى
فى القلب ثم ارتقى فهو بعض القوى
فقـــد هوى الرجل

فيقول والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمنى وأساء إلى ، أبعد كلمتى التى أولها

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقصيدتى التى مطلعها :

خليلى مرا على أم جندب لأقضى حاجات الفؤاد المعذب

يقال لى مثل ذلك ، والرجز من أضعف الشعر وهذا الوزن من أضعف الرجز.

٣ — ومنها تبيينه الحقيقة على لسان النابغة فيما نسب اليه بقصيدته فى المتجردة امرأة النعمان إذ يقول له ، يا أبا أمامة انك لحصيف الرأى لبيب فكيف حسن لك لبك أن تقول للنعمان :

زعم الهمام بأن فاها بارد عذب اذا ماذقته قلت ازدد

زعم الهمام ولم أذقه بأنه يشفى ببرد لثاتها المطش الصدى

ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة ، فيقول النابغة ، لقد ظلمنى من عاب على ولو أنصفنى لعلم أننى احترزت أشد احتراز ، وذلك أن النعمان كان مستهترا بتلك المرأة فأمرنى أن أذكرها فى شعرى ، فأدرت ذلك فى خلدى فقلت ، إن وصفتها وصفا مطلقا جاز أن يكون بغيرها معلقا ، وخشيت أن أذكر اسمها فى النظم ، فلا يكون ذلك موافقا للملك لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ، فرأيت أن أسند الصفة اليه فأقول ، زعم الهمام اذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتى على المشاهدة ، والأبيات التى جاءت بعد داخلة فى وصف الهمام ، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل ، فيقول الشيخ إننا ننشد واذا لمست على الخطاب فيقول النابغة الأجود أن تجعلوه إخبارا عن المتكلم وهو الهمام لأن قولى زعم الهمام يؤدى معنى قال الهمام ، اذ كان الملك انما يحكى عن نفسه ، واذا جعلتموه على الخطاب قبح ، لأنكم ان نسبتموه إلى فهى مندية ، واذا نسبتموه الى النعمان فهو ازدراء وتنقص ، فيقول الشيخ لله درك يا كوكب بنى مرة ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة وكيف لى بأبوى عمرو المازنى والشيبانى وابى عبيدة وعبد الملك وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون ، وانت شاهد لتعلم أنى غير المتخرص ولا الولاغ ، فلا يقر هذا القول فى حذنة

أبى أمامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم ولا كلفة فى ذلك أصابتهم ، فيسلمون بلطف ورفق .

٤ — ومنها نفيه قصيدة نسبها الرواة الى النابغة خطأ حين يقول له بعد هذا الذى تقدم ، مضى الكلام فى هذا يا أبا أمامة فأنشدنى كلمتك التى أولها

ألما على المعطورة المتأبده أقامت بها فى المربع المتجرده
مضمخة بالمسك مخضوبة الشوى بدر وياقوت لها متقلده
كأن ثناياها وما ذقت طعمها مجاجة نحل من كميت مبرده
ليقرر بها النعمان عينا فانها له نعمة فى كل يوم مجددة

فيقول أبو أمامة ما أذكر أنى سلكت هذا القرى قط ، فيقول الشيخ إن ذلك لعجب فمن الذى تطوع فنسبها اليك ، فيقول انها لم تنسب إلى على سبيل التطوع ولكن على معنى الغلط والتوهم ، واعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد . فيقول نابغة بنى جعدة إن ذلك الرجل صحبنى وهو شاب فى الجاهلية ونحن نريد الحيرة ، فأنشدنى هذه القصيدة لنفسه ، وصادف قدومه شكاة من النعمان فلم يصل بها اليه ، فيقول نابغة بنى ذبيان ما أجدر ذلك أن يكون .

٥ — ومنها — وكان من عادته أن يتهرب من الاجابة إذا كان الموضوع ذا خلاف لم يجرم فيه برأى دون رأى — قوله لأوس بن حجر يا أوس ان أصحابك لايجيبون السائل فهل عندك من جواب فانى أريد أن أسألك عن هذا البيت

وقارفت وهى لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمى سفسير

فانه فى قصيدتك التى أولها « هل عاجل من متاع الحى منظور » ويروى فى قصيدة النابغة التى أولها « ودع أمامة والتوديع تعذير » وكلا كما معدود فى الفحول ، فعلى أى شىء يحمل ذلك ، فيقول أوس قد بلغنى أن نابغة بنى ذبيان فى الجنة فاسأله عما بدا لك فلعله يخبرك فانه أجدر أن يعى هذه الأشياء ، فاما أنا فقد ذهلت ، نار توقد وبنان يعقد . ومع هذه الاحالة فى الاجابة لم يسأل الشيخ النابغة لأن الخلاف كما ذكرت ليس فيه راجح على مرجوح .

٦ — ومنها تصحيح نسبة بيتين فى معلقة عمرو بن كلثوم إلى صاحبها الحق عمرو

ابن عدى على لسان جارية غنت جماعة فاعجبوا من احسانها واصابتها ، فقالت لهم أتدرون من أنا قالوا لا فقالت أنا أم عمرو التى يقول فيها القائل :

تصد الـكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فيزدادون بها عجبا ولها إكراما ويقولون ، لمن هذا الشعر ، ألعمرو بن كلثوم التغلبى أم لعمرو بن عدى اللخمى فتقول أنا شهدت ندمانى جذيمة مالكا وعقيلا وصبحتهما الخمر المشعشعة مع عمرو بن عدى فكنت أصرف الكأس عنه فقال هذين البيتين ، ولعل عمرو بن كلثوم حسن بهما كلامه واستزادهما فى أبياته ،

٧ ــ ومنها تخطئة عنترة فى أن متقدمى الشعراء الجاهلين استنفدوا معانى الشعر ، وجزمه أن معين الشعر لم يزل فياضا زاخرا على أيدى المتأخرين ، مع بيان رأيه فى شاعرية أبى تمام ، وذلك حين يقول لعنترة ، إنى إذا ذكرت قولك « هل غادر الشعراء من متردم » لأقول إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ ، فأما الآن فلو سمعت ما قيل بعد مبعث النبى ﷺ لعتبت نفسك على ماقلت ، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس

فلو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

فيقول وما حبيبكم هذا فيقول شاعر ظهر فى الاسلام ، وينشده شيئا من نظمه فيقول أما الأصل فعربى وأما الفرع فنطق به غبى ، وليس هذا المذهب على ماتعرف قبائل العرب ، فيقول الشيخ وهو ضاحك مستبشر إنما ينكر عليه المستعار وقد جاءت العارية فى أشعار كثيرة من المتقدمين إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب

٨ ــ ومنها تكذيبه على لسان مهلهل أنه سمى بذلك لانه أول من هلهل الشعر أى رققه مع ذكره السبب الحق فى هذا على لسانه أيضا حين سأله ، أخبرنى لم سميت مهلهلا فقد قيل إنك سميت بذلك لانك أول من هلهل الشعر ، فأجاب ، إن

الكذب لكثير وإنما كان لى أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبى فتبعه أخى فى زراقة من قومه وقال فى ذلك

لما توقل فى الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا أو صنبلا

فسمى مهلهلا ، فلما هلك شبهت به فقيل لى مهلهل ، وهنا يقول له الشيخ الآن شفيت صدرى بحقيقة اليقين .

٩ — ومنها تكذيبه على لسان آدم صلوات الله عليه ما يذكر فى أولية الشعر العربى منسوبا اليه من قريض حين يقول له ، يا أبانا صلى الله عليك ، قد روى لنا عنك شعر منه قولك

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا واليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعود

فيقول آدم ، إن هذا القول حق وما نطق إلا بعض الحكماء ، ولكنى لم أسمع به حتى الساعة فيقول له لعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فيقول آدم أبيتم إلا عقوقا وأذية ، إنما كنت أتكلم العربية وأنا فى الجنة ، فلما هبطت الارض نسقل لسانى إلا السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت ، ولما ردنى الله سبحانه وتعالى الى الجنة عادت على العربية ، والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة فكيف أقوله ولسانى سريانى ، وأما الجنة فقبل خروجى منها لم أكن أدرى بالموت فيها وبعد رجوعى اليها لا معنى لقولى واليها نعود لأنا معشر أهل الجنة خالدون مخلدون .

١٠ — ومنها عيبه على أبى كبير الهذلى ضيق عطنه . بالقريض حين قال له إنك لمن أعلام هذيل ولكنى لم أوثر قولك

أزهير هل عن شيبة من معدل أم لا سبيل إلى الشباب الاول

فقد قلت فى مطلع أخرى ، أزهير هل عن شيبة من مصرف ، وقلت فى مطلع ثالثة ، أزهير هل عن شيبة من معكم ، وهذا يدل على ضيق عطنك بالقريض ، هلا ابتدأت كل قصيدة بفن . والاصمعى لم يرو لك إلا هذه القصائد الثلاث ، فيعيبا

أبو كبير بالجواب ويقول هاربا منه « إنما كلام أهل سقر ويل وعويل فاذهب لطيتك » .

١١ — ومنها حكمه على الرجز بأنه دون الشعر حين يتصور أبيات أصحابه فى الجنة ليس لها سموق أبيات أصحاب الشعر فيقول ، تبارك العزيز الوهاب لقد صدق الحديث المروى « إن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها » وإن الرجز لمن سفساف القريض ثم يقول مخاطبا الرجاز ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم ، ويعيب على رؤبة وسائر إخوانه كلفهم بالقوافى ذات الحروف النافرة وخلو أراجيزهم من مثل يذكر والفظ يستحسن ، وأنهم إذا خرجوا عن صفة جمل أو فرس أو كلب كانوا غير الراشدين ، فاذا ما احتج رؤبة وأمثاله الرجاز بأنهم كانوا ممن تستشهد الائمة بألفاظهم قال له ، لا فخر لكم فى ذلك فانهم استشهدوا بـــ كلام الاماء والاطفال ، وإن رجزك يارؤبة لوشبك ورجز أبيك ما خرجت منه قصيدة مستحسنة ولقد كنتم تأخذون جوائز الملوك بغير استحقاق ، وهنا يسأل العجاج المحاجزة فينفصـــلان .

١٢ — ومنها - وقد رأينا أن يكون الآخر لهذه المسائل الادبية — تعرضه لبعض الامثال الفرضية يذكر مضاربها بعبارة أدبية رائعة كقوله فى المثل « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » انه جاد على لسان الحية المعروفة بذات الصفا ، الوافية لصاحب ما وفى ، وكانت تنزل معه بواد خصب ، وتصنع اليه الجميل فى ورود الظاهرة والغب ، فلما ثمر بودها ماله ، ذكر عندها ثاره ، ووقف على صخره ، وهم أن ينتقم منها بأخره ، وكان أخوه ممن قتلته فضربها بفاسه ، والحقد يمسك بأنفاسه ، فلما وقيت ضربته ندم على ما صنع أشد الندم وقال لها مخادعا هل لك أن نعود خلين فقالت « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » . هكذا عبر عن مضرب المثل ثم أعقبه بهذه الابيات للنابغة الذبيانى فى نظمه

وأتى لألقى من ذوى الضغن منهم ... وما أصبحت تشكو من البث ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وكانت تريه المال غبا وظاهره
فلما رأى أن ثمـــر الله ماله ... فاصبح مسرورا وسد مفاقره

أكب على فأس يحد غرابها مذكرة بين المعاول باتره
وقام على جحر لها فوق صخرة ليقتلها أو يخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبر عين لاتغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت معاذ الله أفعل اننى رأيتك مسجورا يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى وضربة فأس فوق رأسى فاقره

مسائل لغوية ونحوية وعروضيه

ذاك جل ماورد فى الرسالة من المسائل الأدبية ، أما مسائلها اللغوية والعروضية فهاك من كل بعض الشواهد على سبيل التمثيل .

١ — فمن مسائلها اللغوية ماذكره على لسان شيخها ابن الفارح حين قال لعمرو ابن احمر الباهلى أنشدنى قولك

بان الشباب وأخلف العمر وتغير الاخوان والدهر

فقد اختلف الناس فى تفسير العمر ، فقيل إنك أردت البقاء ، وقيل إنك أردت الواحد من عمور الاستان وهو اللحم الناتئ بينها فقال عمرو متمثلا

خذا وجه هرشى أوقفاها فانه كلا جانبى هرشى لهن طريق

يعنى بتمثله أن كلا التفسيرين صحيح يأخذ به من يشاء . وهرش ثنية فى طريق مكة قريبة منها وكلا جانبيها من وجه وقفا طريق الى مكة قريب .

٢ — ومنها ماذكره على لسانه أيضا وهو يقول لبشار بن برد ، قلت فى بعض قوافى قصيدتك التى مطلعها

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

قلت «والسبد» بضم فسكون ، فان كنت أردت جمع سبد بضم ففتح لطائر فان فعلا لايجمع على فعل ، وإن كنت سكنت الباء بعد فتح فقد أسأت لان تسكين الفتحة غير معروف ، وهنا تلزم بشارا الحجة فيتهرب من الجواب قائلا ، ياهذا دعنى من أباطيلك فانى لمشغول عنك .

٣ — ومنها قوله للبيد أخبرنى عن قولك

تراك أمكنة اذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معنى كل فيقول لبيد كلا انما أردت نفسى كما تقول للرجل « اذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا » وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة اى كأنى قلت نفسى وكانك قلت أعطيتك .

١ — ومن مسائلها النحوية ما نطرق اليه فى هذه اللغوية السالفة إذ يقول للبيد أيضا أخبرنى عن قولك أو يرتبط أمقصدك « اذا لم أرضها أو يرتبط » بالعطف على أرضها ، أم غرضك « أترك المنازل او يرتبط » فيكون يرتبط كالمحمول على قولك تراك امكنة ، فيقول لبيد الوجه الأول اردت .

٢ — ومنها ماجاء خلال حديثه عن مقابلته أبا على الفارس يوم الموقف إذ يقول ، وكنت رأيت فى المحشر شيخا لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة ؛ يعرف بابى على الفارسى ، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون له ، تأولت علينا وظلمتنا ، فلما رآنى أشار الى بيده فجئته ، فاذا عنده طبقة منها يزيد بن الحكم الكلابى وهو يقول له ، ويحك أنشدت عنى هذا البيت

فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

برفع الماء ولم أقل الا الماء بالنصب ، وكذلك زعمت أنى فتحت الميم فى قولى

تبدل خليلا بى كشكلك شكله فانى خليلا صالحا بك مقتوى

وانما قلت مقتوى بضم الميم ، واذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومه على تأويله

١ — ومن مسائلها العروضية تعرضه للسناد يعيبه على عمرو بن كلثوم التغلبى بقوله « لوددت أنك لم تساند فى قولك

كأن متونهن متون غدر تصفقها الرياح اذا جرينا

وما كان أكرمه فى الاعتذار عنه وهو يقول عن لسانه ، وأما ذكرك سنادى فان الاخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة يكون فيهم الأعرج والاخنق — أى الأعور — فلا يعابون بذلك فكيف اذا بلغوا المائة فى العدد .

٢ — ومنها أخذه على الحارث اليشكرى ضرورة من أقبح الضرورات ، حيث خالف أوليات الصرف للمحافظة على الوزن فى قوله

فعشن بخير لايضر ك النون ما أعطيت جدا

والضرورة هى جمعه بين تحريك الشين وحذف الياء فى عشن .

معارفها الاخرى

أما معارفها الاخرى من تاريخية وغيرها فاليك منها بعضا : -

١ - فمن التاريخية تكذيبه نكاح الانس الغيلان وهو يحاور تأبط شرا المنسوب اليه ذلك ، فقد سأله أحق ما روى عنك من نكاح الغيلان ؟ ثم جعل اجابته قوله لقد كنا فى الجاهلية نتقول ونتخرص ، فما جاءك مما ينكره المعقول فانه من الأكاذيب ، والزمن كله على سجية واحدة ، فالذى شاهده معد بن عدنان كالذى شاهده نضاضة ولد آدم .

٢ - ومنها ما ذكره من اختلاف الناس فى قتل طرفة بن العبد ، أكان فى ملك النعمان بن المنذر أم فى زمن عمرو بن هند ، فقد سأله فى هذا ولم يتلق منه جوابا ، ولعل ذلك لانه لم يكن يقطع فى هذا الأمر برأى دون رأى ، كما هو دأبه فى كثير من مواطن الرسالة .

٣ - ومنها اخباره عن استهتار يزيد بن معاوية بالدين واقامته على ما كان يقيم عليه مع الاخطل من معاقرة خمر وسماع قيان ، وذلك حين يقول للاخطل ، أخطأت فى أمرين ، جاءك الاسلام فعجزت أن تدخل فيه ، ولزمت أخلاق سفيه ، ثم عاشرت يزيد بن معاويه وأطعت نفسك الغاويه ، فيزفر الاخطل ويقول ، آه على أيام يزيد وأنا أسوف عنده عنبرا وأمزح معه مزح خليل ، والقيان بين يديه تغنيه

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذى جمعا
خلفة حتى اذا ظهرت سكنت من جلق بيعا
فى قباب حول دسكرة حولها الزيتون قد ينعا
وقفت للبدر ترقبه فاذا بالبدر قد طلعا

ولقد فاكهته فى بعض الايام وأنا سكران ملتخ فقلت :

ألا اسلم سلمت أبا خالد وحيساك ربك بالعنقز
أكلت الدجاج وأفنيتها فهل فى الخنانيص من مغمز

فما زادني عن ابتسام واهتز للصلة ، فاذا ما سأله عن مذهب يزيد أكان موحدا أم ملحدا لم يزد على قوله ، كانت تعجبه هذه الابيات :

أخالد هاتي خبريني وأعلني حـــديثك انى لا أسر التناجيا
حديث أبي سفيان لما سما بها إلى أحد حتى أقام البواكيا
وكيف بغى أمرا على فتياته وأورثه الجد السعيد معاويا
وقومي فعلينى على ذاك قهوة تحلبها العيسى كرما شآميا
اذا ما نظرنا فى أمور قديمة وجدنا حلالا شربها المتواليـــا
فلا خلف بين الناس أن محمدا تبوأ رمسا فى المدينة ثاويا

٤ — ومنها ذكره عداوة بعض الائمة من أهل اللغة والنحو لبعض حـين يتحدث عن ندامى الفردوس منهم فيقول ، وهم كما جاء فى الكتاب العزيز « ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين» فصدر احمد بن يحيى ثعلب ، قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد المبرد ، فصارا يتصافيان ويتوافيان ، وابو بشر عمرو بن عثمان سيبويه ، رحضت سويداء قلبه من الضغن على على بن حمزة الكسائى وأصحابه لما فعلوا به فى مجلس البرامكة ، وأبو عبيدة صار صافى الطوية لعبد الملك بن قريب الاصمعى ، « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

٥ — ومنها عن طريق الاشارة ، قوله لرضوان — وقد أعياه معه كل شيء فى دخول الجنة حتى الحصول على ورقة من شجرة ببابها يأخذ عليها جوازا — لو أن الامير أبي المرجى خازنا مثلك لما وصلت أنا ولا غيرى إلى درهم من خزائـــنه .

١ — هذا ومن سائر معارفها ، علمه أن الشمس أسرع شيء سيرا ، وذلك حين يسأل حميد بن ثور وقد ذكر له بيته فى ضعف بصره .

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تتمما

كيف بصرك اليوم ؟ فيقول إنى لأكون فى مغارب الجنة فألمح الصديق من

أصدقائى وهو فى مشارقها ، وبينى وبينه مسيرة الوف أعوام للشمس التى عرفت سرعة سيرها فى العاجلة فتعالى الله القادر على كل بديع .

٢ — ومنها سوء رأيه فى النساء ، ذلك السوء الذى يستشف من قوله لعلقمة بن عبدة الفحل وهو فى النار أعزز على بمكانك . ما أغنى عنك سمطا لؤلئك ، ولو شفعت لاحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله سبحانه لشفعت لك أبياتك فى وصف النساء

فان تسألونى بالنساء فانـنى بصـير بأدواء النساء طبيـب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فـليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

بل ذلك السوء الذى ملأ به مأثور شعره ، كما فعل فى نسائيته التى يقول فى مطلعها .

ترنم فى نهارك مستعينا بذكر الله فى المترنمات
ولا ترجع بايماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات

فقد أفعم سائر أبياتها باحتقار المرأة وإساءة الظن بها ، إلى درجة جعلته يرى السعادة كل السعادة فى خلو العالم منها .

٣ — ومنها تفضيله الجن على الانس على لسان أبليس حين يذكر ابليس ذلك ويذكر بشار بن برد عليه فى هذا التفضيل فيقول ، إن لبشار عندى يدا ليست لغيره من ولد آدم كان يفضلنى على آدم دون الشعراء وهو القائل .

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يامعشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لايسمو سمو النار

ثم يقول لقد قال الحق ولم يزل قائله من الممقوتين ، وعلى هذا الوجه فى التفضيل جاء حديثه مع الجنى الذى قال له حين عجب من بقاء حفظه عليه مع ذهاب الحفظ عن أهل النار وأهل الجنة جميعا « لسنا مثلكم يا بنى آدم يغلب علينا النسيان بالرطوبة ، لأنكم خلقتم من حمأ مسنون وخلقنا من مارج من نار »

هذا وعلى ذكرنا ماذكر عن الجن نقول ، إن أبا العلاء أفاض الحديث عنهم

فى كثير من مواطن الرسالة إقاضة تنبىء عن بعض العقائد فيهم ،
وهذى بعض الأمثلة .

١ - ذكر أن من الجن من ليسوا من ولد إبليس فقد سأل وهو يسير فى جنة العفاريت شيخا منهم جالسا على باب مغارة ، ما اسمك أيها الشيخ ؟ فقال أنا الخيتعور أحد بنى الشيصبان ولسنا من ولد إبليس ولكنا من الجن الذين كانوا يسكنون فى الأرض قبل ولد آدم ﷺ

٢ — وذكر أن الجن يكونون فى الآخرة على صورهم فى العاجلة ، فى حين أن الأنس يكونون فيها بصورة الشباب - استمع اليه يسأل الخيتعور المذكور وكان قد استكناه للاكرام — يا أبا هدرش مالى اراك أشيب وأهل الجنة شباب؟ فيقول إن الأنس أكرموا بذلك وحرمناه ، لأننا كنا أعطينا دونهم الحولة فى الدار الماضية ، فكان أحدنا إن شاء صار حية رقشاء ، وان شاء صار عصفورا ، وان شاء صار حمامة ، فمنعنا التصور فى الدار الاخرة وتركنا على خلقنا لا نتغير ، وعوض بنو آدم كونهم فيما حسن من الصور وهو الشباب ،

٣ — وذكر أن الجن تعرف لغات الأنس ، وأن لهم مع هذا لسانا لا يعرفه الناس، فانه لما سأل أبا هدرش هذا كيف ألسنتكم ، وهل تكون فيكم عرب لا يفهمون عن الروم وروم لا يفهمون عن العرب قال أيها المرحوم ، انا أهل ذكاء وفطن ، ولا بد لأحدنا أن يكون عالما بجميع الألسن الأنسية ، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس .

٤ — ثم ذكر أن الجن تصرع الأنس وأن رجم الجنان بالشهب كان فى الجاهلية كما كان فى الاسلام ولكنه زاد أيام البعث .فقدأخبر عن أبى هدرش فيما يتعلق بالصرع آخذا من حديثه عن نفسه ، أنه كان يعمد الى الذعاب فيصرعها ولا يزال سدكا بها لا يزول عنها مهما طب الأطبة ورقى الرقاة ، فاذا ما أصابها الحمام طلب لصاحبة سواها وأنه لم يزل كذلك حتى رزقه الله الانابة فكان من التوفيق ، وحدث عنه حين ساله هل كان رجم النجوم فى الجاهلية فان بعض الناس يقول إنه لم يحدث الا فى الاسلام فقال ، هيهات أما سمعت قول الاودى

كشهاب القذف يرميكم به فارس فى كفه للحرب نار

وقول ابن حجر .

فانصاع كالدرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

وعقب على ذلك بقوله ولكن الرجم زاد أوان المبعث ثم قال إن التخرص لكثير فى الانس والجن ، وإن الصدق لمعوز قليل ؛ وهنيئا فى العاقبة للصادقين.

وأخيرا أفليست الرسالة كما ذكرنا آنفا قد اشتملت على كثرة كثيرة من المسائل الادبية وألوان عدة من المسائل اللغوية والنحوية والعروضية وتعدت هذه وتلك الى معارف أخرى فكان لها بذلك شأن على غير شانها القصصى كشف عما كان لصاحبها من رأى فيما به صرح أو اليه أشار ؟ إنها لكذلك وقد عرفت الدليل .

السباعى بيومى

خريجو دار العلوم يكرمون عميد دار العلوم

حضرة صاحب العزة محمد نجيب صفاته بك

اعترافا بجهوده النبيلة التى بذلها طوال مدة رياسته للجماعه والدار

القصيدة التى ألقاها حضرة الشاعر الأديب الأستاذ محمود غنيم فى حفل التكريم

شبل بشبل

قال قوم فارجفوا فى المقال ... عقمت دارهم من الأنجال
جمع الأمر كله فى يديه ... بطل واحد من الأبطال
قلت يا قوم ويحكم إن فينا ... من حماة الشرى عداد الرمال
واستعضنا عن شبل غاب بشبل ... ليرى الناس كثرة الأشبال
قد شهرنا فى الروع عضبا صقيلا ... وادخرنا سواه لا عن كلال
علم الله لم نعطله لكن ... لا غنى عن كليهما فى النزال
أين حظ الجواد من قصب السبـ ... ـق إذا كان وحده فى المجال ؟
لا تلوموها إذ تحول خطاها ... بين برج عال وآخر عال
كثر الزهر فى الرياض فأغرت ... كثرة الزهر طيره بانتقال
ليس فى الدار قادة وجنود ... كل أبنائها من العمال
دارة تحمل اللواء يداها ... وهو عبء ينوء ظهر الليالى
فهى طورا تقله بيمين ... وهى طورا تقله بشمال

صدق الظن فى نجيب وسعد والمواضى تبين عند الصقال
قد أخذنا عن الرئيسين درسا فى سمو الأخلاق عند النضال
أخمدوا جذوة الخلاف بخلق يطفىء النار كالنمير الزلال
فكفينا شر انقسام وبيل أى داء كالانقسام عضال ؟

قل لمن كرموا نجيبا : نجيب مذ عرفناه موضع الاجلال
قسما ما تزعزعت ثقة فيـ ـه ولو زعزعت رواسى الجبال
رجل أنفه يزيد ارتفاعا إذ تشم الثرى أنوف الرجال
جد فى خدمة الجماعة حتى شغلته عن نفسه والآل
ساهرا فى سبيلها مستهينا بالنفيسين وقته والمال
إن جحدنا جهوده شهدت بضـ ـع وعشر من السنين الخوالى
إن هذا البناء ــ وهو جماد ــ شارك الناطقين فى الاحتفال
فنجيب أطل منه هلالا ثم آوى إليه بعد الكمال

قد عرفناك يا نجيب دموبا ذا مضاء فى الرأى واستقلال
فلتجاهد بعد الرياسة حرا إنها فى الرقاب كالأغلال
بطل المنش فاز فى الحرب لكن خذلوه فى السلم أى انخذال
ما ونى بعد ذاك بل كان شيخا عزمه مثل رأسه فى اشتعال
ولنا أسوة بشعب عريق هو فى الخلق مضرب الأمثال

إيه يا سعد أحرف اسمك فيه ن لدار العلوم أطيب فال
أنت يا سعد نلت تأييد قوم يزنون الكلام بالمثقال
فاقبل العذر حين اختصر القو ل ودعنى أحكم على الأعمال
ثقة الدار فيك تطلب مهرا إن مهر الحرائر الغيد غال

إنما أنت مدره عن أناس حملوا العلم من سنين طوال
وإذا حل بالمعلم ضيم رمى الشعب كله بانحلال
ما طلبنا نواطح السحب دورا لا ولا الروض وارفات الظلال
إننا نطلب الكرامة والعيـ ش ولسنا بغير ذاك نبالى
قل لمصر لن تبلغ المجد مصر والمربون موضع الاهمال
فئة بثت الكرامة فى النا شء وكادت تذوق دل السؤال

محمود غنيم

هيئة التدريس بدار العلوم

تكريم حضرة صاحب العزة نجيب بك حتاته

قصيدة الاستاذ على الجندى

أقامت هيئة التدريس بكلية دار العلوم حفلة تكريم لحضرة صاحب العزة نجيب بك حتاته إعترافا بمآثره وكريم سجاياه وتقديراً لمحمود سعيه حين كان عميدا لدار العلوم وتسجيلا لما بذل من جهود موفقة فى خدمة التعليم وفيما أظهر من مثل عليا فيما تقلد من مناصب

وقد ألقى الأستاذ على الجندى المدرس بالكلية القصيدة الآتية

فى « نجيب » يحلو القريض ولكن فوق ما يبدع القريض « نجيب »
رمت تقليده الثناء فالوى بثنائى ضافى الجلال مهيب
ليس فيه من العيوب سوى أن له شيمة فأتها العيوب
فوق عرنينه سمات من المجد بها يعرف الحسيب النسيب
فيه لين وفيه بأس شديد فهو زهر يندى، وسيف قضيب
صيغ من عنصر السيادة والنبل فأخلاقه جمال وطيب
همة فذة، وعزم حمى وحفاظ مر، وباع رحيب
وجنان على الحوادث ثبت ومضاء تنجاب عنه الخطوب
وإباء يذل كل أبى وهو فى الحادثات نبع صليب
ووفاء عليه من شرف النفس ومن يقظة الضمير رقيب
ووداد كخضرة الآس نضر يذبل الود وهو غض قشيب
أوتى البسطتين : جسما وعقلا فهو فن من الكمال عجيب
قامة السمهرى تحت محيا من سرى فى شعاعه لا يخيب

مستهل بالبشر يملأ عينيك ضياء ضياؤه المشبوب
إن يقطب حينا فمن شيمة الليث إذا جاء جد جده التقطيب
يا (عميدا) تلاقت الدار كفاه وقد حومت عليها (شعوب)
هدف مكشب، وعرضة رام يدريها بالسهم وهو مصيب
قمت من دونها، وأبعدت عنها داهم الشر وهو منها قريب
وأسوت الجرح الرغيب ولولا ك لشقت حزنا عليها الجيوب
رجل (الدار) ما ولاؤك للدا رمشوب ولا الوداد مريب
كنت صبا لها صبيا ولم تسـ ـل هواها وقد عرك المشيب
مستجد لها حنينا على الدهـ ـر وقدما قالوا: يحن النجيب
كلف فوق ما أجن (لليلى) (قيس ليلى) وهو المعنى السليب
إن مدحناك يا نجيب فما نظر بك جهلا لكنه تجريب
قد خبرناك والزمان رخاء وبلوناك والزمان عصيب
فحمدناك فيهما حمد من يد رى ولا يجهل اللبيب اللبيب
رجل (الدار) ليست الداد تنسى لك عهدا تضمنته القلوب
كلن روضا يضوع مسكا فتيقا ظله وارف علينا رطيب
أنت فيه أب حبيب الينا وبنوه كل اليه حبيب
عش بخير وسالمتك الليالى وسقت ربعك الصبا والجنوب
لا تخف أن يضيمها حادث الدهـ ـر فمن حارب الهدى محروب
نحن من حولها أسود عرين تتلظى بأسا اذا عن (ذيب)
ليس منا الا كريم المساعى إن دعته العلا فنعم المجيب
راية (الضاد) فى يدى أحوذى حسبه انه (الزكى) الاريب
خلف يحفظ التراث المعلى ونجيب عن (النجيب) ينوب
قام بالامر فاستحق ثناء الـ ـدار والله بعد ذاك مثيب
إن قومى بمصر أقمار سعد ساطعات فى أفقها، لاتغيب
ورياض تندى على النيل ظلا كل روض منها أغن خصيب

مهداة إلى العمـــيد

صاحب العزة نجيب بك صناتة

سيدى !

لو كنت شاعراً ، لصغت فيك الشعر حالياً ، كقلائد العقيان ....

لو كنت مصوراً ، لكانت شمائلك الغر إلهاماً ، يضفى الجلال على الألوان ...

لو كنت مثالا ، لاتخذت شخصك نموذجاً ، لتمثال الحرية والاخاء ..

لو كنت عميداً لدار العلوم ، لجعلت من سيرتك ، معلقة تحفظ فى مكاتب الدار

لو كنت ملكا — بعد أن تكشفت نقمك للناس — لأقامك العدل ، قيم الدنيا ، حفيظاً على أمانى البلاد ..

فأنت من أولئك الصيد ، الذين ضموا مجد مصر من أطرافه فى السياسة والتربية والاجتماع .

وكأن الشاعر عناك إذ يقول :

فرع نبع يهتز فى غصن المجـــد غزير الندى ، شديد المحال
عنده البر والتقى وأسا الصدع وحمل المعضلات الثقال

***

ولو كنت شاهداً لسباق الخيل ، لأخرت الحرب بين عبس وذبيان ؛ وآثرك زهير بقوله : يميناً لنعم السيد وجدت

ولو كنت فى مؤتمر السقيفة ؛ لحسمت الخلاف بين المهاجرين والأنصار ولم يدون التاريخ كلمة الحباب : منا أمير ، ومنكم أمير ....

ولو كنت فى دومة الجندل ؛ يوم التحكيم، ماظهر الخوارج فى الاسلام ونصافح سيف العراق وحسام الشام ....

ولو كنت مستشار بنى مروان ، ماقتل العائذ بالبيت الحرام وسلمت الكعبة من الغزاة . . .

ولو كنت فى البرلمان مكان ثروت ، لأحرزت الثقة . وفزت على منافسك .. فى مجلس النواب ...

ولو كنت فى الأمة العظيمة . لبعثوك إلى الهند ، نائبا عن الملك ، تؤلف بين المذاهب والأحزاب ...

* * *

ولو كنت أملك كل ذلك . لأهديته اليك فرحا ...

ولكنى أملك قلبا يخفق بحبك ولسانا يحلو إذا أشاد بذكرك . وتملك أنت ماضيا ماجدا ، وحاضرا ناضرا . ومستقبلا حافلا ..

فانعم بيومك ! ...

واهنأ بأمسك ! ...

وأسعد بغدك ! ...

فانت ذكرى عطرة بالامجاد التالدة تسير مع الأجيال ...

وأنت أغرودة حلوة . ترددها المناصب التى شغلتها على مدى الايام ..

وأنت قوة من الخير والحق ترقيها دار العلوم فى شغف وايمان .....

ودمت سيدى حميد الفعال . مديد الآمال . ترفل فى ثياب الصحة والرفاهية وتقبل تحياتى وتحيات المعجبين بك والسلام

من المخلص

خلف القاضى

الأخلاق فى شعر شوقى

رد على نقد

الأستاذ عبد الوهاب عزام الخطيب

١

كتب حضرة الأستاذ الكبير . على النجدى ناصف ، المدارس بكلية دار العلوم مقالا ممتعا فى عدد مارس الماضى من الصحيفة بالعنوان المتقدم ، وقد قرأته بعناية وروية ، لأنى أحب أن أقرأ مايكتب عن شوقى . ولولا أن للاستاذ من القيمة الأدبية مايبعث على أخذ رأيه قضية مسلما بها ولو فى نظر تلاميذه وعارفى فضله ـ ماعرضت للرد عليه فان الحقائق الأدبية ينبغى أن تمحص قبل أن تصاغ على أقلام كبار الكتاب فى صور أحكام عامة .

وقد بنى الأستاذ الكبير بحثه على دعائمه الخمس : الخلق الفضل كما يصوره شوقى ، مبلغ تصويره له من الفن والفلسفة : موازنة بينه وبين غيره فى ذلك . الرأى فى سبب تلقيبه بشاعر الأخلاق . نقد وتحليل . وأنهى الموضوع بهذا الحكم القاسى العجيب والذى لاشك فيه — على كل حال — أن شوقى لم يستطع عرض قضية الأخلاق وعملها فى بناء الأمم عرضا سليما وافيا ، إلا فى أربعة أبيات ،

أما أنا فأقول : يحسن بالباحث أن يدرس اخلاق شوقى . ويدرس اخلاق الأمة فى عهده . وأخلاق الشعوب الراقية وكيف استطاعت أن ترقى ، ثم يدرس النصوص الأخلاقية وملحقاتها فى شعر شوقى ، ويوازن إن أحب ، وينقد ويحلل إذا أراد ،

٢

وقد أتيح لى شرف التعرف الى شوقى — نضر الله بالنعيم وجهه — وأشهد أن أعز مالدى من الذكريات ، تلك الساعات القصار ، التى كنت أقضيها مع أمير

الشعراء فى كرمة ابن هانىء بالجيزة . أو فى مكتبه بشارع جلال نتجاذب أطراف الأحاديث فى شتى الموضوعات

ولمست فى نفس شوقى أرفع الخلال الانسانيه وأسماها ، وجه سمح كريم وقلب عطوف نبيل . وخلق رضى مهذب ، فى عفة لسان ، وشجاعه رأى ، وشكر للصنيع ووفاء للاصدقاء قل أن يماثله وفاء

ولم يحدثنا شوقى عن نفسه كثيرا فى شعره على كثرته . غير أننا نستطيع أن نلمح هذه الصفات الرفيعة من أبيات صاغها عرضا فى بعض قصائده .

— ١ —

هذا أمير البلاد يؤدى فريضة الحج ، فلا يستطيع شاعره أداءها معه ، إنه كان يريد أن يعود بالحجة كيوم ولدته أمه . ويمحو الله بالصفح الناصع الجميل ما سود من صفحاته بالهفوات الكثيرة متخذا من صفاء سريرته ، وكريم حلمه ، وشفقة قلبه ، وحب وطنه ، ومبالغته فى البر والاحسان سبيلا وشفيعا إلى ولى العفو والمغفرة .

ويارب هل تغنى عن العيد حجة ... وفى العمر ما فيه من الهفوات
وتشهد ما أذيت نفسا ، ولم أضر ... ولم أبغ فى جهرى ولا خطراتى
ولا غلبتنى شقوة أو سعادة . ... على حكمة آتيتنى وأناة . .
ولا بت إلا كابن مريم مشفقا ... على حسدى ، مستغفرا لعداتى
ولا حملت نفس هوى لبلادها ... كنفسى ، فى فعلى ، وفى نفثاتى
وإنى ولا من عليك بطاعة ... أجل وأغلى فى الفروض زكاتى
وانت ولى العفو ، فامح بناصع ... من الصفح ماسودت من صفحاتى

وهذه ابنته أمينة ، قد خرجت من الحبو إلى المشى ، فتركت تمشى وحدها ، فهى لاتكاد تتماسك ، فينظر اليها ، محلقا على خطواتها ببصره ، ويكاد يمسكها بخاطره الذى يرسله معها خوفا عليها . فى رقة قلب ليس لها نظير ، وحنان أبوة ليس له مثيل.

كم خفق القلب لها ... عند البكا والضحك
فإن مشت تخاطرى ... يسبقها كالمسك

ألحظها كأنها من بصرى فى شرك

ويصف شوقى ليلة راقصة فى قصر عابدين فى صدر شبابه ، ويطلب إلى النديم أن يخف بكأسه ، ولا يسأل عما تحدثه ذات الحبب فى نفس شاربها من كبرياء وجموح فإنه أمام شاعر جبار العقل ، كامل الفطنة ، مهذب الخلق ، لا يمكن أن تفعل به كما كانت تفعل بغيره من الشعراء الذين يشربونها فتتركهم ملوكا وهم صعاليك ، أو تخيل إليهم أنهم أصحاب الخورنق والسدير ، وهم ذوو شوبهات وبعران .

ياندیم خف بها لا كما بك الطرب
لا نقل عواقبها فالعواقب الأدب
تتجلى ولى خلق ينجلى ، وينسكب

ب

وكان شوقى كغيره من كبار الشعراء ، محسودا على فضله ، مكذوبا على أثره ، وكان يستطيع أن يرد هؤلاء الحساد عن غيهم بقوارص الكلم ، من غير أن يكون عليه فى ذلك حرج فان الله سبحانه يقول « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ولم يظلم أحد كما ظلم شوقى من حاسديه . ولكنه ترفع وتأبى عن مجازاتهم لا لأنهم لا يستحقون المجازاة ، بل لأن طبيعة قلبه ، ونبل خلقه ، وسماحة نفسه ، جعلته يسير فى طريقه من التسامى والاباء ، ولأنه صاحب رسالة اخلاقية ، فلا بد أن يكون هو نفسه مثالا رفيعا للخلق الرفيع .

كان شوقى يخالف قاسم أمين فى سفور المرأة ، فلما نجحت قضية قاسم . عدل شوقى عن رأيه ، وسجل هذا الاختلاف ، وأبان أنه لم يؤثر على العلائق القلبية بين الصديقين وإن كان قد أوغر فكريهما ، وضرب مثلا كريما لمثل هذا الخلاف يحسن بكثير من أدباء هذا الزمان أن يتدبروه فلا يتدابروا لأدهى الاسباب .

لقد اختلفنا والمعا شر قد يخالفه العشير
فى الرأى ثم أهاب بى وبك المنادم والسمير
ومحا الرواح إلى مغا نى الودما اقترف البكور
فى الرأى تضطغن العقـــول وليس تضطغن الصدور

ولم يهج شوقى فى حياته إنسانا معينا لذاته . وإذا كانت قصائده فى كرومر ، ورياض ، وشريف مكة قاسية شديدة اللهجة ، فذلك لأن سياسة كرومر ، وطغيانه وكبريائه ، وسوء تقديره للمصريين . كانت تستحق من شوقى هذه الشرة .

اليوم أخلفت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
فى كل تقرير تقول خلقتكم أفهل ترى تقريرك التنزيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه مستعفيا إن شئت أو مغرورلا

ولأن مصطفى رياض باشا « كبير السابقين من الكرام » فى مصر ، ما كان ينبغى له أن يتملق « كرومر » عميد الدولة المحتلة بكلام يكفر به نعمة مصر وأصحاب عرشها .

خطبت فكنت خطبا لا خطيبا أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عمن قال فيه وما أغناك عن هذا الترامى
أراعك مقتل من مصر باق فقمت تزيد سهما فى السهام
وهل تركت لك السبعون عقلا لعرفان الحلال من الحرام ؟

ولأن الشريف وأعوانه سفكوا الدماء فى الأرض المقدسة ، واستباحوا بها الأعراض والحرم ، فكان لابد من توجيه نظر الخليفة إلى هذه المظالم بأسلوب قاس وتفصيل واضح .

يد الشريف على أيدى الولاة علت ونعله دون ركن البيت تستلم
نيرون أن قيس فى باب الطغاة به مبالغ فيه والحجاج متهم . .
أدبه أدب أمير المؤمنين فما فى العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقارا للرسول فما بين البغاة وبين المصطفى رحم .

ولشوقى خمسة أبيات قالها فى صاحب أهوج كثير الحركة والكلام . وهنا يحسن أن نلاحظ أدبه الكامل فى أنه لم يذكر اسم هذا الصاحب ، وأنه لم يبالغ فى ذمه ،

وإنما أعطانا صورة صادقة لكثير من أمثاله . بل إنها صورة أكثر أدبا وألطف مذهبا من صاحبها .

لنا صاحب قد مس إلا بقية فليس بمجنون وليس بعاقل
له قدم لا تستقر بموضع . كما يتنزى فى الحصى غير ناعل
إذا ما بدا فى مجلس ظن حافلا من الصخب العالى وليس بحافل

ومقطوعاته فى محجوب ثابت بالطبع ليست من الهجاء فى شىء ، ولا هى من النوع التهكمى الذى يؤذى صاحبه فيما لو كان شخصا عاديا لا تربطه بالشاعر أوشج روابط الصداقة ، وإنما جاءت من النوع الدعابى اللطيف البارع .

براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ما طعمت من دمى
تشـــق خراطيمها جوربى وتنفذ فى اللحم والأعظم
ترحب بالضيف فوق الطريق فباب العيادة . . . فالسلم . . .
قد انتشرت جوقة جوقة كما رشت الأرض بالسمسم ...
وتبصرها حول « بيبا » الرئيس وفى شاربيه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه مع السوس فى طلب المطعم

وإذا أردنا أن ندرك السر فى عفة لسان شوقى فما علينا إلا أن نقرأ وصفه لابن زيدون وامتداحه إياه بأنه كان يأبى الهجاء إذا ماهاجه ، ويراه رذيلة لاتساير الأدب العالى ولا الخلق الطيب ، والشعر كالزنبق لايصح أن تدس فيه للناشقين العقارب .

واذا الهجو هاجه لمعاناته أبى
ورآه رذيلة . . . لاتماشى التأدبا
ما رأى الناس شاعرا فاضل الخلق طيبا
دس للناشقين فى زنبق الشعر عقربا

وشجاعة الرأى تظهر عند شوقى جلية فى وصفه سقراط وتفضيله الموت النبيل على الحياة الغبية حين يقول :

سقراط أعطى الكأس وهى مغنية شفتى محب يشتهى التقبيلا

عرضوا الحياة عليه وهى غباوة فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا

وحين يقول :

وابل سقراط ، والشجعان طل إنما من ينصر الحق الباطل

وتظهر أوضح من ذاك فى دفاعه عن الدستور . وهل هو حق للامة . أو منحة من الملك ؟ وقد كانت الصراحة فى هذا الموضوع الدقيق مدعاة للسخط من رجال القصر لو أنهم فهموا كل بيت من شعر شوقى وأدركوا مراميه .

فقد ائتلفت الأحزاب السياسية وعقدت مؤتمرا وطنيا فى دار محمود سليمان باشا برياسة سعد سنة ١٩٢٦ وألقى النائب الشاب (إذ ذاك) فكرى أباظة قصيدة شوقى فلم يأت إلى البيت الأخير من الأبيات الآتية حتى ارتعدت فرائصه من هول مافيه :

الله ألف للبلاد صدورها من كل داهية وكل صراح .
وزراء مملكة ، دعائم دولة أعلام مؤتمر اسود صباح
يبنون بالدستور حائط ملكهم لا بالصفاح ولا على الأرماح
وجواهر التيجان مالم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح

ويحطم نظريه « الدستور منحة » ويوضح حق الأمة فيه ، وجهادها فى الحصول عليه ، وبذلها فى سبيله غوالى المهج ، وأن المصريين لم يأخذوه عطاء ولا هبه وإنما أخذوه عن جدارة واستحقاق لأنهم يرون فيه الفلاح والسعادة ، فيقول بلهجة أشد صراحة من تلك فى ذكرى عيد الجهاد الوطنى من ذلك العام ، وهى قصيدة يحسن نشرها بالديوان فى الطبعة المقبلة » .

يمينا بالتى يسعى إليها غدوا بالندامة أو رواحا
وبالدستور وهو لنا حياة نرى فيه السعادة والفلاحا
أخذناه على المهج الغوالى ولم نأخذه نيلا مستباحا . .
لما ملأ الشباب كروح سعد ولا جعل الحياة لها طماحا

فلا عجب إذن ، وقد أهدت اليه « بمباى » يراعا من الذهب الخالص فى حفلة

تكريمه ألا يكتب به إلا فى ظلال الخلق الكريم ، والرأى الحر ، فى غير بغى ولا لؤم لجاج ، ولا اعتداء على حق .

ليس تلقى براعها الهند إلا فى ذرا الخلق أو وراء ضمانه
أنتضبه انقضاء موسى عصاه يفرق المستبد من ثعبانه ...
يلتقى الوحى من عقيدة حر كالحوارى فى مدى إيمانه
غير باغ إذا تطلب حقا أو لئيم اللجاج فى عدوانه

— د —

وكان شوقى شاكرا للنعمة ، معترفا بفضل الله عليه ، ولذلك بر الناس ودعا إلى البر والاحسان فى مناسبات كثيرة ، فقصائده « الهمزية النبوية » وذكرى المولد وبعد المغنى والهلال الأحمر وحريق ميت غمر كلها شواهد على ما نقول :

والبر عندك ذمة وفريضة لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء

وكان من السهل على نفس شوقى أن يعترف بالفضل لذويه ، وأن يؤدى لأصدقائه الذين لهم عليه صنيع ، شكرا من قلبه ، يكافىء الصنيع ويفضله ألف مرة ، بل أنه يعترف بأن هيكله قد بنى مقدرا الأحسان مقدسا للجمال فهو يدين للثانى ويعتو للأول

ولا أكتم البارى ، بنى الله هيكلى صنيعة إحسان ورفق حسان
أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى وأعنو إذا اقتاد الجميل عنانى

فهذا صديقه العظيم ـ وصديق النبيل ـ المرحوم الدكتور على باشا ابراهيم يتناول بيد الألطاف والرفق والحنان نجله حسينا ، فيجرى له عملا جراحيا يشفيه الله على أثره ، فلا يجد شوقى الوالد الشاعر الحساس أكرم من الشكر ولا أخلد من الشعر يجازى به صديقه ويكافئه على هذا الصنيع .

يا أخى . والذخر فى الدنيا أخ حاضر الخير ، على الخير أعانا
لك عند ابنى أو عندى يد لست ألوها أذكارا وصيانا

حسنت منى ومنه موقعا فجعلنا خرزها الشكر الحسانا
هل ترى أنت فإنى لم أجد كجميل الصنع بالشكر اقترانا
وإذا الدنيا خلت من خير وخلت من شاكر هانت هوانا

وهذا أستاذه وأستاذ جيله الشاعر الذواق ، اسماعيل باشا صبرى ، يتوارى عنه فيرثيه معترفا بفضله عليه ، مقرا بأن ريحان شعره نفحات من رياض اسماعيل ودرره من لجة بحره وأنه لم يتعلم غايات السبق إلا فى مضمار فضله ومجال قوافيه .

هل فى يدى سوى قريض خالد أزجيه بين يديك للاتحاف
ما كان أكرمه عليك فهل ترى أنى بعثت بأكرم الألطاف
هذا هو الريحان ، إلا أنه نفحات تلك الروضة المئناف
والدر إلا أن مهد يتيمه بالأمس لجة بحرك القذاف
أيام أمرح فى غبارك ناهجا نهج المهار على غبار خصاف
أتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قوافى

وكما شكر للاشخاص جميل صنعهم معه ، اعترف للبلاد التى كان لها عليه فضل فخلدها فى شعره ، ذاكرا ما أسدته إليه فى حنان إليها عجيب . ووفاء لها غريب

هذه باريس التى رشف الشاعر العبقرى فيها مناهل المعرفة وهو فى ريعان الصبا وعنفوان الشباب ، يرميها الجهلة بالخلاعة والمجانة والدعارة . ولا يجدون فيها غير الشهوات والمفاتن ، منكرين فضلها على العلم والفن والأدب والحكمة . فيدفع شوقى عنها تلك التهم ، ويسجل أياديها على الشرق والغرب .

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة ، يا إفك مازعموك
إن كنت للشهوات ريا ، فالعلا شهواتهن مرويات فيك ...
تلدين أعلام البيان ، كأنهم أصحاب تيجان ، ملوك أريك .
والعلم فى شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك .

ثم يذكر فضلها عليه خاصة ، ويحن الى أيامها ولياليها الحسان على أفقها الضاحك وسمائها الشعرية . ويحتمل لها الصنيعة فلا يجد أغلى ولا أعز من القوافى الفريدة يجزيها به ويكل امر وفائها الى الله جل جلاله .

يا مكتبى قبل الشباب وملعبى ومقيل أيام الشباب النوك
ومراح لذاتى ومغداها على أفق كجنات النعيم ضحوك
وسماء وحى الشعر من متدفق سلس على نول السماء محوك
لما احتملت لك الصنيعة لم أجد غير القوافى مابه أجزتك
إن لم يقوك بكل نفس حرة فالله جل جلاله واقيك

ويمنى الشاعر من وطنه العزيز ، فيختار بلاد الأندلس مقاما له ومستقرا ، ويصوغ فى مدة المنفى أروع ماقال من الشعر ، ولا ينسى فضل هذه البلاد عليه وعلى أبنائه ، أنه يعتبرها كجنة الخلد ، فيها الظل الوارف ، والقطوف الدانية ، والنسيم اللطيف ، والحور الحسان ، وقد ترعرع فيها بنوه المصريون ، الذين لا يضيع لديهم جميل ، ولا ينسى لديهم صنيع ، إنه يعاهد نفسه أن يقف لسانه على ثنائها ، وجنانه على الولاء لها .

ياديارا نزلت كالخلد ظلا وجنى دانيا ، وسلسال أنس
محسنات الفصول ، لاناجر فيـــها بقيظ ، ولا جمادى بقرس
لاتحس العيون فوق رباها . غير حور حو المراشف لعس
كسيت أفرخى بظلك ريشا وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر ، لا الجميل لديهم بمضاع ، ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس

ويعود الشاعر العظيم إلى وطنه بعد المنفى ، فيذكر بلاد الاندلس ، ويودعها وداعا حارا ، ويثنى عليها أطيب الثناء ، عن علم ومعرفة لأنها أكرمته وأعزته ولأنها حلت من نفسه محل جنة عدن من نفس آدم بفارق يسير هو أن آدم خرج من الجنة التى آوت شوقى فى غربته .

وداعا أرض أندلس . وهذا ثنائى لو رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم . . . وكم من جاهل أثنى معابا
تخذتك موئلا فحللت أندى ذرا من وائل وأعز غابا
مغرب آدم من دار عدن قضاها فى حماك لى اغترابا

هذه الصفة النبيلة ، وهى الاعتراف بالفضل ، والشكر للنعمة ، تقابلها فى نفس شوقى فضيلة أخرى هى فضيلة التسامح وتناسى الخصومة ، والتسامى بالقلب الإنسانى عن الحقد والحسد . وشوقى هو القائل .

وقد أنسى الإساءة من حسود ولا أنسى الصنيعة والفعالا

وهو القائل :

تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة فى أسمى معانيها
تخلق الصفح تسعد فى الحياة به فالنفس يسعدها خلق ويشقيها
الله يعلم ما نفسى بجاهلة . . . من أهل خلتها ، ممن يعاديها
لئن غدوت إلى الاحسان أصرقها فان ذلك أجرى من معاليها
والنفس إن كبرت رقت لحاسدها واستغفرت كرما منها لشانيها

والواقع أن شوقى كان يكره الحسد أشد الكراهية ، ويمقته أعظم المقت ويعتبره رذيلة يجب أن تستأصل من قلوب البشر ؛ فهو ينصح فى رسالته الناشئة أن يتواضع الانسان فى رفعته ، ويريح من داء الحسد جنبيه خوفا من الموت به .

وتواضع فى ارتفاع تعتبر فهما ضدان كبر وكبر
وأرح جنبك من داء الحسد كم حسود قد توفاه الكمد

ويرحب بصوت الشباب فى مشروع القرش . ويعتبره صوت الحق فى غير بغى ولا احتمال لحقد . خلوا من الشهوات التى تفسد صالح الأعمال .

فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق ، لم يبغ ولم يحمل الحقد ولم يخف الحسد
وخلا من شهوة ما خالطت صالحا من عمل الا فسد

ويصعد الطيار الفرنسى « روجى » بطائرته فى جو السماء ما ينتهى إلى غاية ، فيتمنى شوقى أن لو كان فى مكانه . إذن ماهبط الأرض ولا اتخذها مقاما له ، فليس غير الحسد والرياء ، والنزاع ، والخصومة .

أنا لو نلت الذى قد ناله ماهبطت الأرض أرضاها مقاما
هل ترى فى الأرض إلا حسدا ورياء . ونزاعا وخصاما ؟

ويؤسس طلعت حرب بنك مصر . متخذا الصبر عدته والاقدام رائده ، غير منخدع بالثناء ولا عابىء بالذم . فلا يعدم حسادا يكيدون له . ولكنه يمشى فى طريقه من الانتاج المثمر الوطن العزيز . بانيا بمعاول الهدامين جدر بنائه العبقرى الضخم حتى اتى للمصريين بالهرم الرابع

شرفا محمد . هكذا تبنى العلا بالصبر آونة وبالاقدام
همم الرجال إذا مضت لم يثنها خدع الثناء ولا عوادى الذام
وتمام فضلك أن يعيبك حسد يجدون نقصا عند كل تمام
هذا البناء العبقرى أتى به بيت له فضل وحق ذمام
مازلت أنت وصاحباك بركنه حتى استقام على أعز دعام
أسستمو بالحاسدين جداره وبنيتمو بمعاول الهدام
مازلت تبنى ركن كل عظيمة حتى أتيت برابع الاهرام

ويصدر الدكتور احمد زكى أبوشادى مجلة « أبولو » لخدمة الشعر الحى فيحييها شوقى بأبيات رقيقة ، يأمل فيها أن تذاع المواهب الخافية على يديها ، ويحذر فى نهايتها من النقد الباغى . المنطوى على الحسد والغل

صحائفك المدبجة الحواشى ربى الورد المفتح أو أجل
وليس الحق بالمنقوص فيها ولا الاعراض فيها تستحل
وليست بالمجال لنقد باغ وراء يراعه حسد وغل

ولشوقى رأى فى النقد جميل ، عرضه فى اسواق الذهب ، نقتطف منه هاتين الجملتين ، لأنهما بسبيل ما نحن فيه « ومن نقد على حقد احترق ، وإن ظن أنه حرق ومن نقد على حسد ، لم يخف بغيه على أحد »

ويفرح شوقى أشد الفرح بائتلاف الأحزاب ، ومصافاة الأقلام . ويصور المحبة بعد الحقد ، والمودة بعد الضغينة ، تصويرا شعريا يأخذ بمجامع القلوب

التامت الأحزاب بعد تصدع وتصافت الأقلام بعد تلاح
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ومشى على الضغن الوداد الماحى
وجرت أحاديث العتاب كانها سمر على الاوتار والاقداح

ويصف صديقه العبقرى الفذ ، الدكتور على باشا ابراهيم أدق وصف ,ويلمس من قلبه العظيم أنبل الصفات الانسانية وأرقها ، وألصقها بمهمة الطب ، ليعطى غيره من الاطباء صورة ملائكية للرحمة والواجب معا ، وليعطى الحاسدين صورة شوهاء لجنب مظلم يفتك به أشد الامراض خطرا ، وأعظمها ضراوة

تنكر الارض عليه جسمه واسمه أعظم منها دورانا
فى خلال لفتت زهر الربى وسجايا أنست الشرب الدنانا
لو أتاه موجعا حـــاسده سل من جنب الحسود السرطانا

٥

وكان شوقى وفيا نادر المثال بين الاوفياء ، منح أصدقاءه كل قلبه وهم على قيد الحياة ، فلما ماتوا جزاهم بدمعه وشعره أكرم مجازاة . لقد خلد العاملين لخير الوطن وأضفى عليهم من الثناء حللا لا تبلى . كرم لطفى السيد واحمد حسنين وطلعت حرب وسعد زغلول وعلى ابراهيم . وأمين الريحانى . ورثى كثيرا ممن اتصلت بينه وبينهم أسباب المودة رثاء حارا .

يقولون يرثى كل خل وصاحب أجل إنما أقضى حقوق صحابى
جزيتهمو دمعى ، فلما جرى المدى جعلت عيون الشعر حسن ثوابى

وإذا كنا سنعرض ـ فيما بعد ـ لمراثى شوقى من الناحية الاخلاقية والصفات الخاصة التى امتاز بها بعض أبطال النهضة الحديثة الذين خلدهم فى شعره ، فانه لا يفوتنا هنا أن نلمس حزن قلبه على المصطفين الاخيار من أخلائه .

وأنا أعلم أن الرثاء كان يرهق شوقى رهقا شديدا ، لقد قال لى فى احدى المناسبات ـ ورفع سبابته الرفيعة الدقيقة وهزها برفق فى صوت خفيض ـ اياك أن ترثى أحدا ـ لقد كان يخاف الموت ويضعه نصب عينيه عندما يرثى ، ولذا كان يلاقى عناء نفسيا أليما فى هذا اللون من الشعر ، كان قلبه رقيقا لا يتحمل الصدمات ولولا أنه يعتبر نفسه مسئولا أمام التاريخ وأمام قلبه ، ما وجدنا هذه المجموعة الكبيرة من الشعر الناطق بأروع المثل وأنبل العواطف

اقرأ معى بإحساسك وقلبك هذه الأبيات من قصيدة فى رثاء سعد :

أين من عينى نفس حرة كنت بالأمس بعينى أراها
كلما أقبلت هزت نفسها وتواصى بشرها بى وتداها
وجرى الماضى فماذا ادكرت وادكار النفس جزء من هواها
ألمح الأيام فيها وأرى من وراء السن تمتال صباها
جلت السبعون فى هيكلها فتداعى وهى موفور بناها
روعة النادى إذا جدت فان مزحت لم يذهب المزح بهاها
ولها صبر على حسادها يشبه الصفح وحلم عن عداها
فى سبيل الله نفس أوتيت أنعم الدنيا فلم تنس تقاها
لا الحجا لما تناهى غرها بالمقادير ولا العلم زهاها

ثم اقرأ معى بإحساسك وقلبك هذه الأبيات من قصيدته فى اسماعيل شيرين

من عادة الذكرى ترد من النوى من لا يدين لنا بطى غيابه
حلم كاحلام الكرى وسناته مستعذب فى صدقه وكذابه
فاسكب دموعك لا أقول استبقها فأخو الهوى يبكى على أحبابه

ولا أريد أن أطيل فى ضرب المثل . فالجزء الثالث من الشوقيات مملوء بأمثال هذه العواطف . وقد قلت له مرة ، إن مطلع قصيدتك فى حافظ يعدل ديوانا من شعر الرثاء . فأطرق هنيهة . ثم قال ان حافظا كان يرثى . ثم انى أعرفه من ثلاثين سنة : معرفة إخاء وصداقة وإعزاز . وكنت أود أن أموت قبله ليرثينى . إن هؤلاء الذين يزعمون أنهم أخلاء حافظ وأحباؤه وأن شوقى منافس له . لا يفهمونا حق الفهم . إننا ما تخاصمنا فى يوم من الايام واذا كانوا قد أصدروا عددا من السياسة الأسبوعية لذكراه ، فانه لم يفتنى وأنا اصطاف بالاسكندرية أن اقيم له حفلة تأبين تليق بمقامه . كشاعر عظيم وصديق كريم

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يا منصف الموتى من الاحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة قدر وكل مغيبة بقضاء

ولو لم يكن من وفاء شوقى إلا أنه قال لسكرتيره الخاص « احمد افندى عبد

الوهاب أبو العز . عندما أحس بدنو الاجل وانتهاء الحياة . « سلم على أصدقائى » لكانت هذه الكلمة وحدها أروع وأنبل مافى باب الوفاء من مثل .

لقد كان شوقى إنسانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وكان رفيع الخلق بدرجة تؤهله أن يكون شاعر الأخلاق ، إنه لم يكتسب أخلاقه من الوسط الذى عاش فيه . بل كانت موهبته الأخلاقية كموهبته الشعرية أصلا متأصلا فى نفسه . من يوم ولدته أمه إلى أن لقى الله راضيا مرضيا .

أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلاق الكرام به نظما

سلام على شوقى العطوف ، سلام على شوقى المهذب سلام على شوقى الشجاع سلام على شوقى الشكور ، سلام على شوقى المتسامح ، سلام على شوقى الوفى ، سلام على شوقى الصديق

(للموضوع بقية)

عبد الوهاب عنانى الخطيب
المدرس بمعلمى بنى سويف

تطور الخط العربى

لحضرة الأستاذ محمد على الدسوقى

أخذ الخط العربى أطوارا عديدة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن . فمنذ زمن الخط الحميرى المسمى بالمسند والخط يأخذ أشكالا مختلفة ، فقد كان الخط المسند تكتب حروفه مفردة . ثم انتقل إلى الخط الفينيقى الذى رسمت حروفه مشتبكة . ثم تطور إلى الخط الكوفى والنسخى المستعملين إلى الآن . وتفرعت عنهما الخطوط المتداولة الآن ؛ وهى الثلث والرقعة والفارسى والديوانى .

وقد رسم المصحف العثمانى بالخط النسخى وكتبت به الكتب التى أرسلها النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء ككتابه إلى المقوقس وكسرى والنجاشى وغيرهم .

وقد كان الخط فى أول أمره منقوطا غير مشكول ، ثم أهمل النقط فصار غير منقوط ولا مشكول ، ثم وضع الشكل بالنقط على يد أبى الأسود الدؤلى . ولما كثر التحريف وضع النقط بمداد يخالف لونه مداد الشكل فى زمن الحجاج بن يوسف . ثم وضع الشكل بطريق الحروف الصغيرة على يد الخليل بن احمد وهى المستعملة الآن ، وعددها ثمانى علامات : الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والسكون ، والشدة ، والمدة ، والهمزة والصلة . وقد وضعت علامة فوق الحرف الممدود بالألف وهى ألف صغيرة مقوسة فى نحو هذا وهذه وهذان وهؤلاء وأولئك ولكن ، وغير ذلك وكتبت هاتان بالألف الطويلة المتصلة . وحذفت وعوضت عنها الألف القصيرة فى ذلك وذلك وذلكما وذلكم وذلكن . ولم تحذف فى ذانك وذانك وذانكما وذانكم وذانكن وهذا تحكم . ولذلك قرر المجمع اللغوى أن تكون الكتابة مسايرة للنطق ؛ فلا يحذف حرف ينطق به ، ولا يكتب حرف لاينطق به إلا ما استثنى فى قواعد الكتابة . وعلى ذلك فتكتب أسماء الإشارة هاكذا : هاذا . هاذه . هاذان . هاتان . هاؤلاء . ألائك . بوضع الألف الطويلة المتصلة بدل الألف القصيرة المنفصلة تسهيلا للنطق . مع حذف الواو الزائدة فى أولئك وغيرها نحو أولى وأولات فتكتب على حسب النطق : ألائك . يا ألى الألباب . ألات الأحمال مسايرة للنطق . وتكتب

ثلثمائة ها كذا : ثلاثمائة . بزيادة الألف المحذوفة بعد اللام ، وحذف الألف المزيدة فى مائة ومائتان فتكتب مئة ومئتان كما تكتب مئات .

ويظهر من ذالك أن الذين وضعوا قواعد الاملاء ولم يتقيدوا برسم المصحف زادوا الألف المتصلة فى بعض المواضع نحو هاتان والصلاة والزكاة ، ولم يزيدوها فى البعض الآخر . فصارت قواعد الاملاء مضطربة . ولذالك وضعناها فى كل كلمة وضعت فيها الألف القصيرة منفصلة حتى تكون الكتابة مطابقة للنطق . فقد ترك الكتاب وضع الألف القصيرة فصار النطق بتلك الألفاظ متوقفا على مرشد حتى يكون صحيحا . وعانى الأطفال فى النطق الصحيح متاعب جمة أدت إلى النهضة الحديثة التى نشأت الآن لتيسير الكتابة العربية .

الشكل بطريق الحروف قديما

ظهر حديثا كتاب (تطور الكتابة العربية للأستاذ السعيد الشرباصى ، وقد نقل فيه عن كتاب المقنع للدانى وكتاب الإكليل مايلى .

(المحاولة الأولى) . وضع النقط ، ثم تكلم عليه بما لا يخرج عما ذكرناه . ثم قال :

(وثانى هذه المحاولات) هى عملية كتابة حروف المد . والملاحظ للنماذج التى بين أيدينا من العصر الجاهلى وصدر الاسلام يشاهد أن حروف المد كانت غير مستقرة ولا واضحة المنهاج . فتراهم يكتبون المد أحيانا وأحيانا أخرى يلغونه . فيكتبون مثلا كلمتى (ملائكة ورحمان) ها كذا (ملئكة ورحمن) حتى قال صاحب الاكليل : كانت قاعدة الكتابة الحميرية إذا وقعت الألف فى وسط الكلمة حذفت على نحو همذان ورئام فيكتبونها (همذن ورءم) وفى القرآن الكريم « النبين والحوارين وابرهم وربانين » بدون ياء . وأصلها على التوالى : (النبيين والحواريين وابراهيم وربانيين) بزيادة ياء هى حرف المد ثم لما بدا لهم أن يعالجوا تلك المشكلة ويضعوا لها الحروف كانوا فى حيرة . فمرة يكتبون الممدود المفتوح ألف كما نفعل الآن . ومرة أخرى يكتبون الواو كما فى الربا (الربوا) والصلاة (الصلوة)

ويكتبون نخشى بالألف تارة وبالياء تارة أخرى . إلى أن استقر الرأى أخيرا . وعرفت حروف المد ، وأخذت لها طبعا خاصا . ونظاما معينا . (وثالث) هذه المحاولات عملية الشكل . ونحن لانزعم أنهم نجحوا النجاح كله فى علاج مسألة الضبط بالشكل . وإنما نجزم بأنها استطاعت أن تؤدى وظيفتها التى أرادوها منها . واستطاعت أن تثبت أقدامها على مر الأيام وتدافع الحقب . وكان لها فضل كبير فى حفظ القرآن الكريم ، وضبط ألفاظ الحديث واللغة وقصائد الشعر وروائع الأدب بالرغم عما فيها من صعوبة وفتوق .

(أما رابع) هذه المحاولات فهى محاولة استعمال الحروف بدل الشكل لتمام الضبط ، ولعدم الثقة بالشكل . ولعل هذه الطريقة انتشرت فى يوم ما . إلى أن قال :

وإذا كان قد حكم على هذه الطريقة بالفناء بعد أن تركزت الكتابة ، ولم يبق على نظامها إلا بضع كلمات معدودات ؟ فان هناك مصدرا خالدا لايزال قائما يستعمل هـــذه الطريقة فى كثير من الكلمات ويعطينا الشواهد الكثير والمقنعة على استعمال الحروف بدل الشكل . وذلك المصدر هو القرآن الكريم برسم العثمانى المعروف . ففى هذا المصحف نجد أن الكسرة كتبت ياء فى كثير من الكلمات مثل قوله تعالى (من نبأى المرسلين) . (أفاين مات أو قتل) . (بأييكم المفتون) . فأنت ترى أن الكسرة كتبت ياء مع أن الحرف ليس ممدودا .

وكتبت الضمة واوا فى مثل (أولو . وأولات . وأولئكم) واخواتها كما وردت فى القرآن الكريم وفى مثل قوله : (سأوريكم آياتى) . بزيادة الواو بعد همزة المضارعة . وقد يكون من التعبير عن الضمة بحرف الواو ما فى مثل هذه الكلمات (وما دعاؤ الكافرين) . « جزاؤ من تزكى » ومثل : « أتوكؤ » . « تفتؤ » . « يتنبؤا » . « أو من ينشؤا » . والكلمتان الأخيرتان مسندتان إلى مفرد . إذ قد يتوهم متوهم أن الواو هنا ضمير جمع ، وان الفعل هنا من الافعال الخمسة التى حذفت نونها

أما كتابة الفتحة ألفا فأكثر من ذالك ، كما فى قوله تعالى « اهبطوا مصرا » « لاتا يئسوا » بزيادة ألف بعد تاء المضارعة المفتوحة فتحا قصيرا . وكذالك : « لـكنا هو الله ربى » . و « سلاسلا » . و « وقواريرا » وكذالك : « لايا يئس »

(أفلم يا يئس) بزيادة الألف فى نهاية الكلمات الممنوعة من الصرف . وزيادة الالف بعد الياء .

هذا وغيره كثير مما ذكره صاحب المقنع فى رسم المصحف ، فقد رسمت فيه الضمة واوا ، والكسرة ياء ، والفتحة ألفا ، وأن شئت فقل بطريقة الضبط بالحروف

وقد أحرزنا من سياق المؤلف لعبارة صاحب المقنع وصاحب الاكليل فائدتين .

(الأولى) أن زيادة هذه الأحرف وهى الألف والواو والياء فى بعض الكلمات فى المصحف لم تكن اعتباطا ، وإنما هى من آثار الشكل بالحروف المأخوذ عن اللغة الحميرية قديما

(الثانية أن فكرة الضبط بالحروف بدل الشكل لم تكن فكره حديثة . بل هى قديمة لا تزال آثارها ماثلة أمام أعيننا فى المصحف العثمانى . وإنما تركت لاشتباه هذا الاحرف بحروف المد الاصليه . وبذالك وضح لنا وضع تلك الحروف فى المصحف بعد أن كنا فى حيرة من أمرها .

تعليل المفسرين وعلماء الخط لزيادة بعض هذه الحروف

زيادة الألف فى (مصرا)

قال بعض المفسرين كالبيضاوى : إن (مصرا) فى قوله تعالى : (اهبطوا مصرا) منونة مصروفة . فالمعنى : اهبطو مصرا من الامصار فإن لكم ما سألتم من هذه المطعومات وهى البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل والمصر كل بلد عظيم متحضر .

ويجوز أن تزاد بمصر العلم . ونون لأنه مؤنث ساكن الوسط نحو هند ودعد فيجوز فيه الصرف وعدمه . وعلى الوجهين تكون زيادة الألف فى نكرة على الوجه الأول ، وفى علم مصروف على الوجه الثانى ، ولم تكن زيادتها علامة للفتح كما قال صاحب المقنع .

زيادة الألف فى : « سلاسلا وقواريرا »

قال المفسرون : إن زيادة الالف فى سلاسلا للازدواج مع ما بعدها وهى كلمة (أغلالا) وكذلك الالف فى : « قواريرا » زيدت للازدواج ومراعاة الفاصلة فى

قوله بعد ذلك : « قدروها تقديرا » ، ويرد عليه أن الثانى هو الذى يتبع الاول للازدواج . وأجيب بأنه قدر مجىء الثانية بزيادة الالف فزادها فى الاولى .

تعليل زيادة الالف فى : (لـكنا هو الله ربى)

قال البيضاوى وغيره فى تفسيرها : إن الاصل : لـكن أنا هو الله ربى ، فنقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها فصارت الالف ساكنة والنون ساكنة . فحذفت للتخلص من التقاء الساكنين ثم أدغمت النون فى النون فصارت الـكلمة (لـكنا) وقد قرىء بالتسهيل (لـكن نا) وعلى الاصل (لـكن أنا) .

وعلى هـذا التفسير لا تـكون الالف علامة للفتح كما قال صاحب المقنع ، بل هى ألف الضمير المنفصل (انا) .

تعليل زيادة الواو فى : « أولى . وأولئك . وأولات »

علل علماء الخط زيادة الواو فى أولى « الإشارية وأولئك » بأنها للفرق بينها وبين ألى الاسم الموصول فى نحو قول الشاعر يصف المنبه :

وتبلى الالى يستلئمون على الالى ... تراهن يوم الروع كالحدإ القبل

أى تبلى المنية الفرسان الذين يلبسون لأمة الحرب على الخيل اللاتى تراهن يوم الفزع كالحدا القبل . والقبل بفتحتين أن تنظر العينان إلى أعلى . قالوا وحملت أولات على أولى الاشارية ويرد عليهم أن الاشتباه لا يزال قائما بين أولى الاشارية وبين أولى تأنيث أول . فتراهم قد وقعوا فيما فروا منه .

ولم يعللوا زيادة الواو فى نحو : (الربوا) و « سأوريكم آياتى » وأخواتها ، كما لم يعللوا زيادة الياء فى نحو : « نبأى » وقوله : « أفاين مات أو قتل » . وفى قوله : « بأييكم المفتون » . فأنت ترى من هذا اضطرابهم فى التعليل مما يدخل فى باب الحدس والتخمين ، لا فى باب الجزم واليقين .

الألف اللينة

من صعوبات الخط العربى كتابة الألف اللينة تارة بالألف وتارة بالياء . وقد يحصل اشتباه فى حال كتابتها بالياء بينها وبين الياء الحقيقية فى نحو هدى « بضم الهاء » وهدى « بفتح الهاء وسكون الدال » . وقد ميزت إحداهما عن الأخرى فى المصحف

بوضع الألف القصيرة المقوسة على ما قبل الألف المقصورة . ولا كن الكتاب أهملوا وضعها فصار الاشتباه قائما . وقد ميز أهل الشام الياء الحقيقية عن الألف المقصورة بنقطها .

وقد اقترح بعض الباحثين أن تكتب الألف المقصورة كلها بالألف فى الأسماء والأفعال والحروف وفى الثلاثى وغيره منعا للاشتباه وعلى هذا الرأى صاحب الشافية

وقد اختار هذا الرأى الأستاذ على الجارم بك وقدمه إلى المجمع اللغوى ضمن اقتراحات أخرى قبل بعضها ورفض البعض الآخر فى المؤتمر اللغوى الذى عقد فى مجمع فؤاد الأول سنة ١٩٤٤ وهاك نص الاقتراح واعتراض بعض أعضاء المجمع عليه .

مادة ١٤ الألف المقصورة تكتب ألفا دائما .

رد صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا عليه

« ا » فى ملاحظتى على الفقرة ١٤ من المشروع القاضية بأن الألف المقصورة تكتب ألفا دائما قلت : « إنى قد ازعم أن كتابتها بالياء لها فائدة الدلالة على أن أصل الكلمة الصرفى يائى » . وسبب قولى : « إنى أزعم » . هو كونى لم أقرأ من قبل شيئا من مطولات النحو والصرف . وإنما غلب على ظنى فقط شدة احتمال تلك الفائدة ولعدم وجود دليل عندى لم أجرؤ على التأكيد . بل قلت « إنى قد أزعم » . لكن الاستاذ فى تعقيبه قال عن كلامى هذا : هو خلط علم بعلم . وما شأن الكتابة بالصرف؟

« ب » إنه أستاذى وأستاذ غيرى فى النحو والصرف . ورسم الكتابة غير منازع . والطاعة والتسليم واجبان له لكن ليسمح لى أن أقول : إنه هو سها فقدم لى الدليل على أنى لا أستحق أن يوجه إلى تلك العبارة . إن حضرته قال بعد توجيه ما وجه إلى : إنه يجرى على مذهب يقول به جمهور عظيم من النحاة وهو : أن الألف المقصورة تكتب دائما ألفا فى اسم وفعل وحرف . ثم أتبع هذه العبارة مباشرة بقوله : وتقول الارجوزة القديمة:

وكتب ذوات الياء بالألف جائز وكتب ذوات الواو بالياء باطل

لئن لم يكن عند أستاذى ما يستدل به للذهب المذكور الا هذا البيت ، كان هذا المذهب مجرد دعوى من جانبه عارية عن الدليل ، لأن البيت لا يؤيد فكرة أن الألف

المقصورة تكتب الفا دائما . ذلك بأن واضع هذه الأرجوزة أو واضعيها من النحاة فرقوا — كما ترى — فرقوا بين الكلمات التى فيها الف أصلها الصرفى ياء أو واو . فما كان أصله ياء أجازوا كتابته ألفا وأما ما كان أصله واوا فمنعوا أن يكتب بالياء . ومعنى هذا أن الأصل عند صاحب الارجوزة أو أصحابها أن كلمة (رمى) مثلا إنما تكتب بالياء لأن أصلها الصرفى يائى . ولكن يجوز أيضا كتابتها بالالف (رما) . وأن كلمة (سها) لا تصح كتابتها (سهى) لان أصلها الصرفى واوى . هذا هو معنى بيت الأرجوزة القديم الذى يظهر أنه يعبر عن ذلك المذهب وأن حضرة الاستاذ يستشهد به عليه وإذا صح هذا فيكون الاستاذ نسب للنحويين مذهبا ليس لهم . ولعل حقيقة مذهبهم أن الألف المقصورة تكتب وجوبا الفا دائما فى كل كلمة لها أصل صرفى هو واوى . وتكتب الفا جوازا فى كل كلمة أصلها الصرفى يائى . وأن هذا مجرد جواز لا يمنع أن الاصل كتابتها ياء دائما . ولا نرى من هذا البيت القديم أن علماء النحو والصرف — الذين مهمتهم البحث عن الاصل الصرفى للكلمات قد خاضوا فى كيفية كتابة تلك الكلمات أبالالف تكون ؟ أم بالياء ؟ ومتى تجوز الكتابة بالياء ومتى تمتنع ؟ والاساس عندهم الاصل الصرفى للكلمة . وهذا هو الدليل الذى كان ينقصنى فجعلنى أقول فى اعتراضى أمام اللجنة : إنى قد أزعم . وأنى لاشكر الاستاذ على تقديمه بنفسه هذا الدليل لى كيما احتج به عليه . وأستطيع أن أقول له : أن عبارة (هو خلط علم بعلم وما شأن الكتابة بالصرف) ينبغى ألا يوجهها الى . بل يوجهها أولا لمن استشهد هو بأرجوزتهم القديمة من النحاة والصرفيين

ج . لو صح الفهم الذى فهمته من بيت الارجوزة عن حقيقة مذهب أولئك النحاة ، فانى لو كنت موافقا لحضرة الاستاذ على فكرة مشروعه وسمح لى بتنقيحه لقلت :

إن الرسم ينبغى أن يبقى كما هو الآن . وأن يقتصر على التنبيه أولا بأن الياء مادامت غير منقوطة فينطق بها دائما كالالف وكفى الله المؤمنين القتال بالنسبة لمن يقرأ طفلا وشابا أو شيخا . مادام يعلم أن الياء الغير المنقوطة والالف متساويان فى الاداء . ثانيا بأن من يكتب فان الحرف الاخير من الكلمة اذا كان منطوقا به الفا

وكان هذا الكتاب طفلا فى مبدا التعليم فليكتبه ألفا دائما اسما كانت الكلمة أو فعلا أو حرفا . (لأنه لما يدرك الصرف بعد)

أما من درس الصرف فعليه كتابة اليائى ياء غير منقوطة . وان حار فليكتبه ألفا .

وبهذه المثابة لا يكون هناك محل لقول حضرة الأستاذ فى رده : (ان الطفل لايخطر بباله أن (مضى) انما كتب بالياء لأن أصل ألفه ياء . فان هذا التنقيح الذى نعمله لا يكلف الصغير بحثا فى نحو ولا صرف اه .

مشروع تيسير الكتابة العربية

لصاحب العزة الأستاذ على الجارم بك

مستخرج من الجلسة التاسعة بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٤٤

وينحصر فى ١٧ مادة منها مادة ١٤ التى سبق الكلام عليها .

١ ـ تبقى صورة الحروف العربية كما هى .

٢ ـ الفتحة لا علامة لها إلا إذا كانت علامة لياء أو واو فى وسط الكلمة مثل (أود) و (هيف) .

٣ ـ الضمة قوس متصل بالحروف المضموم .

٤ ـ الكسرة خط مائل يتصل بالحرف المكسور من تحت

٥ ـ السكون حلقة تتصل بالحرف الساكن .

٦ ـ تنوين الحرف المضموم ، نون صغيرة متصلة بالحرف ، وتنوين الحرف المفتوح نون صغيرة متصلة به إلى أسفل وتنوين الحرف المكسور نون صغيرة متصلة به إلى الخلف .

٧ ـ الحروف التى يليها حرف مد لا توضع لها علامات الحركة ولا علامة الشدة

٨ ـ الهمزة فى أول الكلمة تكتب على ألف دائما من غير علامة إن كانت مفتوحة وتكتب تحت الألف فى حالة الكسر بلا علامة أيضا ، وتكتب فوق الألف مع علامة الضم متصلة بها إن كانت مضمومة هكذا : أخذت . اخاء . أخذ

٩ ـ الهمزة المتحركة فى وسط الكلمة وفى طرفها تكتب على حرف مناسب

لحركتها وبذلك نستغنى عن الحركة هكذا ، سأل سئل . ضؤل . جرأ . النبؤ فى جزىء الكتاب .

١٠ ــ الهمزة الساكنة فى وسط الكلمة توضع عليها علامة السكون ، وتكتب على حرف مناسب لحركة ما قبلها فيستغنى عن علامة الحركة هكذا : فأر . بئر . سؤر

١١ ــ الهمزة الممدودة توصل بها علامة المد هكذا : .

١٢ ــ الحرف المشدد توضع عليه الشدة بعلامات الضم والكسر والتنوين .

١٣ ــ يستغنى عن وضع العلامات فى نهاية الجمل اعتماداً على سكون الوقف .

١٤ ــ الألف المقصورة تكتب الفا دائما .

١٥ ــ تكتب الكلمات على حسب النطق بها فلا يحذف حرف ينطق به ولا يثبت حرف لا ينطق به . ويستثنى من ذلك ما يأتى .

ا ــ همزة الوصل فإن وضعها مجردة من الهمزة يدل على أنها لا ينطق بها عند الوصل

ب ــ اللام الشمسية فى أداة التعريف .

١٦ ــ يستغنى عن علامة الكسرة فى الاحوال الآتيه :ــ

ا بعد الألف الثالثة فى فعالل وشبهه مثل . جحافل . مساجد .

ب ــ فى الحرف الذى يسبق ياء النسب مثل مدنى . عملى .

حـ فى النون بعد ألف المثنى وياءه وبعد ألف المضارع المسند إلى ألف الاثنين أو الاثنتين مثل جملان . جملين . يقومان .

١٧ ــ يستغنى عن علامة السكون فيما يأتى .

ا ــ تاء التأنيث الساكنه مثل : قامت .

ب ــ فعل الامر الصحيح المفرد مثل :ــ اسمع . قم .

حـ ــ كل حرف يلى همزة وصل من اسم أو فعل مثل . اسم . ابن . استغفر . انطلق

د ــ لام أل القمرية .

هـ ــ نون الضمير : أنت واخواته .

وقد عقب معالى عبد العزيز فهمى باشا على هذا المشروع فى ٢٠ صفحة اكتفينا منها برده على مادة ١٤ الخاصة بكتابة الألف اللينة ألفا دائما لأهميته .

ونذكر هنا تعقيب صاحب العزة على الجارم بك على ملاحظات معالى عبد العزيز فهمى باشا قال : استوفى معالى عبد العزيز فهمى باشا دراسة المشروع بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا عرض لها ، ورجانى أن تتفضلوا فتفسحوا لى المجال لابداء ملاحظاتى على نقد معالى الباشا . حينما قدمت هذا المشروع التواضع كنت شديد الخوف من أن أكون قد أهملت فى وضع اصوله وقواعده وخشيت أن يكون قد فاتنى منه شىء يهدم تركه الموضوع من أساسه ، وطالما حدثت نفسى بأن أمتنع عن ابراز هذا المشروع حتى أتم دراسته ؛ ولكنى اليوم شديد السرور بنجاح مشروعى ، لأن القواعد التى وضعتها لم تفرط فى شىء من قواعد رسم الحروف .

ومع أن معالى عبد العزيز فهمى باشا عاش طول عمره مدققا باحثا . فانه لم يهدم قاعدة واحدة من القواعد التى وضعتها .

١ ــ انتقد معاليه القاعدة التى تقول : إن الحرف المفتوح لكثرته فى العربية يترك بلا علامة .

ومثل ذلك القاعدة الأخرى التى تقول ، إنه إذا وجد حرف مد فى الكلمة استغنى الحرف الذى قبله عن علامة الحركة . وقال : بأنه توجد كلمات مثل : العافون والعافين . والضالون والضالين لايستطيع القارىء الناشىء أن يضبط حرف المد وما قبله ضبطا صحيحا ، فقد يظن أنها العافون والضالين . وأظن أن للعقل الانسانى كيفما كان احترامه . وأن للغة ملكات أولى ابتدائية توجد عند العالم ، ولكنها فى الطفل يكون مصدرها السماع من السنة العامة : وهؤلاء يقولون يطير ولا يقولون يطير وهذا بديهى . وحينما وضعت مشروعى لم أقم وزنا لهذه البدائه اللغوية .

٢ ــ أما مسألة الهمزة فيقول معاليه بحق : انها حيرت الالباب ؛ لان علماء الرسم وصنعوا لها قواعد كثيرة معقدة ملتوية . أما أنا فقد وضعت للهمزة أربع قواعد فقط فى صورة تسهل جدا على صغار المتعلمين ، ويكفينى شرفا أن مشروعى لايزيد على صفحة واحدة ، وأن قواعد علم الرسم كلها لاتزيد على هذه الصفحة .

وقد كتب الاستاذ جب شعرا للشنفرى مطبقا قواعد مشروعى . وأعتقد أنه لم يجد عنتا أو عسرا فى هذا . وحينما انتقد معالى عبد العزيز فهمى باشا القاعدة الخاصة بالهمزة المتطرفة لم يستطع أن يقول أكثر من أن الهمزة قد تتزحلق فتلتبس ويضل القارىء . وأعتقد أن زحلقتها غير مستطاعة ، لأنها تكتب فوق الألف وفوق الواو وفوق الياء .

٣ - جمال الحروف : يقول معاليه : إن مشروعى يذهب بجمال الحروف العربية . ومع أنى لا أدعى الخبر بفنون الجمال فانى أرى أن الجمال عادة وذوق . وأن حروفنا العربية حينما كانت كوفية فى أول أمرها كانت قبيحة كل القبح . وأنا أطمع فى أن الخطاطين فى مصر وغيرها من البلاد العربية قد يصلون إلى كتابة الحروف حسب مشروعى بخط جميل . ثم إذا كان معاليه يشفق على جمال الحروف العربية فلماذا يريد محوها دفعة واحدة بمشروعه .

٤ - نقد معاليه إهمال العلامة عند الوقف ، وانى أذعن لما قال معاليه ، وارى وجوب وضع العلامه عند الوقف ، لأن القارىء قد يطول نفسه فيصل بين الجملة والجملة . على أنى أرى حذف العلامة عند نهاية الفقرات المسماة : paragraphs .

٥ — أما مسألة الألف المقصورة فى آخر الكلمة فقد كان الظن أن القاعدة أقوى القواعد التى بسطتها ، وذلك لأن علماء الرسم والنحو ذكروا رأيا وعززوه ، وهو : أن كل ألف مقصورة فى حرف أو اسم أو فعل فى إعراب أو بناء تكتب ألفا . وحسبى هنا ما فى كتاب الشيخ نصر الهورينى إذ يقول ما معناه : إن جماعة من النحاة جروا على كتابة الباب كله بالألف حملا للخط على اللفظ . كما فى الشافية ، ووجهه شيخ الاسلام بأنه القياس . وقال البطليوسى فى شرح أدب الكاتب ، إن أبا على الفارسى اختار هذا الرأى . أليس هذا الرأى كافيا فى وضع قاعدتنا ، أو لم نأخذ فيما مضى بأقوال ضعيفه ، وآراء مرجوحة للتسهيل والتيسير ، فما بالنا لا نأخذ بما قيل إنه القياس . وربما رضيه جمهور النحاة .

٦ — أما قاعدة كتابة الكلمة على حسب النطق بها مفردة فلا أوافق على نقد معالى عبد العزيز باشا وقد قلت أن الكلمة قد تكون فى درج الكلام وطرأ عليها

عليها حذف أو ادغام فلا أكلف الكاتب أن يكتب كما ينطق بها فى الدرج ولكن كالنطق بها مفردة حتى تبقى الكلمات سالمة فمثل « فى البيت » لا تكتب هكذا « فلبيت » . ومثل « وأمم ممن معك » لاتكتب هكذا : « ممعك » وقد استثنيت أل الشمسية مثل الشمس والدار

وإنما وضعت هذه القاعدة لأن هناك كلمات تزاد فيها حروف غير موجودة فترتب على هذه الكتابة أن الناس أخطئوا فى النطق بها مثل : مائة وعمرو وهؤلاء والذين واللذين . فطريقتى تبعد اللبس وتحدد الضبط

٧ — لم أرد بالاستثناء إلا أن أتفادى من الاكثار من وضع هذه العلامات فان فى الاستثناء تسهيلا فى كتابة الكلمات ، وهى لاتصعب على ذوى الملكات الأولية فى اللغة العربية ومع ذالك فانى أوافق على حذف القاعدة الخاصة (بفعالل)

٨ — انتقد معالى فهمى باشا الجزء الخاص بتنفيذه ذالك المشروع فى الطباعة والواقع أننى قد استعنت برجل أعده خبيرا فى الطباعة والخط . وقد فكر طويلا فى طريقة تنفيذ هذا المشروع فوجد أنها ميسورة ولكنى عجبت حينما قال معالى الباشا : ان التاء المربوطة تكتب مفتوحة فى الطباعة ، وأنا لا أرضى بهذا بتاتا ولا أقبله لانه يترتب عليه سوء القراءة

وأخيرا أشكر لمعالى عبد العزيز باشا أجزل الشكر موفور جهده فى درس المشروع ونقده ، وأسأل الله أن يجزيه خيرا عن العلم واللغة والادب

٤ — رد الاستاذ محمد كرد على بك

تأملت مليا فى مشروع الأستاذ على الجارم بك فى تيسير الكتابة العربية وحدقت فى تلك الرسوم التى ابتدعها والخطوط التى اختارها . فما رأيت فيها الا انتقالا من بسيط الى مركب . ومن سهل الى صعب . ان هذا الرسم الذى نكتب به حروفنا قد ألفته العيون زمنا طويلا ، وكان فيما أرى وافيا لغرض الطفل والبالغ والشادى والعالم على أيسر حال وكلما اتجه الشعب الى تلقف لغته من الكتب والصحف يتقدم خطوات نحو الفصحى وهانحن نرى من العامة من يقرءون الصحف وهى غير مشكولة

أن يتلعثموا كثيرا . وغلطهم النحوى قليل . لو هيىء لهم مبادىء النحو والصرف على الأصول الجديدة لكانوا يتلون الأسفار والجرائد بدون الوقوع فى أغلاط كبرى

هذه الفكرة التى يدعو اليها زميلى على فرض أن المجمع اللغوى أقرها - وهو ما أستبعده جدا - لاتنتشر مهما بذل فى هذه السبيل ، لأنه لاحاجة اليها . والألفة التى صارت لنا بصور هذه الحروف القديمة بطول الزمن وكثرة المرانة ، من المتعذر جدا أن نتدرب على غيرها فى مدة وجيزة ، وهذه حروف التاج هل دخلت فى الطباعة بعد أن مضى أعوام على وضعها ؟ وهل استساغها ذوق الجماعة على ما بذل من العناية فى نشرها وما هذا الا لأن العامة والخاصة يميلون بنظرهم الى البسائط ، وتنبو أذواقهم عن المركبات التى تربك النظر ، وتشغل الذهن على غير طائل . لذلك أرى أن نترك هذا الموضوع . فاللغة تطلب منا على ما كان قال زميلى الجارم بك أن نكثر رأس مالها من الألفاظ العلمية فقط مما يدخل مباشرة فى مهمتنا . وإذا حاولنا أن نعمد الى التجديد فى كل شىء يتراجع عملنا . من أجل هذا ألتمس من سعادة الرئيس أن يطرح هذا لمشروع للتصويت . فان حاز الاجماع كان لرصيفى أن أن يمضى فى إقناع زملائه بصحة رأيه والادلاء بحجته . والأولى على كل حال ، أن نحصر كدنا فى الموضوعات الاخرى التى يجب أن ينظر فيها المؤتمر ، ووقته عزيز جدا كما تعلمون .

رد الاستاذ أنطون الجميل باشا

أشارك حضرات الأعضاء فى الثناء على الجارم بك لما تحمله من مشقة وجهد وعناء ، ولن أتناول مشروعه بالتحليل ، لأن معالى عبد العزيز فهمى باشا قد أعفانا من النقد المطول والمفصل ، وما تحدث عن المشروع من ناحية الطباعه .

اللغة العربية لغة مختزلة بطبيعتها ، وذلك بسبب إهمالها الحروف التى تدل على الحركات ولهذا لم ينجح مشروع الاختزال فى اللغة العربية كما نجح فى اللغات الاخرى فمثلا كلمة « سلم » لو كتبت بالحروف اللاتينية لأصبحت أطول بكثير منها فى اللغة العربية Soullamone فهذه عشرة حروف تقابلها ثلاثة فقط فى اللغة العربية .

وحذف هذه الحروف فى العربية أدى الى العسر والمشقة فى القراءة الصحيحة ،

حتى قل من يجيد قراءة شيء بلا لحن . والجملة الآتية « حسن صرف المال فى سبيل الخير » تقرأ على سبعة أوجه أو أكثر . فالكلمة الأولى قد تنطق فعل أمر ومصدرا وفعلا ماضيا مبينا للمعلوم أو للمجهول وعلما مبتدأ وعلما منادى . فنحن فى حاجة ماسة إلى تسهيل القراءة تسهيلا يؤدى إلى اجتناب اللبس . وقد حاول اللغويون الأجانب إصلاح مافى لغاتهم من مفارقات شبيهة بالمفارقات فى اللغة العربية . ثم ضرب لذلك أمثلة من اللغة الفرنسية ضربنا عنها صفحا . ثم قال :

وقد ظهرت الصعوبة فى طباعة الحروف العربية واضحة حينما عمات الآلات الكاتبة . وذلك لأن الحروف الافرنكية مابين كبيرة وصغيرة لاتزيد على خمسين قالبا ، أما الحروف العربية فاذا أريد أن تكون مشكولة فلابد لهـــا من خمسمئة قالب على الأقل

وللتفادى من ذلك احتال أصحاب الفن فعمدوا فى حروف الطباعة إلى تجويف رصاص الحروف وإسقاط علامة الحركة فيه ، وفى الآلات الكاتبة جعلوا النقطة مستقلة تكفى العين للغين والحاء للجيم والخاء ، وعلى أية حال فهذه محاولات تدل على شعور بالحاجة الى التيسير ، ومشروع الجارم بك يقوم على وضع حركات جديدة فيها المتصل والمنفصل ، وهذا المتصل على قلته يغير معالم الكتابة العربية ، فهل يصلح ذلك ثمنا لتغيير الرسم ؟

مع أن الصعوبة مازالت قائمة ، وفى المشروع استغناء عن بعض الحركات ، ونحن فى الكتابة الحالية نجرى على هذا ، فرب ضمة واحدة على حرف فى كلمة يؤمن معها الخطأ فى النطق .

وطريقتنا القديمة فيها الحركات منفصلة ، وفيها الاستغناء عن بعض الشكلات فجديد المشروع إذن ثلاث حركات متصلة تغير معالم الكتابة

وقد تناول الأستاذ كرد على بك حروف التاج ، وأقول إنها على الرغم من أنها لاتغير الحروف العربية فى صورها فانها لم تشتهر

وأخيرا أرى أن كتابتنا فى صورتها الحالية لابأس بها ، بشرط أن نعمل على تيسير قواعد الاملاء وفى مشروع الأستاذ الجارم بك الشى الكثير من هذا التيسير ،

فاذا أخذنا بهذا التيسير وتركنا الكتابة على صورتها الحالية مع إضافة حركة أو حركتين أصبحت القراءة سهلة يسيرة ولذلك فانى أقترح أن نأخذ مشروع الجارم بك القواعد الاملائية والصرفية ، ففى الأخذ بها تيسير كثير فى الكتابة والقراءة على أن تبقى الكتابة العربية على شكلها الحالى .

رد الأستاذ عباس محمود العقاد

أعتقد أن المسوغ الوحيد للعدول عن طريقة الرسم المتبعة الآن هو إيجاد طريقة تمنع الخطأ فى الكتابة والقراءة معا. ولو نظرنا إلى طريقتى معالى عبد العزيز فهمى باشا وعلى الجارم بك لوجدنا أن كلتا الطريقتين لم تمنع هذا الخطأ .

بل إن ما تصنعه هذه أو تلك هو أن تحيل تبعة الخطأ من القارىء إلى الكاتب . وعندئذ لا يمتنع الخطأ بل يزداد ويكثر . لأن الصعوبة ليست فى معرفة كيف يكتب المرفوع والمنصوب ، بل فى معرفة ما يرفع أو يفتح أو يجر . وهذا يرجع إلى خواص فى اللغة العربية لا توجد إلا فى اللغات السامية وحدها ، منها خاصة الفعل الثلاثى والاعراب ، وهذه الصعوبات لا تذلل بطريقة من الطرق التى عرضت علينا ؟ لأن مرجعها معرفة الفعل الثلاثى وقواعد الاعراب مثلا . وإنما تذلل بتذليل قواعد الصرف والاعراب . وعلى ذلك فللغة العربية مشكلاتها الخاصة كما لكل لغة أخرى ، ولا بد من تعلمها ومعرفة قواعدها لمن أراد أن يحيط بها إحاطة تامة صحيحة فنحن نرضى بما يبقى من هذه المشكلات بعد التبسيط والتيسير على اعتبار أن تلك لازمة من لوازم اللغات جميعا . وبجمل رأيى أنى لا أوافق على أى طريقة إلا إذا كانت أسهل وأيسر من الطريقة الحاضرة .

رد المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد إبراهيم

الطريقة الجارمية لا تفيد الكاتب شيئا بعد العمل بها ؟ لأنها تحتاج إلى النظر فى معاجم اللغة لضبط ما يحتاج إلى الضبط بالضم أو الكسر مع التشديد وعدمه . والمد وعدمه ، وأما ضبط أواخر الكلمات مع التنوين أو المنع من الصرف فهو موكول إلى قواعد النحو بعد أن يفهم الكاتب المعنى . كما قال الاستاذ العقاد .

فالحال بعد الأخذ بها كالحال قبله لم يتغير بالنسبة للكاتب . وفيها فوق ذلك مايطول به الزمن على الكاتب ، خصوصا كاتب جلسات المحاكم وأمثاله ، وإن كان ذالك يذلله الألف والتمرن . فاذا عدلنا عنها وبقينا على ماألفناه من الضبط بالضمة والكسرة والشدة والمدة فى الأوائل والأوساط — كان هذا أيسر على الكاتب مؤونة وأقل زمنا . والقارىء يتبع الكاتب فى هذا ، فيسير على مارسم له .

وقد شرح الأستاذ أنطون بك الجميل هذه المسألة من جهة فن الطباعة وغيره أحسن شرح وأوفاه فلهذا أقترح صرف النظر عن هذه الطريقة حاشا ماقاله فى رسم الهمزة فى جميع أوضاعها . فانه حسن جدا . وإنى أشكر للأستاذ الجارم بك مجهوده العظيم أجل الشكر لما فيه من تشحيذ الذهن ، وتحريك الفكر ، وإيقاظ النظر .

٨ — مناقشة بين حصرات الأعضاء .

تنتهى إلى قرار بطبع المشروع وعرضه على البلاد العربيه

حضرة العضو المحترم الدكتور محمد حسين هيكل باشا .

أرى أن هذا الموضوع قد استوفينا بحثه . ويكاد رأينا يتفق فى أنه مشتمل على كثير من المزايا . بيد أنه فى مجموعه ليس ميسور التحقيق وأقترح ألا يرفض المشروع ؟ فمن المصلحة أن نعمل مافى جهدنا لتيسير الكتابة . وأرى أن نطبع هذا المشروع وما دار حوله من نقد وتأييد . وأن نعمل على نشر ذلك ما وسعنا النشر فى أرجاء البلاد العربية جميعا . سواء فى الشرق والغرب ، فلعل من يقرؤه من المهتمين باللغة يوفق الى إكماله على نحو اذا عرض علينا أقررناه . والأفضل على أية حال ألا نسقط هذا المجهود ، وأن ندع الباب فيه مفتوحا للدارسين والباحثين فانه مجهود يستوجب الشكر والتقدير .

حضرة العضو المحترم الدكتور منصور فهمى باشا

مما جرى عليه المجمع ألا يعتبر شيء من أعماله نافذا الا بعد مضى سنة من عرضه على الجمهور . فما يقترحه هيكل باشا متمش مع نظام المجمع وسننه .

حضرة العضو المحترم أحمد أمين بك .

أرى أن يبدى المجمع حين يطبع هذا المشروع ميله أو تأييده أو الاعتراض عليه فنشره وحده دون إبداء رأى قد يفهم منه أن المجمع قد وافق عليه .

حضرة العضو المحترم أنطون الجميل باشا .

مادام المطبوع هو المشروع وما وجه عليه من نقد وتعقيب ، فسيفهم الجمهور اتجاه أعضاء المجمع فى شأنه ، وسيدعوه هذا إلى الاشتراك فى نظر المشروع .

حضرة العضو المحترم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

اقترح تأليف لجنة دائمة تحال إليها مسألة تيسير الكتابة . وأن يكون بين يديها هذا المشروع وغيره من المقترحات . وأن يكلف حضرات الأعضاء الوافدين درس الموضوع فى بلادهم ، وإمداد هذه اللجنة بما يكون لديهم من الآراء .

حضرة صاحب السعادة الرئيس النائب

قدم الدكتور محمد حسين هيكل باشا صيغة قرار فى هذا الموضوع نصها :

يطبع المشروع وماقيل فيه من اعتراض وتأييد ، وينشر فى البلاد العربية كلها ، ويتلقى المجمع مايرد من الملاحظات والمقترحات ، وينظر فى الموضوع على ضوء ذلك فى مؤتمر مقبل . فوافق حضرات الأعضاء على هذا القرار

كثرة الآراء فى تيسير الكتابة العربية الآن

كثرت الاقتراحات لتسهيل الكتابة العربية فى هذا الوقت ، وأدلى كل بدلوه وكنت فى زمرة الداعين الى التيسير ، فألفت كتابى (تيسير الكتابة العربيه) الذى ظهر حديثا فجاء بحمد الله خاليا من نقد الناقدين : وقد وصل الأمر إلى أن اقترح حضرة نصرى خطار أن تكتب الحروف مفردة لتقليل عدد صناديق الحروف فى المطابع . وقال إنهم وضعوا آلة كاتبة بهذه الأحرف فى أمريكا . وقد عقب عليه الأستاذ على عبد الواحد المدرس بكلية الآداب . وقال إن هذا المشروع لايحل لنا مشكلة صعوبة القراءة والكتابة . ولا يفيد فى الضبط إلا باستعمال الشكل الذى

نشكو من كثرته . وأن فائدته تعود على المطابع فقط ، لأنه يقلل من أشكال الحروف وأخيراً حضر إلى مصر مستشرق أمريكى عالمى يدعى (لنباخ) هو وزوجته . وانضم إليه كثير من الأدباء وبعض مفتشى وزارة المعارف . وغرضه محاربة الأعداء الثلاثة : (الجهل والمرض والفقر) وهو المشروع الذى دعت إليه الحكومة المصرية وتردد صداه فى أنحاء المعمورة . وقد عنى المستشرق المذكور بمحاربة الجهل أولا فى كثير من البلاد وعزم على الاقامة بمصر سنة لأداء مهمته. وقال إنه سيعلم كبار العوام بطريقة سريعة تمكنهم من الكتابة والقراءة فى أسرع وقت ، كما فعلت روسيا فى تعليم الجهال من أبنائها وهو الآن بين ظهرانينا وإنا لما يفعله هو وزملاؤه لمنتظرون .

محمد على الدسوقى

أدب القصة

للأستاذ عمر الدسوقى

الأستاذ بكلية دار العلوم

تمهيد :

يجد الباحث فى أدب القصة مجال القول أمامه فسيحاً ، بيد أنه يحار فى أية طريق يسلك ، وأية ناحية من القول يطرق ، ومباحث القصة جمة ، ودراستها مستفيضة : أيذكر أنواع القصة من مثل وخرافة ، وحكاية ، وأقصوصة ، ورواية ، وقصة ، وما يمتاز به كل نوع ، وكيف ينشأ ؛ أم يذكر تاريخ القصة فى العالم منذ أن عرف التاريخ حتى اليوم ، وحياة القصة فى هذه الحقب المتتابعة حياة ممتعة شائقة ، أم يتناول الناحية الفنية من القصة ، فيدرس الأطار الخارجى لها ، ثم الخطة التى بنيت عليها ، والبيئة التى تعيش فيها شخصياتها ، ثم الشخصيات التى تتضمنها ، والعقدة التى تهدف إليها حوادثها ، وكيف انتهت هذه الحوادث ، ثم موضوع القصة وغايتها أهى رواية اجتماعية ، أم نفسية ، أم تاريخية ، أم إصلاحية أم من روايات المغامرات إلى ماهنالك من أغراض شتى تناولها القصة ؟؟

وقد يخوض الباحث فى المدارس الأدبية التى لونت القصة فى عصورها المختلفة كما لونت بقية فنون الأدب ، ويذكر خصائص كل مدرسة من تقليدية (كلاسيكية) وإبداعية (رومانتيكية) وواقعية ، ورمزية

وربما دفع إلى البحث فى القصة العربية ، وما يثيره مثل هذا البحث أمامه من مشكلات ، ليعرف هل القصة الفنية الأدبية لها نظائر فى الأدب العربى ؟ وإذا لم يكن فما السبب ؟ أصحيح أن العقلية العربية مصابة بعقم الخيال ، ومرضها هذا عاقها

عن تأليف القصة ؟ وما كنه هذه العقلية العربية ؟ ثم يبحث حتما فى الأدب العربى الحديث ليرى هل نسير فيه على هدى ، وهل القصة نشأت عن الحاجة اليها ؟وهل نقلد فى صورة القصة أو نبتكر ما يلائمنا ؟ . إلى غير ذلك من الأبحاث الطريفة

وقد يكون الباحث من المغرمين بالدراسات النفسية والتربوية ، فيتناول القصة من جهة تأثيرها فى الأمم والأفراد وأثرها فى النشء ، وما يلائم غرائزهم

وأنتم ترون أيها السادة أن محاضرتى مهما أوجزت فيها فهى عاجزة كل العجز عن الخوض فى كل هذه الموضوعات وإيفائها حقها من البحث ، وكل ما أستطيعه فى هذا الزمن المحدود أن القى نظرة عابرة مركزة على المهم منها

قدم القصة :

نشأت القصة مع الإنسان منذ كان يقطن الكهوف والغابات ، ويهوله ما فى الطبيعة من رعود قاصفة ، ورياح عاصفة ، وأعاصير مزمجرة ، وزلازل مدمرة ، وزوابع جامحة ، وسيول جارفة ، وبراكين صاخبة تفيض بالحمم والنار ، وقدوقف أمام الطبيعة وقفة الحيرة والرعب يتأملها ولا يدرى لها كنهها ، وبعد لأى اهتدى لحل قنع به ، واطمأن له فمنح عالم الجماد روحاً كروحه ، وتخيله على غرار نفسه ، وهكذا ابتدأ خيال هذا الإنسان البدائى يعمل ويخترع فيفرض الفروض ، ويفسر معضلات الحياة ، فكان هذا العمل اول خطوة خطاها فى إنشاء الأساطير ، وما الأسطورة إلا قصة خرافية صاغها الإنسان الأول حسبما أوحاه له خـــياله الضعيف .

ولما كان هذا الإنسان البدائى يعيش على الخيال كانت القصة هى الصورة التى يبرز فيها خياله ، ونستطيع أن ندرك هذا باطلاعنا على القصص المتداولة بين سكان استراليا الأصليين اليوم ، وبين أهالى جنوب أفريقية السود .

كم من صياد ماهر من هؤلاء السذج لايتلوم فى تقديم سلاحه الذى يكتسب به قوته وقوت أولاده ، طواعية كى يتعلم قصة من هؤلاء العجائز المكرة الذين يحتفظون بأسرار القبيلة ، وماذاك إلا لأن القصة ذات قيمة عملية كبيرة لديه ، إذ تحتوى على أسرار سحرية بمعرفتها يصير سيد عالم ، يدعو السحب الممطرة فتستجيب له ،

ويسيطر على الطيور فى الجواء والوحوش فى الغابات ، وهناك قصص تعلمه بعض الشيء عن الآلهة والأرواح وعناصر الطبيعة ، وبهذه المعرفة يأمن شرها ، وبذا يصير طبيب القبيلة أو عرافها

ونرى تأثير هذه القصة السحرية منتشراً من تلك الفيافى البيضاء المتجمدة حول القطبين، حيث يقطن الأسكيمو، إلى الغابات الحارة، حيث يعيش الأقزام ويتحركون فى الأدغال كالظلال .

ووجد العامة الذين ظلمهم رؤساؤهم ، وعرافوهم وكبارهم ، وأرهبوهم وأذاقوهم ألوان العذاب سلواهم فى الأقصوصة ، فتجمعوا يصطلون ، وطفقوا يقصون حكايات رمزية انتصر فيها الضعفاء على كل أعدائهم الاقوياء من بشر ، وأرواح ، وطبيعة وحيوان ، وبذا أتت إلينا هذه القصص العجيبة المنطوية على ذكاء الحيوان الصغير ودهائه التى اشتهر فيها الأرنب والثعلب وغيرهما بالخديعة والمكر حين لايجدى استعماله القوة . وقصص زنوج أمريكا عن الارنب الوحشى نموذج خالد لهذه القصص البدائية

وكثير من خرافات الغرب والشرق انحدرت إلى الناس من العصر الحجرى وهذا هو سر إعجاب الأطفال بها ، لان الطفل يحكى فى نموه الانسان فى تطوره منذ الخليقة ، ولان خيال البدائيين والاطفال من صنف واحد وقوة واحدة، فيسبحان فى عالم من العجائب، حيث الرغبات المستحيلة حقائق ، والتصورات غير المعقولة الصدق بعينه ، ولا سيما إذا أعمل فيهـــما القصاص الماهر فنه وصاغهما صياغة محكمة .

إن هذه الاقاصيص التى يستمع إليها أبناؤنا للمتعة والتسلية كانت عقيدة ثابتة عند الانسان الاول ومن بعده ، وهذه الحيوانات التى تنطق فى القصص الخرافية ليست إلا أثرا مشوها لتلك الارواح التى تتقمص الحيوان ، وتحرس القبيلة وأبناءها من الشر ، والتى كان يلوذ بها الأولون ويقدسونها .

بيد أن بعض هذه القصص قد وضعت فى العصور التاريخية المعروفة ، ومنها القصص التى وضعها الهنود ، والعرب والفرنسيون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

ولذا يحسن الرجوع إلى ماقبل ذلك حيث السحر والتعاويذ ، اذا أردنا ان نتتبع تاريخ القصة

ومنذ ستة آلاف وثمانمائة عام تقريبا كان الملك خوفو يحكم مصر، وكان المصريون فى ذياك الوقت مهرة فى العمارة والنقش والآداب ، وكان من عادة خوفو أن يجمع أولاده حول العرش،ويأمرهم بأن يقصوا عليه أخبار السحرة والكهنة والعرافين، وقد وصلتنا مجموعة من هذه القصص صاغها فى صورتها الأدبية كاتب مصرى عاش فى سنة ٣٤٥٩ ق . م ،ونسب أول قصة إلى الملك خفرع صاحب الهرم الثانى.وكان خفرع يعيش قبل الكاتب بألف وخمسمائة سنة ؛ وبذلك تنتسب القصة الادبية الى ملك من أعرق الملوك عاش قبل أن يوجد هوميروس وغيره من الشعراء بأجيال مديدة

ويلى القصة المصرية فى القدم القصص الهندية التى نشأت حين قام (جوتاما) وهو نجل أحد رؤساء القبائل فى جنوب نيبال يدعو إلى عقيدة جديدة ، يوحد بها الطبقات فى نظام واحد من الخلاص الروحى . وعرف ببوذا أو الملهم ، ولم يتمتع واعظ فى الهند بمثل ما تمتع به بوذا من الشهرة ومحبة الناس . وكان يلقى تعاليمه فى صورة قصة صغيرة رمزية أو واقعية،مثل قصة (القرد وحلى الملكة) أوقصة(الاميرة سامبولا) ، ولقد اقتفى حواريوه أثره واتخذوا طريقه فى الوعظ عن طريق القصة وبهذا قصوا كل القصص المعروفة فى شمال الهند ،وعدتها خمسمائة وخمسون قصة ،ثم جمعت هذه القصص الصغيرة بعد موت المصلح الكبير بوذا

وقد انتقلت هذه الحكايات من الهند إلى فارس ثم إلى الشام فاليونان ،ثم ترجمها يلانودس وهوقسيس يونانى فى القرن الرابع عشر ونسبها إلى(إيسوب) ، ومن هذا الطريق دخل فى الآداب الاوربية كثير من الحكايات الهندية القصيرة ، ولا سيما الحكايات التى يتكلم فيها بعض الحيوان وهى التى تعرف فى عالم القصة بالامثال تحت العنوان المزور « حكايات إيسوب » . والذى يقرأ هذه الحكايات وهو عالم بالقرى الهندية وحياة الهنود يدرك تمام الادراك أن هذه الحكايات نبتت فى بلاد الهند ، وليست من عمل (إيسوب اليونانى) ، وأصدق مثل على هذا حكاية (الحمار

فى جلد أسد) ، لأن بوذا حين كان يحكى الحكاية يصور قرى الهند وحياتها تصويرا زاهيا لايدع مجالا للشك فيها .

ونطق الحيوان والطير فى هذه الحكايات نشأ عن العقيدة التى دعا اليها بوذا: وهى أن الانسان إذا مات رجع ثانية إلى الحياة فى صورة أخرى ، فإن كان ما عمله فى حياته السابقة شرا رجع فى صورة حية أو وحش ؛ وإن كان ما عمله خيرا رجع إلى الحياة فى درجة اعلى من درجته التى مات عليها . وكل هذه الحيوات حياة واحدة، ورجل صالح مثل بوذا يستطيع أن يتذكر ما مر به من حيواته المتقدمة ؛ والقصص الهندية الاصلية ما هى إلا الخمسمائة والخمسون مولداً التى مر بها بوذا ، وتجاربه عن الحيوان والطير والانسان . فهذه الحكايات تعرف باسم (جاتاكس) او (قصص الميلاد) .

ويلى هذه فى القدم ،قصص هيردوت ثم بانشانا نتارا الفارسية ، ثم القصص العبرية، فالعربية ، ويختلط القصص بعضه ببعض ، وتترجم اوربا كثيرا من قصص العرب أو تحكى عنهم ، ويترجم على الاخص الف ليلة وليلة ويكون له اثر كبير فى الادب الاوربى والخيال الغربى . ولقد تمنى القصصى الفرنسى (ستاندال) ان يمحو الله من ذاكرته الف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته . وقد اقتبسوا منه أدبا للأطفال،واختصروه وصوروه،واستخرجوا منه روايات تمثيلية قديما وحديثا مثل لص بغداد ، وعلى بابا والاربعين لصا ، وقسمت او القضاء والقدر

ومن القصص المشهورة فى الادب الغربى قصة أبى القاسم ونيكاوت Aucassim&Inicolette ألفها شاعر فرنسى فى القرن الثانى عشر الميلادى ولم يكشف اسمه إلا حديثا . ومن قراءة المخطوطات وجد أن اسمه أولدأنتيف Ald Antif وقصته تشبه الى حد كبير قصة روميو وجوليت لشكسبير ، وكثير من نقاد شكسبير يرجعها إلى هذا الاصل

والقصة عربية منقولة من الاندلس،فأبو القاسم كان أحد حكام قرطبة فى القرن الحادى عشر ، وطريقة القصة من أن بعضها شعر و بعضها نثر طريقة عربية وجدت فى المقامات، والف ليلة وليلة

وبينما كان أولد أنتيف وغيره من الشعراء يسلون سكان القصور بقصص البطولة والحب ، كان القساوسة والوعاظ الدينيون فى أوربا يستعملون القصة لجذب الناس صوب الكنيسة، حيث صارت الموعظة، وسيلة التعاليم الدينية غاية فى الجمال والحيوية كأية مسرحية مليئة بالمعجزات فكل شىء يهم الناس ويعجل فائدتهم كان موضوعا للوعظ . أخذ القساوسة الخرافة العربية ذات المغزى «الزاهد والكنز» وصبغوها صبغة مسيحية ، وسطوا على الاساطير القديمة وكونوا منها حكايات شائقة وقصصا طريفا يناسب غرضهم ومواعظهم مثل « الملك فيليب وعبده اليونانى » وهى قصة تشبه كثيرا قصة الجمل الضائع من أنه أعور أزور الخ. وأخذوا كثيرا من مجموعة قصص عربية ترجمها بطرس الفونسو، وهو يهودى تنصر . وكان له شهرة فى الاندلس العربية فى خلال القرن الحادى عشر ومن هذه القصص « فرسان مصر وبغداد » التى تذكرنا بمناظر الف ليلة وليلة ، وكما تأثر دانتى فى ملحمة الكوميديا المقدسة برسالة الغفران لابى العلاء ، وتأثر بها تولستوى فى رواية البعث

والحديث يطول، أيها السادة، اذا أردت أن أحصى بعض ما أخذه الغرب من قصص الشرق ولكن هذه ليست مهمتى الليلة ، وحسبى أن أذكر أن هذه القصص القصيرة والاساطير الساذجة فى طفولة الشعوب المختلفة قد صارت تراثا عالميا مشتركا ألهمت عباقرة الادباء والشعراء . وأوحت إليهم بقصصهم الخالدة فشكسبير ذلك النابغة الانجليزى الخالد مدين لهؤلاء القساوسة الذين جمعت قصصهم فى كتاب يحوى مائة حكاية ويدعى «Gesta Romonorum» بروايته الخالدة تاجر البندقية . والملك لير ، ومدين للقصة العربية ابن القاسم وبنوكليت برواية روميو وجوليت . وقد اخذ كثيرا من قصص الكاتب الايطالى النابه بوكاشيو الذى عاش فى فلورنسا فى القرن الرابع عشر . والتى تدعى Decameron دى كامرون كروايته المسرحية « كل ما انتهى بخير فهو خير وغيرها . وفولتير مدين لالف ليلة وليلة ولسورة الكهف بروايته المشهورة «صادق» Zadique

أنواع القصة :

هذا التراث الأدبى الضخم الذى خلفته الإنسانية من أقدم عصورها حتى اليوم ظهر فى أشكال عدة ، وصور مختلفة وأشهر هذه الصور :

١ ـ المثل Fable : وهو قصة صغيرة مختلفة تروى على لسان الحيوان أو الجماد ، وترمى إلى هدف خلقى من مثل ما روى ابن المقفع فى كليلة ودمنة ، أو ابن الهبارية فى الصادح والباغم أو ابن عرب شاه (٩٠١ هـ) فى كتابه فاكهة الخلفاء ، أو (لافونتين) الفرنسى فى أمثاله المشهورة . وقد يجىء المثل نثرا ، وقد يجىء شعراً ، وقد نظم المرحوم شوقى بك بعض هذه الأمثال للتعليم .

٢ ـ الخرافة Fairy tales : وتختلف عن المثل فى أنها تحكى عن مخلوقات صغيرة لطيفة تساعد الناس الطيبين أو الأولاد المساكين ، وقد تروى أعمال الجن والسحرة ، ولكنها تختص بالأعمال الجميلة التى تسدى لبنى الانسان من هذه القوى الخارقة مثل حكاية (ساندرلا) و (عقلة الصباع) ، وكثير من القصص الموجودة فى ألف ليلة وليلة ، وليس الغرض من هذه الخرافات الموعظة ، ولكن مداعبة الخيال والتسلية ، وهى محببة للأطفال ، وقد ذكرنا آنفاً علة هذا .

٣ ـ الحكاية Story : وهى حادثة أو حوادث حقيقية أو متخيلة ، لا تلتزم فيها القواعد الفنية للقصة ، بل يقصها الانسان كما يعن له ، وهذا النوع كثير الانتشار يتداوله الناس فى حياتهم المعتادة ، فيروون حكايات كثيرة عما رأوا وما سمعوا وقد يتخيل بعضهم الحكاية أو يختلقها لغرض يريده .

٤ ـ الأقصوصة Short stoy : وهى قصة تصور جانباً من الحياة يركز فيها الكاتب فكرة ، فلا يستطرد ولا يزيد عن المقصود ، ويشمل موضوعها كل نواحى الحياة الانسانية ، وسنخصها بالذكر فيما بعد .

٥ ـ القصة Novel : ويشترط فيها أن تكون نثرية تعرض صورة من الحياة الواقعية ، ولا سيما خلجات النفس الانسانية وعواطفها ، ولها فى محاضرتنا نصيب كبير .

٦ ـ الرواية Romance : وهى قصة خيالية منظومة أو منثورة بعيدة عن الحياة الواقعية ، أو هى القصة الخيالية المليئة بالعجائب والغرائب ذات الأسلوب الابداعى

الطليق ، والخيال الجامح التى تروى قصص الفرسان والأبطال ، وعجائب العلم ، وغرائب البحار ؛ وسنتعرض لها بالذكر بعد قليل. هذه أيها السادة: صور القصة كما يعرفها الأدب الغربى اليوم .

تطور القصة :

والآن نعود إلى بعض هذه الأنواع بشىء من التفصيل ، وسنقصر كلامنا على القصة والرواية، والقصة، القصيرة .

لا يعتبر نقاد الأدب الغربى فى عصرنا الحاضر هذه القصص الكثيرة التى ابتدأت بخفرع ، ورويت عن بوذا ، وجاءت من فارس والشام وبلاد اليونان وإيطاليا وبلاد العرب قصصا فنية ؛ إذ لم تكن متمشية مع القواعد التى اتفق الأدباء على أنها ضرورية للقصة الفنية وسنعرف بعد قليل شيئا عن هذه القواعد .

ولم تكن هذه القصص الأولى سوى حكايات تروى دون أن تتقيد بفن أو قاعدة ، وكانت هذه الحكايات فى الأغلب ممعنة فى الخيال ؛ لأن القاص توهم أنه لو ساق فى حكايته الحوادث المعتادة المألوفة ما وجد المعجبين به الذين يغدقون عليه المال ، ولهذا جاءت الحكايات القديمة والتى رويت فى العصور الوسطى حول الآلهة، وأبطال الأساطير ، فتروى الأعاجيب عن (الملك آرثر) وملوك الجن والشياطين ، وكانت هذه الحكايات تروى شعراً فى أوربا إبان القرون الوسطى ، لأن الشعر يرتفع بالكاتب أو القاص إلى حيث هذا الخيال البعيد ، وعلى أجنحته تطير عقول السامعين إلى أرض الجن والشياطين ، وهو أصلح من النثر فى التعبير عن الغريب الشاذ الذى يسمو على المألوف .

كانت هذه القصص تمثل جانبا من الحياة النفسية الحقيقة وإن لم تصور الواقع الملموس من أوضاع الحياة ؛ ذلك لأنها تغذى فى الناس أهواء ونزعات لا يغذيها عالم الواقع ، فهى فى ذلك كأحلام اليقظة أو أحلام النوم ، تحقق للحالم أمانيه التى لم يستطع تحقيقها فى دنياه ، فمغامرات الفرسان فى أساطير (الملك آرثر) ليست بالصحيحة، وليست بالباطلة ، فلا هى تصور ما يغامر به الفرسان فعلا فى الحياة الواقعية ، ولا هى بعيدة عما يتمناه الفرسان من مثل أعلى. هى تصور الفرسان كما ينبغى أن يكونوا فهى صحيحة

إن نظرت إليها على أنها أمنية تتردد فى أنفس الفرسان وأمل يبتغون تحقيقه ، وهى باطلة إن قستها بالحياة الواقعة الجارية كما هى .

ولذلك جاءت هذه القصص شعراً فى الأدب الغربى ، وخليطا من الشعر والنثر فى الأدب العربى مثل قصة عنترة والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، وفيروز شاه ، وعمر النعمان ، والأميرة ذات الهمة ، والبطال ؛ فقصة الظاهر بيبرس مثلا سجلت انتصار المسلمين على الصليبيين ، وتحدثت عن العلاقات التى قامت بين هذا الملك العظيم وبين الفدائيين المنتسبين لطائفة الحشاشين بالشام ، والذين هم أسلاف الدروز الحاليين

وقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر فى هذه القصص ؛ فان العواطف الدينية والحماسة القومية التى ألهبتها فى قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على أن يتملق هذه العواطف ، ويغذيها بما يلفق من أشعار وأخبار فى فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر ، وبما يبالغ فى صفات هؤلاء الأبطال ويهول فى معاركهم وانتصاراتهم .

ومن القصص التى كان لها شهرة عظيمة فى أوربا قصة (دون كيخوتى) الاسبانية(١) حول حياة الفرسان والأبطال . وقلدها الأدباء فى كل أمة ، ولكن لما ذهب عصر الفروسية فى أوربا ، ولم يعد الناس يرون مثلهم الأعلى فى حياة الفارس المغامر ، ذهبت عن تلك الأمانى حلاوتها وطلاوتها ، وأصبحت مجرد حكايات تروى عن حوادث خيالية غريبة دون أن تكون صورا مثالية تفخم الواقع وتسمو به ، وعندئذ تقدم كاتب نابغ مثل (مالورى) Malony فحول هذه القصص التى تدور حول فرسان الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة إلى نثر ، وذلك فى القرن الخامس عشر فكان هذا أعظم ذخيرة نثرية لقصص البطولة ، وكل الكتاب الذين تناولوا هذه القصص فيما بعد كان مصدرهم (مالورن) وقد أطلق الأدباء على قصص مالورى هذه (النثر الخيالى أو الابداعى) Prose Romance

---

(١) هذه القصة من تأليف سرفانتى الاسبانى سنة ١٦١٦ م وفيها يتهكم بأبطال الفروسية وأهم صفات بطلها سرعة البت فى الامور والتهور الى حد الجنون

وقد سبق مالورى فى هذا النوع فوجد فى القرن الرابع عشر رحلات السير جون ماندفيل ، ووجدت المدينة الفاضلة للسير توماس مور Utopia ولكن مالورى تناول قصص الأبطال التى كانت تروى شعرا قبله

وظهر كذلك نوع جديد من الأدب هو أدب الرحلات وقصصها ، وقد ابتدأ برحلة (ماركوبولو) الذى توفى سنة ١٣٩٠ إلى بلاد المغول ، وقد عاد إلى وطنه بعد عشرين سنة محملا بكنوز الشرق ، وأخذ يروى لأهل الوطن فى البندقية رحلته العجيبة فى تلك البلاد النائية التى لم تكن تعرف أوربا عنها شيئاً . وقد خلط الحقيقة بالخيال فسحرت ألباب الناس ، وأخذ المؤلفون ينسجون على منوالها ومن ثم انتشر هذا النوع الجديد الملىء بالأخبار المحوط بالغرائب والأسرار . وجاء بعد ذلك اكتشاف أمريكا وغيرها وظهر (كولمبس) و(فاسكودى جاما) وغيرهما ، وقويت روح المغامرة والمخـــاطرة بين الناس ، ورأينا أثر ذلك كله فى أدب العصر فقرأ الناس روبنسن كروزو (لدانيل ديفو) ، وكتب سويفت رحلات جليفر إلى أرض الأقزام وبلاد العمالقة .

وكل هذه الكتب كانت امتداداً لرواية البطولة ، ولكن فى صور مختلفة . وفيها حل النثر محل الشعر . بدأت القصة إذاً حكاية خيالية تروى الغريب الشاذ ولا تصور الواقع ، ومضت فى هذا الطريق عصوراً طويلة ، فحينما تنحى كتاب القصة عن التقليد القديم ، وسرد أخبار الجبابرة والأبطال الذين يعلون عن مألوف الرجال سدوا الفراغ بتهويل الحوادث التى صوروها . أجل ! كانوا يختارون لحكاياتهم أشخاصاً من الحياة المألوفة ، بيد أنهم سلكوا هؤلاء الأشخاص فى طريق من الحياة لا يشبه ما يسير فيه الناس ، فكأنهم استبدلوا شذوذاً بشذوذ ، وقد يختارون أبطال قصصهم أشخاصا من سفلة الناس يتسكعون فى الحانات ومباءات الفساد ، لكن العجيب أن هؤلاء الأبطال السفلة يأتون من العجائب مالا يقل غرابة وشذوذا عن فرسان الملك آرثر ، ومن الغريب أن مثل هذا التطور فى نظر الناس إلى البطولة ظهر كذلك فى الأدب العربى حين تقوضت أركان المجتمع على يدى المماليك والأتراك ؛ وعنى الناس بظلم الحكام وشراهة الجباة والرؤساء ؛ واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان

والقهر فحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة فى مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون السبل ويعيثون بالامن ، والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجاونهم إجلال الزعماء، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ، ظهر حينئذ ذلك القصص الذى يمثل الحياة بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافتها وجهالتها كقصة (على الزيبق) و (أحمد الدنف) و (حسن شومان)و (دليلة المحتالة) أو (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودى

ولم يلتفت الكتاب فى أوربا إلى الحياه المألوفة يصورونها بتفصيلاتها وأجزائها دون مبالغة أو تزويق لأن عادة الانتباه إلى الحوادث التافهة العابرة التى لاتحمل فى طياتها مغزى أو معنى لم تكن قد نمت عند الناس . ولكن هذه العادة أخذت تنمو فى بطء شديد فقد أثارت صور الحياة فى عصر شكسبير ومعاصريه اهتماما شديدا ، ولكنهم كانوا فى الحياة كالمبهوت الذى يعجب بكل شىء يراه لأنه جديد ولهذا صوروا من الحياة فتنتها وسحرها ، ولم يعنوا بجوانبها الفاترة الرتيبة . ولما انقضى عصر شكسبير ، أخذ اهتمام الناس يزداد رويدا رويدا بالتوافه من مقومات الحياة ، وقد ارتبط هذا الاهتمام بروح علمى ناشىء تمثل فى إنشاء الجمعية الملكية العلمية سنة ١٦٦٢ ، والبحث العلمى يوجه النظر الى الملاحظة الدقيقة الفاحصة فى أتفه الأشياء . وأقلها خطرا ، ثم الى تسجيل ماانتهت إليه الملاحظة تسجيلا هادئا عاريا عن كل تهويل ومبالغة ولكن ظلت القصة الواقعية حتى القرن الثامن عشر غير قادرة على الظهور ، فما إن أقبل ذلك القرن وأخذ يتقدم بأعوامه حتى اشتدت هذه النزعة فى تصوير النفوس المتباينة لأهل الطبقات الوسطى والدنيا ، لان زمام أمور الحياة أخذ كذلك ينتقل رويدا رويدا إلى أيدى هذه الطبقات ، ولم يعد من شأن الاشراف والنبلاء وحكام الاقطاعات تصريف الامور.ظهرت الطبقة الوسطى من رجال أثروا عن طريق التجارة ، ومن أجل هذه الطبقة الجديدة أخذ يكتب الادباء ، مثل (أدسن) و (ستيل) ، ولكن عالجوا الحياة عن طريق المقالة لاعن طريق القصة . ابتدأ أدب القرن الثامن عشر يوجه اهتمامه إلى الحياة الواقعية، وإلى أهل هذه الحياة كما يعيشون وينشطون ويفكرون ، واقترن بهذه الاتجاهات الادبية

ما قد نسميه مبادىء الشعور الديموقراطى ، وهو الايمان بقيمة الرجل الوسط الذى لايحتل فى الحياة مكانة ممتازة تلفت النظر

كانت أول قصة ظهرت فى الوجود تمثل هذا النوع الواقعى بعد أن جاهدت فى سبيل الظهور قرونا طويلة هى قصة (باملا) للكاتب الانجليزى « رتشردسن Somuel Richardson سنة ١٧٤٠ . والعجيب أن ظهور هذه القصة جاء كانه وليد المصادفة البحتة - على الرغم من تلك الجهود المتصلة والخطوات المتتابعة التى أشرنا اليها - سئل (رتشردسن) أن يكتب سلسلة من الرسائل تعين من لم يصب حظا من التعليم من رجال ونساء الطبقة الدنيا والوسطى ولما فكر فى الامر خطر له أن يكتب هذه الرسائل فى أسلوب قصصى فكانت قصة (باملا أو جزاء الفضيلة ، وماهى الا مجموعة الرسائل التى تبودلت بين فريق من الرجال والنساء ، وقد راجت رواجا عجيبا . وتلقفها الناس بشغف كبيرا حتى أن المؤلف تشجع فأخرج : « كلارسا هارلو Clarissa Horlowe فى ثمان مجلدات وقصة أخرى فى سبع مجلدات وكلها فى شكل رسائل ، ومغزاها تشجيع الفضيلة وحث الناس عليها

وقد ضاق أحد المحامين المشهورين فى القرن الثامن عشر ومن لهم تجارب فى الحياة أكثر من (ريتشاردسن) بمواعظ (باملا) وأخذ يسخر منها فألف كتابا جعل فيه أخاها يوسف أندروت Ioseph Andreios بطل الرواية ولكنه نسى غرضه الاصلى وأخرجها رواية مستقلة سنة ١٧٤٢ تاركا أسلوب (رتشردسن) وهو انشاء الرسائل ، وقص حكايته فى رواية مستقيمة لايفصلها الا فترات تكثر فيها المجادلات والهتافات متأثرا فى ذلك بأسلوب المقالة ، ولقد ملات قوة Fielding (فيلدنج) صفحات القصة بكثير من الاشخاص الذين تتدفق فيهم الحياة مما جعل قصته خطوة أخرى إلى الامام ، ثم أتبعها بقصة أخرى هى (توم جون) Tom Jones واسم بطل الرواية يدل على انه من عامة الناس

عدت قصة (باملا) القصة الاولى فى الآداب العالمية ، لأنها تعبر عن حياة الناس وشعورهم تعبيرا صادقا . ومنذ ذلك الحين أخذت القصة تتبوأ مكانة عالية فى نفوس الناس . أصبحت القصة تعكس كل شىء فى العالم الذى يؤثر فينا بعوامله ويقبض

علينا قبضة شديدة أكثر مما يفعل بنا عالم الخيال ، ومما زاد فى مكانتها أن عصر الديموقراطية الذى نعيش فيه رفع من قدر الطبقتين الوسطى والدنيا يجد نفسه منعكسا بكل دقائقه فى القصة صارت القصة تمثل الناس أنفسهم والمجتمع الذى يعيشون فيه، ولم تعد تلك الرواية الخيالية Romance التى تحكى عن أقوام بعيدين عن المجتمع أو عن حالات شاذة أو مغرقة فى الخيال بعيدة عن الواقع كما ذكرنا آنفا ؛ ولهذا كله صارت القصة أداة طيعة فى يد الكتاب ينشرون بها آراءهم السياسية أو الدينية أو الاجتماعية ؛ لأنهم يعلمون أنها أقرب الفنون إلى قلوب جمهرة القراء من أهل الطبقتين الوسطى والدنيا . تراهم يصورون فيما ينشرون من قصص هذا العالم نفسه ما يبشرون به من عقائد ومذاهب وآراء ؛ ليبينوا فى وضوح أنها طريق إلى السعادة التى ينشدها المجتمع ، أو تراهم يمثلون فى قصصهم هذا العالم بما فيه من عقائد ومذاهب وآراء ليبينوا أنها لو بقيت بغير إصلاح فالمجتمع مصيره إلى بؤس وشقاء .

ورأى نقاد الادب أن القصة اذا استخدمها كاتب ذو هوى فى بث آرائه ومعتقداته كان ذلك خطراً على القصة من ناحيتها الفنية ، لأنه لن يصور فيها العالم والناس كما هم فى الواقع ، بل سيبشر فيها بمذهبه ، بأن يبدى العالم فى الصورة التى يريدها له اذا ما اعتنق الناس مذهبه ، ومن هؤلاء الكاتب الانجليزى الشهير « ولز » الذى توفى منذ شهرين ، فقد لبث هذا الكاتب يمثل العالم الحقيقى فى قصصه حينا من الدهر ، ثم اتجه الى آرائه الاجتماعية لا الى الحياة كما تقع ، ومن هذا النوع روايته (آلة الزمان) التى ترجمها الاستاذ المازنى ، ويقول النقاد إن تأثير القصة الفنية فى قلوب الناس وعقولهم قد يكون أكثر وأقوى من قصة يستخدم فيها المنطق والبرهان .

على أن هذا الأدب الواقعى ، أيها السادة! قد أسيء فهمه واستخدامه فظهر فى القرن الثامن عشر كذلك كاتب مثل Smollett « سموليت » فى قصته « رودريك راندم Roderick Random » لم يكتف بما اكتفى به من تقدم فى تفسير كلمة واقعى بل أخذ يذكر الحقائق الغليظة التى يأباها الذوق المهذب المرهف ، مصوراً الحياة بغير حذف ولا تشذيب ، وهذا النوع من الأدب هو الذى عرف فيما بعد باسم الأدب المكشوف ، ويمثله اليوم فى انجلترا « د . ه . لورنس » ومن ذلك قصة

« ولد وحبيبات » Son & Lovers . والحكومة الانجليزية اليوم تطارد مثل هذا اللون من الآداب حتى أن « لورانس » لا يستطيع طبع كتبه ولا ترويجها فى انجلترا بل يطبعها فى فرنسا بالانجليزية ، وتهرب إلى انجلترا كما تهرب المخدرات لمن يريد قراءتها .

كان أثر القصة الواقعية فى الأدب الأوربى كله عظيما ، لأنه نبه الناس إلى أنفسهم ولقد حذت فرنسا حذو انجلترا فى كتابة القصة الواقعية . نعم ظهرت فى فرنسا قبل هذا محاولات لكتابة القصة النثرية التى تصف المجتمع من مثل (لابرنسيس دى كليف La Princesse De Clèves التى ألفتها (الكونتس دلافاييت) Contessa de Clafayette سنة ١٦٧٨ ولقد وصفت فيها وصفا قريبا من الواقع سلوك بعض الناس ومحادثاتهم ولا سيما المتعلمين منهم ، ولكن هذه القصة لم تترك أثرا فى الأدب الأوربى ، لأن النفوس لم تكن متهيئة لها ، ومحبة الناس للقصص الخيالية طغت عليها فلم تقدر قيمتها ، فلما ظهرت قصص « ريتشردسن » الانجليزى وقصص « فيلدنج » وكتاب هذه المدرسة الواقعية كان الشعور الديموقراطى ، وظهور الطبقة الوسطى قد شمل أوربا جميعها ، فاستجاب كتاب فرنسا لهذا النوع وتلقوه بشغف ، وظهر أثر ذلك فى قصة « لانوفيل هلواز » La Novelle Héloise التى ألفها ديدروت Diderot أو قصة إميل Emile التى ألفها روسو بمهارة كأنها حكايات ، ويبدو الغرض الخلقى واضحاً فى رواية « بول وفرجينى » التى ألفها برنارد دى سان بيير Bernard De St Piérre

ولكن القصة الواقعية لم تستمر فى تقدمها بل حن الناس إلى الخيال ، وليس هذا بدعا ، أيها السادة : فالانسان تتنازعه رغبتان ؟ يحب ما يدنو من فؤاده ، وما تألفه عيناه وأذناه ، أى يحب الواقع الذى يعيش فيه ، وهو فى الوقت نفسه يحن الى البعيد النائى الساحر بخياله ، الذى هو أقرب الى الاحلام منه إلى الحق والواقع ، أى أنه يحن الى فتنة الوهم والخيال الجامح ، لقد كان للجانب الخيالى الغلبة على القصة قرونا طويلة فهل ينتظر أن ينساها الناس سريعا ؟

وهنا ،أيها السادة ! تظهر حركة جديدة هى تهذيب للحركة الخيالية التى سادت الأدب قبل ظهور المدرسة الواقعية ، هذه الحركة الجديدة هى الحركة الأبداعية (الرومانتيكية) ، وذلك فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ ، وكان أول ظهورها فى ألمانيا لأنها كانت من الناحية السياسية ضعيفة كل الضعف ممزقة الى عدة ولايات ، وبلد هذا شأنه يحاول أن يعزى نفسه عن الحاضر بالماضى ، نراه يرفع من شأن ماضيه ، لأنه لا مجال للتفاخر الا به ، ثم أن الشعب الالمانى كان يشعر من جهة أخرى بأنه فى حاجة الى الوحدة التامة ، فتصبح كل الولايات الالمانية المتعددة دولة واحدة . وكان هذا الشعور قويا يختلج فى صدر الشعب كله ، فاندفع يعبر عنه الشعراء أولا ثم الفلاسفة ، ثم الكتاب ، وكان لابد لهم من نموذج فى الماضى يثير حميتهم ويدفعهم الى تقليده فى المستقبل ، أو يشيع فى نفوسهم شيئا من العزاء ، فعكفوا على الماضى يقدسونه لينسوا به الحاضر ، ذلك الماضى أيام أن كانوا أمة واحدة فى عهد (أوتو الاكبر) أى فى أيام الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة .

وأهم ماتدعو اليه هذه المدرسة زج الفرد فى الامة ، وخضوعه خضوعا تاما لسلطان الدولة والكنيسة ، وأنه يحيى الماضى كله فى نفسه ، ويرون الله حالا فى كل شىء باديا أثره فى كل مخلوق ، بل يجدون الطبيعة كلها كائنا عضويا حيا سرت فيه روح الله ، والكون كله هو النسيج الحى للأبدية ، كما يقول (جيته) . ولم تقتصر هذه الحركة على التأثير فى فلسفة الحياة ، بل شملت عالم الاقتصاد فطالبوا بألغاء مبادىء (آدم سميث) الديمقراطية ، وطالبوا بألغاء حرية التجارة والصناعة ، وبوضع الحياة الاقتصادية كلها فى يد الدولة ، وبار جاع نظام الطبقات الذى ساد العصور الوسطى محاربين بذلك الرأسمالية الفردية التى نتجت عن تعظيم الفرد فى المدرسة الواقعية .

وأهم خصائصها فى الفن والأدب إحياء ذكريات الماضى وتسريح الخيال فى هذه الذكريات ، والاشياء فيها محتملة الوقوع أكثر مما كانت فى الرواية الخيالية الاولى ، ولكن فيها أشياء لا تزال خارقة للعادة حول الحياة بصفة عامة ، وأسلوبها طليق ينم عن شخصية كاتبه ،ملىء بالخيال والمبالغات ، لان كلمة (رومانتيك) يفسرها القاموس بالكذب ، والمبالغة ، والخروج عن المألوف والعاطفة والخيال . ومن

خصائص الرواية — وهو الاسم الذى عربنا به كلمة (رومانس) Romans لتميزها عن القصة الواقعية Novel أن بطل القصة غالبا مايكون شاعرا ينطقه الكاتب بالشعر، حتى يهيج شعور القارىء بشعره ، وتحتوى على الوصف والسرد والنقاش والعبارات الشعرية ومن أشهر كتاب هذه القصة فى القرن التاسع عشر (سيرولترسكوت) Sir Waltar Scot ١٧٧١ — ١٨٧٢ م .

وقد حاول جهد طاقته أن يجمع بين الايهام بالواقع وبين روعة الخيال وسحره فكانت القصة التاريخية سبيله الى غايته المنشودة فقصته (قلب الأسد) تجرى مجرى الخيال الذى لا يرتبط بالواقع بصلة قوية .

كانت الغاية التى وضعها (سكت) نصب عينيه أن يؤلف على نحو ما عناصر الخيال وعناصر الواقع فى صعيد واحد ، لكنه لم يصب توفيقا فيما أراد ، لان معرفة الدقائق التى أحاطت بالبطل التاريخى متعذرة أو مستحيلة ، وهذه الدقائق هى لحمة القصة الواقعية وسداها ، فكلما أمعنت القصة فى الماضى لاختيار موضوعها كانت أبعد عن مجالها لبعدها عن جو الحياة بتفصيلاته وظروفه .

كانت بعض روايات (سكوت) تمت إلى الحروب الصليبية أو عصر الملكة الياصابات أو عصر (كرومبل) ، وكتب بمجموعة من القصص عن الحياة فى سكوتلاندة موطنه أهمها (جاى مانرنج) Guy Mannaring ، وكتب رواية لا تبعد عن عصره أكثر من ستين عاما هى « ويفرلى Waverly » وهو فى هذه الرواية أكثر توفيقا من الناحية الفنية منه فى رواياته التاريخية ، لأنه استطاع أن يستعيد جو الحياة التى يحكى عنها ، إذ لم تكن قد طواها الماضى البعيد فطمسها، روايات (سكت) حافلة بالروح الرومانتيكى تريبنا الحياة بمنظار الخيال لا الملاحظة ، وتوضح الحوادث أكثر من الشخصيات والحياة ، ويعترف نقاد الأدب أن لرواياته فتنة وسحرا، فقد استخدم فيها النثر على نحو بلغ من الجودة حدا استطاع به أن يخلع على الحوادث الخيالية العجيبة رداء شبيها بالواقع ، وعلى الرغم من أن براعته هذه تترك فى قارئه أثرا قويا بأن هذا الذى يقرؤه لا يتم له الكمال الا إذا جرت به براعة شـــاعر

لأنه يحس أن الكلام الذى يطالعه كأنما ينقصه الوزن والقافية — على الرغم من كل هذا لم يرض نقاد القصة .

وجدت الحركة الأبداعية هذه صدى لها فى انجلترا على نحو ما رأينا عند (سكت) وفى فرنسا على يد (الكسندر ديماس Demas فى رواياته (الفرسان الثلاثة) و (بعد عشرين سنة) و (الكونت دى مونت كريستو) وغير ذلك من الروايات التى تحكى حياة أبطال عصر الفروسية والملكية فى فرنسا ولا سيما عصر لويس الرابع عشر بيد أن هذه الحركة الأبداعية ، وجدت مقاومة شديدة من كتاب المدرسة الواقعية ، وأخذت المدرسة الواقعية تشتد وتعظم حتى طغت على المدرسة الأبداعية مدرسة الخيال والذكريات . وساعد الحركة الواقعية انتشار الصناعات وسيطرة الآلة . فصرفت النظر عن كل بحث خارج عن الواقع أو وراء الطبيعة معتبرة إياه عبثا لاطائل تحته وظهر من أبطال هذا المذهب فى فرنسا الفيلسوف الفرنسى (أوجست كومت) وكان مدرسته فى كلية الهندسة وحمل لواءها فى انجلترا (هربرت سبنسر) وكان كذلك مهندسا اشترك فى إنشاء أول سكة حديدية بانجلترا فعلاقة المدرسة الواقعية بالآلة متينة ، وأصبحت لغة المذهب الجديد فى جميع شئون الحياة لغة المادة ولغة الآلة ، ولم يعد للروحانيات أى مظهر ويقول (أوستفالد) : (إن الغرض الأعظم من الحياة هو أن يهيء أحسن الأحوال لتحول الطاقة الموجودة فى العالم . وانتهى النزاع بين الحركة الأبداعية والواقعية بانتصار الثانية وحدوث كارثة هى الحرب العالمية الأولى) .

أما فى عالم القصة فقد كان من أنصار المدرسة الواقعية بفرنسا (بلزاك) الذى فهم أن وظيفة القصة هى أن تخط صورة مستمرة محايدة للحياة الانسانية المتأثرة بالانفعالات النفسية ، وعاضده فى هذا الكاتبة الشهيرة التى اختارت لها اسما مستعارا هو « جورج ساند » وعرفت به فى عالم الأدب ، ثم توجت المدرسة الواقعية بفرنسا بالنابغة « جى دى موبسان » .

أما فى انجلترا فقد قاومت من أول الأمر الحركة الرومانتيكية ولم ينسج على غرار السير (ولتر سكوت) إلا قليلون ، بل كان معاصرا له يغذى الأدب الواقعى

وينميه الكاتبة الشهيرة جان أوستن ١٧٧٥ — ١٨١٧ ، وإن كان ميدان ملاحظتها محدودا ، لأنها لم تتعد وصف قريتها ، ولكنها كانت تصور الحياة كما تراها بدقة وعطف وتعتبر اليوم من أكبر كتاب القصة .

ثم جاء كاتب آخر له شهرة عالمية هو «دكنز» فوصف بيوت الفقراء واللصوص وصغار الحوانيت ، والسجون وكانت قصصه مرآة للحياة كما تجرى وكما تبصرها عيناه ، لكنه إذا ما صور شخصا عمد الى المبالغة فبعد عن الواقع لم يكن يصور رجاله ونساءه كما يشاهدهم فى الحياة الحقيقية فى مجموعها بل يصورهم فى لحظات من حياتهم يختارها ثم يمط تلك اللحظات ويمدها حتى يجعل منها حياة بأكملها ، فشخصياته خيالية ، وظروف الحياة التى يقدمها واقعية وهذا ما يقصده النقاد بقولهم إن « دكنز » يصور شخصياته تصويرا « كاريكاتوريا » ولا يرسمهم رسما مطابقا للواقع .

ولكن « ثاكرى » و « جورج إليت » و « توماس هاردى » وللأخير رواية مترجمة هى (تس) تمثل هذا الأدب الواقعى ، وفيها يدافع عن فتاة ريفية سقطت سقطة أخلاقية وهى « تس دى ديبرفيل » .

ولكن الذى وجه القصة توجيها جديدا تحتفظ فيه بواقعيتها وتضيف الى تلك الواقعية رحابا فسيحة من الخيال الواقعى أخوات ثلاث « املى » وشارلوت وآن برونتى ، فقد جعلن موضوع القصة ما يألفه الناس جميعا من شئون الحياة ولكنهن يخترنه بحيث يصلح مع ذلك لأن يحتمل أغرب النواحى وأبعثها على الدهشة والعجب

وانتهى القرن التاسع عشر والقصة تتراوح بين الخيال والواقع ولكن مدرسة الواقع تغلبت فى النهاية ، غير أن الخيال اتجه اتجاها عجيبا هو الخيال العلمى ابتدأ بكتابة أوسكار وايلد روايته « دوريان جراى » التى شهدناها على الشاشة البيضاء منذ عهد قليل ومن هذا النوع روايات « ويلز » « مملكة العميان » و« آلة الزمان » و « الرجل غير المرئى » وفى فرنسا ظهر أمثال « رينارد » وفى ألمانيا « هينرخ مان » وغيرهم يغذون هذا اللون من القصص الخيالى المبنى على العلم .

وقد كنت أود أن يتسع لى الوقت فأصل بتطور القصة إلى نهايتها وأتكلم على المدرسة النفسية والقصص ذات الغرض والقصص الشعرية وغير ذلك ؛ ولكنى أخذت فى كلامى أشهر مدرستين ينطوى تحتهما كثير من المدارس الاخرى وهما المدرسة الأبداعية والمدرسة الواقعية .

كيف تنشأ القصة : أعترف أنى لا أستطيع فى هذا الجزء القليل الذى يفى لى من الوقت أن أوفى بناء القصة حقة من الدرس ، ولكنى سأجتهد أن أذكر أهم ما يحتاج اليه منشىء القصة من ملحوظات وأقصد طبعا القصة الطويلة الواقعية .

فقد اشترطوا فيها (١) أن تكون نثرا (٢) وألا تقل عن خمسين ألف كلمة وقد تصل الى أربعة ملايين كلمة كقصة بلزاك مهزلة إنسانية Cord De Humain (٣) وللقصة كلها عنوان واحد ويصح أن يكون فيها حوار ، ولكنه يختلف عن حوار المسرحية بأنه حوار وصفى (٤) ويجب أن يستشف موضوع القصة من عنوانها وينبىء عن ركن من أركانها أما الشخصيات أو الحوار أو البيئة مثل قصة احساس وشعور Sase Lsorslilty لجان أوستى . ويوسف أندروز لفيلدنج أو منزلة الشانيز لبلزاك أو سخريات الحياة لتوماس هاردى Lifés Lille irouies

وفى مقابل هذا الاطار الخارجى للقصة يوجد هيكلها الداخلى والكلام عليه يتناول .

أولا البيئة Setleigs . وللبيئة الزمانية والمكانية والظروف التى حدثت فيها حوادث القصة أهمية خاصة لأنها تبعث الاهتمام فى القارىء ، وتحدد له الحوادث وتساعده على ايهامه بما سيحدث فيبعث عنده اللذة وتعين على وحدة القصة وجمالها والناحية الانسانية فيها .

وزمان القصة قد يكون سنة تقليدا للملاحم التى كتبت فى عصر النهضة Rairasses وقد يكون — كما هو الاغلب حيلا من الزمن تكتمل فيه حياة البطل — وعلى العكس من هذا القصة الصغيرة فهى تتناول ناحية من حياة الشخص وجزءا محدودا من عمره . وعلى كل فمتوسط الزمن الذى تحدث فيه القصة أطول من المسرحية والقصة القصيرة (الأقصوصة) ، لأن المسرحية يحدد لها زمن لا يزيد عن أربع وعشرين ساعة وهذا لا يتأتى فى القصة بحال ما وليس من الضرورى أن يعين المؤلف الأيام

والليالى والفصول التى تقع فيها الحوادث ، وإن كان النهار عادة هو زمنها المصطلح عليه ، بيد أن روايات البطولة التى تتخذ من الليل مسرحا لحوادثها ، وكذلك روايات الغرام فالليل للأولين برهبته وظلامه وخفاياه يزيد فى أظهار بطولتهم ، وللآخرين زمان التفكير والأحساس والآهات ،

وقد يكون لتغيير الزمان الفجائى أثر بالغ فى القصة وقد يكون التغيير لأظهار الموازنة بين الحادثة والزمان كأن يموت البطل فى يوم أحد صحو - وهذا طبعا حدث كبير فى أوربا ولا سيما أيام الشتاء - وقد تظلم السماء وترعد وتسح المطر سكا مشاركة فى المصاب بموت بطل الرواية .

أما المكان : فلم تخضع القصة أبداً للوحدة المكانية كما خضعت المسرحية ، والقصة القصيرة ، وإذا نظرنا إلى الرواية الخيالية وجدناها تتعدى الأمكنة ولا تتقيد بها ، فقد تهيىء أمكنة مثالية لا وجود لها فى الواقع فهناك روايات اختار المؤلف مكان حوادثها جوف الأرض كرواية ستيفنسن (جوف الأرض) The Centre of the Eartt أو النجوم أو الجنة أو جزراً لا مسمى لها فى بحار لا وجود لها أو فى بحار بعيدة مجهولة .

أما القصة الواقعية فتختار الأمكنة ذات المشكلات الاجتماعية مثل لندن فى روايات دكنز ، وباريس فى قصص بلزاك وفى غالب الأحيان تعقد الموازنة بين حياة المدينة المعقدة وحياة الريف البسيطة .

أما الأمكنة الصغيرة فتختلف كذلك بحسب القصة ففى الرواية الخيالية نرى قصر الأمير ، أو صومعة الراهب ، أو الحصون الأقطاعية بحجرها المسكونة بالجان مكانا للرواية ، وقد جابت الرواية الخيالية البحار والقفار والجبال والغابات.

وقد استخدمت القصة الاجتماعية السجن ووكر اللصوص ، وحانات الشراب ، والقصة الاجتماعية استخدمت المنزل ، المكتب والمسرح وقاعة المحكمة والحدائق والشوارع . إن المجتمع الحديث يأكل وينام ويتزوج ويتزاور ويتعبد ويموت فى البيوت . ولهذا جنح الكتاب الواقعيون إلى اتخاذ عناوين قصصهم من الأمكنة

مثل حانوت أهم العاديات لدكنز Old Cevuosity Sly والبيت الصغير فى النجتون، وكابينة العام سام لمسز ستو Mrs H. B. Stou ١٨١١ - ١٨٩٦ الخ

أما ظووف القصة فيختلف باختلاف مدارسها الأدبية فمدرسة زولا مثلا تحقر التجارب الانسانية مهما عظمت إذا قيست بأعمال الطبيعة . وكثير من كتاب القصة ينزعون نزعة تصوفية ، وبعضهم يخضع عمل الانسان وتصرفاته مهما حقرت لقوانين خلقية مثل « جورج أليت » .

وفى الرواية التاريخية تذكر أحوال المجتمع إذ ذاك من سياسة ودين واقتصاد وغير ذلك وقد تتناول ظروف القصة نفسية أحد الشخصيات . وللجو طبعا مكانة ممتازة فى القصة الأدبية بتغيره أو انسجامه مع حوادثها ، وكثيرا ما يكون لليالى القمرية ومناظرها الفتانة مكانة عظيمة فى الروايات الغرامية . ومن المألوف أن يتقدم التعريف بالبيئة من زمان ومكان وظروف فى الفصلين الأولين ، على ألا يكون ذلك وصفا بحتا وإلا مل القارىء ، بل يتقدم ذلك ممزوجا بالحوادث وهى بعد فى أولها قبل أن تتعقد وتشتبك .

ويلى ذلك فى البحث الخطة plot ، ولا بد فى أية رواية متينة البناء من خطة ، أما ضرورتها فلأن العقل يميل دوما إلى ربط الحوادث بعضها ببعض ، وتكون هذه الخطة مثالية ، لان الخيال هو الموهبة العقلية الوحيدة التى تستطيع أن تقوم بهذا الربط ، وبخاصة فى أية سلسلة من التجارب الفردية أو الاجتماعية يتطلب العقل أو يحاول تحويل التفصيلات المبعثرة المضطربة إلى مجموعة ذات مغزى واحد .

والخطة عادة تتكون من خيط رئيسى من الحوادث وبعض الخيوط الثانوية تجدل كلها معا . وكل خيط من هذه يتألف من عدة حوادث تمهد لما بعدها وتكون سببا لها ، وأحيانا تبتدىء القصة عكسيه فتبتدىء بالنتيجة وترجع الى الحوادث وقد يجد مايقطع هذه السلسله من الحوادث ولكنها فى آخر الامر تصل الى أوجها.

ولعمل الخطة يسأل المؤلف نفسه : هل يريد أن يكتب الحوادث مفصلة ؟ هل ستقع حوادثها فى زمن طويل . هل ستكون فيها شخصيات كثيرة . أو العكس

من هذا . ولابد أن تكون لديه الخطة كاملة قبل البدء فى الكتابة حتى لايدخل فى القصة ما يقطع وحدتها وانسجامها واطرادها :

وقد وصف (ستيرن) القصصى الانجليزى فى القرن الثامن عشر فن القصة فحصره فى مهارة الكاتب فى الاستطراد بحيث لايعوق هذا الاستطراد تطور الحوادث وسيرها ؛ بل يسير الاستطراد والتقدم بحوادث القصة جنبا إلى جنب رغم مايبدو فى هذا القول من تناقض . فيكون الكاتب مثلا بصدد شخص يحكى عنه . ثم يعترض الحكاية شخص آخر أو حادثة فينحرف الكاتب الى هذا الطارىء الجديد على شرط ألا يسهو عمن كان يحكى عنه . بل يتذكره بلمحات بارعة آنا بعد آن بحيث تزيد صورته فى ذهن القارىء وضوحا ورسوخا حتى يعود إلى حكايته من جديد بعد فراغه من استطراده الطارىء ثم يلى هذا الكلام عن شخصيات القصة . ويختلف عددهم تبعا لنوع القصة فالاجتماعيات قد تكون معرضا للشخصيات المتباينة حالاتهم فيكثر الاشخاص نوعا ما . بينما يقل عدد الاشخاص كثيرا فى الرواية النفسية حتى يتمكن المؤلف من تحليلها . ولابد أن يكونوا من صميم الحياة ، ويستحقون الدراسة والمعرفة ، ولايصح أن يكونوا دمى خلقها خيال الكاتب وتصوره . وإذا ظهرت شخصية ما فى صورة معينة كشخصية حلاق مثلا أو شخصية ملك فيجب ألا يصدر عنها ما يناقض حالتها تلك ، سواء أراد المؤلف ذلك أم لم يرده . وعلى هذا فالشخصيات هى التى تحدد خطة القصة وقد توجد شخصية رئيسية فى القصة توحد بين شخصياتها الاخرى وبين حوادثها مثل دافيد كوبرفيلد لديكنز وروبنسن كروزو أو قسيس ديكفيلد أوتس ، وقد تكون هناك شخصيتان رئيسيتان يعنى بهما الكاتب ، ويكثر ذلك فى قصص الغرام ولكن إحدى الشخصيتين تتغلب على الأخرى عادة . وتصر المدرسة الواقعية على أن يدع المؤلف الشخصيات تفصح عن نفسها ، وأن يقف سلبياً بالنسبة لها جميعاً ، ولكن قلما تتحقق هذه النظرية ، فالمؤلف لايستطيع بحال ما أن يسوى بين الشخصيات المختلفة فى حبه لهم وعنايته بهم . وقد يؤدى هذا الموقف السلبى إلى إظهار الكاتب بمظهر المعادى لبعض الشخصيات كما يفعل « جورج أليت » . والواقع أن المؤلف لايمكن أن يتجرد من إحساساته فهو يحب بعض الشخصيات ويكره بعضها .

وفى الرواية التاريخية لا بد من دراسة وافية للمجتمع والعصر حتى تكون الشخصيات قريبة من الحقيقة بقدر الامكان ، وقد رأينا مافعل « سكون » ومارأى النقاد فيه .

ولنتكلم الآن عن العقدة . مجموع القصة يشبه إلى حد ما المسرحية ، تمهيد للشخصيات ، وإغراء ثم صعود بالحوادث وتحرج وهبوط ، ثم حل لها . وهكذا القصة تستفيد من الحوادث والبيئة لتظهر الشخصيات ، ومن المفاجأة والتشويق لنحافظ على الاهتمام .

والعقدة قد تكون موزعة فى نواحى القصة بحيث يعجزك أن تضع عليها إصبعك فى أى مكان منها . وفى الغالب تكون قرب الحل . والخطة كلها بحوادثها وأشخاصها يجب أن تهيىء للعقدة بحيث تدفعها إلى الأمام حتى تصل بها إلى غايتها ، والعقدة الممتازة هى التى تجمع الخيوط كلها وتربطها بالخطة العامة ، مع أن لهذه الخيوط من الحوادث عقدها الصغيرة ، ولكنها كلها تهيىء للعقدة الرئيسية للقصة .

وأخيراً يأتى الحل . ولا قصة حل حتى وإن كانت عقدتها واهية أو غير موجودة ، ولا عبرة بما يقوله بعض النقاد الواقعيين بأن حل المشكلات لا يحدث فى الحياة وإنما يحدث فى القصص . وكبار كتاب القصة اليوم يتركون القارىء يشعر بأن القصة التى قرأها تمثل فصلا من فصول الحياة دون أن تنتهى إلى حل ، لأن قوانين الحياة وأعمالها مستمرة فى نظرهم ، ولكن تستطيع أن تتصور القوى المادية والاجتماعية فى أداء مهمتها ، وتفسر فى نفس الوقت الحوادث حسب تجاربنا ، فقد يكون الزواج نهاية عقدة من العقد ، كما فى الرواية الغرامية ، وهو فى ذاته بدء مشكلة جديدة وعهد جديد ، وعقدة جديدة .

وقد يكون موت البطل نهاية عقدة من العقد ، وهو فى ذاته بدء مشكلة لأسرته وأتباعه ... الخ ولكننا نجعل الموت والزواج حلا مناسباً للقصة . وكثيراً ما تكون الحلول مصطنعة كأن تكون مفرحة أو محزنة تبعاً لغرض المؤلف ، وتملقه للجمهور أو عدم تملقه .

وهناك أسئلة عامة يوجهها الناقد للقصة لنفسه قبل النقد من مثل : «١» هل اسم القصة موافق : «٢» ما الغرض الأساسى من هذه القصة : «٣» ما العقدة الرئيسية فى

القصة . «٤» ما العقد الثانوية «٥» كيف تتصل العقد بعضها ببعض . «٦» ما أظهر عناصر القصة ؟ الخطة ، أم الشخصيات أم البيئة ، وهل هى سواء فى الظهور ؟ «٧» إلى أى حد تتوقف الحوادث على أساس القصة . «٨» كم عدد الشخصيات ؟ وهل هى كثيرة أو قليلة ، وهل هى من صميم الحياة . «٩» من البطل ، ومن البطلة : «١٠» ما أهم نقطة تثير الاهتمام . ما مواضع التشويق والاثارة والمفاجأة . «١١» هل القصة ممتعة : «١٢» أتسميها ابداعية أو واقعية . «١٣» أتحب أن تقرأ سواها لمؤلفها «١٤» هل هناك شخصيات أو حوادث لا تدفع القصة نحو التحرج . «١٥» ما الخيط الرئيسى فى القصة . «١٦» ما الأسباب التى دعت المؤلف كى يظهر كل شخصية من شخصيات الرواية «١٧» هل تقوم الشخصيات بعمل أشياء بمحض إرادتنا أو يدفعها المؤلف دفعا للعمل حتى يوافق هواه وما فى نفسه .

نقـــد القصـــة

ويستطيع الناقد أن يميز القصة الجيدة من غيرها بوضع هذه الأسئلة أمام ناظريه :

١ ــ هل اسم القصة موافق ؟
٢ ــ ما الغرض الأساسى من هذه القصة .
٣ ــ ما العقدة الرئيسية فى القصة ؟
٤ ــ ما العقدة الثانوية ؟
٥ ــ كيف تتصل العقد الثانوية بالعقدة الرئيسية ؟
٦ ــ ما أظهر عناصر القصة ؟
٧ ــ إلى أى حد تتوقف الحوادث على هيكل القصة .
٨ ــ كم عدد الشخصيات . وهل هى قليلة أم كثيرة .
٩ ــ هل الشخصيات من صميم الحياة .
١٠ ــ من البطل ، ومن البطلة .
١١ ــ ما أهم نقطة أثارت اهتمامك .
١٢ ــ بين مواضع التشويق ، والاثارة والمفاجأة .
١٣ ــ هل الكتاب ممتع .
١٤ ــ أتسميه روجا تطبيقيا أو واقعيا .

١٥ – أتحب أن تقرأ كتبا غيره للمؤلف .

١٦ هل هناك شخصيات لا تدفع الحوادث نحو التحرج .

١٧ – ما الخيط الرئيسى فى القصة .

١٨ بين الأسباب التى دعت المؤلف كى يظهر كل شخصية من شخصيات الرواية

١٩ – هل تقوم الشخصيات بعمل أشياء بمحض إرادتها أو يدفعها المؤلف دفعا للعمل حتى يوافق هواه وما فى نفسه .

الأقصوصه

أو القصة القصيرة

تختلف القصة القصيرة عن الرواية فى هيكلها العام ، وأوجه الاختلاف

١) لا توجد فيها شخصيات لا تقتضيها الضرورة الملحة والنتائج الفنية للقصة

٢) العمل فى القصة القصيرة يتم فى أقصر وقت ممكن دون أن يضحى بالتأثير العالى للقصة

٣) مناظر القصة لا تتغير

٤) هناك فكرة واحدة ، أو عاطفة واحدة تقدمها القصة وتضغط عليها وتسلط كل أشعتها ثمت حتى تبرز

٥) لا توجد كلمة غير ضرورية فى القصة ، بحيث إذا حذفت منها كلمة اختل المعنى

٦) هناك تجربة واحدة اختيرت للمعالجة بدلا من التجارب الكثيره التى تمر على المرء فى الحياة

٧) ليس هيكلها معقداً ، ولا العقدة متداخله فى عقد غيرها

٨) تقرأ عادة فى زمن وجيز حتى يحصل التأثير المطلوب

٩) الفقرة الأولى – بل الجملة الاولى – لها معنى خاص ومغزى فيما يتعلق بالقصة إذ تبعث الإهتمام وتجذبه

١٠) تنتهى القصة حينما تنتهى الغاية منها

١١) نهاية القصة منسجمة مع أولها ، لا تبسط أو تنشر فى الابتداء كزهرة فى كمها

١٢) تتبع القصة القصيرة عادة الوحدات الضرورية فى المأساة الكلاسيكية . الوقت ، والمكان ، والعمل . وعلى هذا فالضغط شديد جداً ، وقت واحد ، ومكان واحد ، وعمل واحد

١٣) لا يمكن الاضافة للقصة القصيرة المتقنة من غير إخلال بها ولا يمكن حذف أى جزء منها دون إفسادها

١٤) نقص القصة بسرعة دون أن نضحى بالاهتمام والغاية فى سبيل الايجاز

١٥) ومع أن القصة القصيرة تشترط ثلاثة عناصر . الاساس Setting والعمل والأشخاص فأحدها فقط هو موضع الاهتمام فى كل قصة

١٦) ولما كانت الحركة فى القصة القصيرة سريعة جدا وجب أن تدل الفقرة الأولى على أى عناصر القصة الثلاثة سيكون موضع اهتمام الكاتب الأساس . أو العمل أو الشخصيات

١٧) وفى القصة التى تهتم بالشخصيات يحصر الاهتمام فى شخصيات غريبة غير مألوفة ، بينما لا ينسى المؤلف الأساس أو العمل ولكن يجعل للشخصية المظهر الأول وفى القصة التى تهتم بالأساس يهتم بالمكان بينما يرسم العمل والشخصية رسماً حفيفا ، وفى قصة العمل يغطى هذا على كل شىء

ويقول الأستاذ كلايتون هاملتون Clagton Wamiltn فى تعليقة على ادجار آلن پو Edgar Allan Boe (يبتدىء قصة الأساس بوصف ، وقصة الشخصية بملاحظة يبديها حول بطل القصة ، وقصة العمل بجمله تنبىء عن حادثة . وزيادة على ذلك فإن جملته الأول تدل دلالة خفيفة خفية لبقة على الغاية أو الشعور الذى تنتهى عليه القصة كلها . ثم إنه ينهى القصة فى الوقت الذى يشعر فيه أن خطته التى رسمها من قبل قد تمت

ومع أن القصة القصيرة قديمة الوجود جداً فبعضها وجد فى التوراة إلا أنها لم يعترف بها كنوع من أنواع الأدب ، وأداة من أدوات التعبير الأدبية إلا بعد أن وضع إدجار آلن پو أسسها وقواعدها . ومنذ ذلك الوقت وكتاب القصة القصيرة يتبعون نفس الطريق الذى رسمه (پو) ، وكل قصة يحكم عليها اليوم تبعاً لهذه الاسس

وأحسن القصص القصيرة كتبت فى أمريكا وفرنسا مع أنه لم تخل مملكة أوربية من هذا النوع وأجود كتاب القصة فى امريكا هم : (پو) وهوثورن Haivthoin وأو هنرى O'Honry وهو الإمضاء المستعار Willion Sidney Porter وهنرى جيمس Henry James

وفى فرنسا أشهر كتابها موباسان Maupassont، (كوپى Coppee) وبلزاك وأنا تول فرانس

وفى انجلترا كبلنج Kipling وستيفنسن Stevenson

ومن أشهر كتاب القصة فى العالم بعض الروس مثل ترجنيف Turgenieff وتولستوى Tolstoi ، وفى النرويج بجرنسون Biornson

(السنة الثانية عشرة)

أكتوبر - ديسمبر ١٩٤٦ — ذى القعدة — محرم ١٣٦٦ العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

ع ١ ح ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب هناته

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

بسم الله الذى علم بالقلم ، وعلى بركة نبيه المعجز بروائع الكلم ، نقدم هذا العدد من « صحيفة دار العلوم » مزدانا بالوان من النثر المعجب ، وفنون من الشعر المطرب ، مما صدحت به لهوات أبناء كلية دار العلوم فى المهرجان الادبى الذى أقيم بمسرح حديقة الازبكية مساء الاربعاء ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣١٦ الموافق ٥ مارس سنة ١٩٤٧ ذكرى للمولد النبوى الكريم .

ولقد كان هذا المهرجان عكاظا ، ثانيا تبارى فيها شعراء الطلبة وناثروهم ، بما أجمع من شهدوا الحفل أنه أضاف إلى سجل الادب العربى عامة ، والادب النبوى خاصة ، صفحات خالدات ، يحق لكلية دار العلوم أن ترفعها إلى الملأ قائلة : « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

ولقد كان من مشرفى هذا الحفل : رجالات جامعة فؤاد الاول ، وأساطين المجمع اللغوى ، وشيوخ الازهر ، وأعلام وزارة المعارف ، ورؤساء العربية وكتابها .

وقد حدا بنا إلى تسجيل ما قيل فى المهرجان على صفحات هذا العدد جدارة رسول الله بالحفاوة واستحقاق مديحه للتسجيل

هذا وقد قدم الخطباء والشعراء فى هذا المهرجان ، الاديب « محمد محيى الدين الحلوانى » ممهدا بقوله :

« ذكرى تسبق الابد فى خلوده ، ويشع النور من محياها حياة على القلوب ، وينشر التاريخ عطرها على أعطاف الزمان ، كلما خطر يومها أو تراءى ذكرها . وصاحبها وإن كان الآن سرا يختلج فى خاطر الصحراء ، وصمتا يوسوس فى مسامع الثرى ، إلا أنه رمز القوة والفيض ، ومنبع الخلود والحياة فى الأرض .

وكلية دار العلوم القائمة على حماية لغة القرآن ، وحراسة الأدب والبيان ، تحتفل الليلة بذكراه ، فتقدم خطباءها وشعراءها ، يتبارون فى الاشادة بذكرى هذه الليلة ؛ يتصدرهم عاهلهم العظيم وعميدهم الكبير صاحب العزة الأستاذ « زكى المهندس بك » وقد افتتح عزته الحفل ، وتلاه بعض حضرات أساتذة الكلية من ناثرين وشعراء ، ثم أعضاء جماعة الشعر بأسرتيها « عكاظ والمربد » وها هى ذى كلمات وقصائد حضرات المشتركين فى هذا المهرجان مرتبة ترتيبها فى الحفل : —

كلمة الافتتاح

لحضرة صاحب العزة

الأستاذ زكى المهندس بك عميد كلية دار العلوم



سادتى

باسم دار العلوم أحييكم وأشكر لكم تفضلكم بتلبية دعوتنا ، ويسر الكلية أن تتقدم بالشكر كذلك إلى القائمين على هذا المسرح ، كما تسدى الشكر إلى حضرة صاحب العزة الدكتور محمد صلاح الدين بك لتذليله الصعاب حتى استطعنا أن نقيم هذا الحفل فى موعده .

إن أعيادنا ومواسمنا الدينية قد أصبحت أعيادا عامة يشترك فيها الناس جميعا، فلم يعد الاحتفال بذكرى المولد النبوى المبارك مقصورا على بضعة مظاهر رسمية ، يصحبها بعض مباهج شعبية من صواريخ وأراجيح وما إليها . فأنتم أولاء ترون أن الاحتفال بهذه الذكرى المجيدة ، يتناول الشعب كله ، بل الأمم الاسلامية جميعها . وما أجدرنا فى هذا الوقت العصيب الذى تجتازه مصر، أن نحتفى بمولد الرسول ، وأن نعنى بدراسة سيرة الرسول ، وأن نستمد الموعظة والعبرة من حياة الرسول ! وكلنا يعلم أن أبرز الصفات التى كان يتحلى بها صلى الله عليه وسلم هى الإيمان العميق برسالته ، والكفاح الشديد فى إقناع الناس بدعوته ، حتى استطاع هذا الدين الجديد، أن يكتسح عقائد قديمة ، وديانات موروثة ، وسبيله فى هذا كله ، الاقناع بالحجة الدامغة ، والتأثير بالحكمة البالغة . فلم تمض غير سنوات حتى أصبحت راية الاسلام تخفق على إيوان كسرى وملك قيصر .

فما أجدرنا — أيها السادة — بأن نقلب صفحات هذا الماضى المجيد ، وأن نجد فى حياة الرسول أحسن أسوة ، وأن نستمد منها أعظم قوة ، ونحن نتأهب لكفاحنا المنتظر !!

على أن حفلتنا هذه — أيها السادة — ترمى فوق الغاية الدينية الروحية ، إلى غاية أخرى أدبية . فقد نسج الأدباء والشعراء حول ميلاد الرسول قديما وحديثا أدبا خالدا ، يسر كلية دار العلوم — ومكانها من الدين والأدب ماتعلمون — أن تسهم فى هذا التراث الأدبى الخالد ، بما هى أهل له ، من علو كعب فى الدين ، وبراعة لسان فى البيان . . فحفلتنا هذه دينية أدبية ، تهدف إلى وصل الدين بالفن الأدبى ، ليكتسب الأول من هـــذا الاتصال حيوية وطلاقة ، على حين يفيد الثانى قداسة وخلودا .

والآن . يسرنى أن أخلى هذا المنبر للشعراء والخطباء من أبناء الدار ، لينفثوا عواطفهم الدينية فى رائع الشعر وبارع النثر ؟

الهمزية العصماء

فى مدح سيد الأنبياء

للأستاذ

عبد الغنى المنشاوى



رحمة الله والهدى والبهاء
فى نبى تزهى به الأنبياء
صاغك الله يامحمد نورا
شف عنه الأفعال والأسماء
لست من طيننا وإن تك منا
نحن أرض وأنت أنت السماء
عند بدء الوجود أشرقت نجما
منه كل الوجود بات يضاء
فهدى الرسل من سناك شعاع
ياكتابا وكلهم أجزاء
بشروا باجتلاء احمد والأنوار تبدو فى أنرهن ذكاء
سبقوا موكب الجلال كما تسعى تحيى مليكها الأمراء

✡ ✡ ✡

مولد كان للحياتين بشرى أسمعتنا ألحانها الانبياء
ولد النور فالعوالم نشوى أسكرتها الأنوار لا الصهباء
ولد الفضل فالحياة صفاء ولد العدل فالجميع سواء
ولد السعد يوم مولد «طه» فتهنوا يأيها السعداء

✡ ✡ ✡

مصطفى يفشر المكارم دينا دينه الصدق والوفا والحياء
مايضير اليتيم ؟ طيب سجايا ه هى الأمهات والآباء
خطبت ودها خديجة لما باركت مالها وزاد الثراء
عشت ماعشت رأس مالك تقوى والمعالى أكفاؤها الأتقياء
ياصدوقا منذ الصبا وأمينا جندك الصادقون والأمناء
لم تعفر لغير ربك وجها من رموز عبادها أشقياء
تجد الأنس عند وحدة نسك قم فحدث عن نسكه ياحراء
قبل وحى السماء أوحى لك القلب بدين له تدين السماء
ترهف السمع للكواكب باتت من جمال التسبيح وهى وضاء
وتخال النجوم تهوى سجودا لبديع من آيه الأضواء
فى جميع الأشياء تعبد ربا سبحته بصنعها الأشياء

* * *

قمت تبنى التوحيد لله دينا وتهد الأصنام فهى هباء
روع الشرك أن رأى لك قلبا ند عنه الأنداد والشركاء
ما لنيران فارس قدسوها وعراها على يديك انطفاء
علها اذ قرأت : « يانار كونى » قد تساوى شواظها والماء
وكأن النيران إذ عبدوها أدركتها خزاية وحياء
نعى القوم خلقها وقديما أنست الناس ربها الأهواء

* * *

زعموا دينك السفاهة ياها دى ألا إنهم هم السفهاء
إن يكنها فلم تحدى نهاكم ؟ أين أين الحلوم ياحلماء ؟!
أمن الحلم أن يضيق أخو الحلم بنور وعيشه الظلماء ؟
أمن الحزم أن يرد أخو الحز م دواء وكله أدواء ؟
أم من العقل أن تؤله أصنا م وهن الحجارة الخرساء ؟

كل من يرتضى الحجارة ربا عقله والذى ارتضاه سواء

* * *

يا أبا طالب رجيت لأمر ليس فى مثله يكون الرجاء
تسأل المصطفى سكوتا فترتد برد يمشى لديه القضاء
لو أتونى بالثيرين جزاء لسكوتى لقلت بئس الجزاء
إن دينا أنشاه ربى حياة للبرايا له حياتى الفداء

* * *

سنة الله أن يدين بدين اللـه قبل الأعزة الضعفاء
أقوياء عدوا عليه ضعاف وضعاف عدوا له أقوياء

* * *

يارسولا لدعوة الحق يحيا وينادى حتى يلبى النداء
دع ثقيفا وهديها كل هدى غير مجد مالم يجبه اهتداء
أوسعوا آى هديك استهزاء والضلالات أصلها استهزاء
أمعنوا فى الأذى وأغضيت صفحا والنبوات دأبها الاغضاء
جرحوا بالحصى أديما مفدى والحصى هده الأسى والحياء
مابذلت الدماء وحدك لكن جرحت من جراحك الحصباء
عجب الصفح أن يراك صفوحا وبظلم الباغى تصيح الدماء
هى تشكو وأنت تدعو بخير وجزاء العدوان منك الدعاء

* * *

ياطبيب النفوس طب لنفسى ولأهلى فأنت نعم الدواء
مسخت قبلك الديانات أيد فهى من بعد حسنها شوهاء
أنزلتها السماء للناس نوراً حجبته بمكرها العرفاء
تخذوا الدين مركبا لهواهم ساء صنعا وساءت الأهواء
أكلوا باسم دينهم دنياهم وهى نار إطفاؤها إذكاء
تخذوا من هوى النفوس إلها خاسر من إلهه الأهواء

أوهموا الطامعين فى غفر ذنب أنهم عن إلههم وكلاء
ثم باعوا الغفران والجنة الخضـــرا ومأواهمو لظى الحمراء

* * *

هكذا باتت الديانات سوقا خسرتهـا التجـار والحرفاء
ثم شن الاسلام حربا على الز يغ وجند الهدى هى الغلباء

* * *

بيد الله يارســـالة «طه» تم للحق والهـدى لألاء
وتداعى بنيان شرك خفى شاده بالوسـاطة الوسطاء
طالما حال بين عبد ورب عنده الصيد والعبيد سواء
وتسامت أرواحنا بتقاهـا لمليك ما إن له وزراء
فتح الباب للجميع ونادا هم تعالوا يا يهـا الاتقيـاء
فاخلدى فى النعيم يانفس فان فى اسمه فالفناء فيه بقاء

* * *

وعن الصابرين حي بلالا فلدى صبره يحـار البـلاء
أسكنوه الرمضاء كى يفتنوه وهو فى الخطب صخرة صماء
«أحد» وهى شغله شغلته فاذا النـار جنة خضراء
وكأن الرمضـاء اذ سمعتها أبردت حرها له الرمضاء
جسم عبد قد زانه نفس حر يتمنى أمثالهـا العظماء
قد شراه من العذاب أبو بكـــر ولله كان هـذا الشراء
فارفع الصوت يابلال وأذن بصـلاة تصغى اليك السماء
واسمع المصطفى يقول: أرحنى يابـلال بهـا: فنعم الدعاء
قصر الجاهلون فهى صـلاة وارتقى العـارفون فهى لقاء
همزة الوصل بين عبد ورب سرها لو علمت حاء وباء

* * *

أيهذا المسرى به وهو يقظا ن هناك المعراج والاسراء

خبط القوم منهما فى دياج من شكوك تعمى بها الزرقاء
وأبان الصديق من أضرب التصـــديق ما أعجبت به الأصدقاء
ليس يطفى نور النبوة ألا تبصر النور مقلة عميـاء

* * *

لسليمان قبل رد لطرف عرش بلقيس من سبا بك جاءوا
وله الجن والطيور وبسط الر يح تجرى بالأمر وهى رخاء
ولموسى تفلق البحر وازدا نت بأنوار ربها سيناء
وعصاه وارت بجوف عصيا وحبالا وهى العصا الصماء
فهوى السحر ساجدا يشترى الجنـــة مهما يصلب الابرياء
وبعيسى لله آى تجلت فى وليد وأمه العـــذراء
أذن الله فهو يخلق طـيرا ويرد الموتى وهم أحيـاء
كل يوم يجلو لنا الله سرا من اعاجيب ماظن انتهـا.
معجزات الأثير أو قسمة الذر ة فتح تعنو له العلمـاء
لاتقل فى سرى الحبيب لهـذا كيف تدنو أرض وتطوى سماء؟
شيئة الله أن تلاقى حبيب بحبيب والعرش تحت وطاء
فى مقام ما إن يدانيه ظن لا . ولا يرتقى إليه عـلاء
يعجز العقل أن يحيط بغيب فاحـذروه يأيها العقلاء
إن دستور أخلص الناس دينا يفعـل الله ربنـا ما يشاء

* * *

كتب السعد اذا دعوت لأبرا ر إجاباتهم هى الأصداء
صابروا رابطوا وفى الله أوذوا فى رضا الله حبذا الايذاء
كيف ترجو الأرحام وصل قساة رحم الدين بينهم قطعاء ؟!

* * *

بيتوا قتله بليـــل أتاه فى دجاه بالهجرة الايجاء
نام فى بردة النبى على كى تضل الأرصاد والرقباء
ومشى المصطفى يخوض المنايا والمنايا مشـلولة عميـاء

والصديق الصديق فى لهفة الأ م أصابت وحيدها الأعداء
فاسألوا عنه ظهر مكة يشهد أنه الحب خالصاً والوفاء
هاجر الكوكبان من وطن جا ر الى جيرة هم الحنفاء
فكأن الرسول قد قال لما جاذبته من شوقها البطحاء
وطن المرء دينه فدعينى دون دينى الآباء والابناء

* * *

أشرقا نيرين ياغار ثور ضم نوريها اليك ثواء
وأتى القوم يرصدون سرى النجم فأعماهم سنا وسناء
بذت العنكبوت بالباب بيتا وعلى الباب باضت الورقاء
أعلى قيد خطوة من رسول الله لا يبهر العيون ضياء ؟!
ويظل الارصاد فيه حيارى وبأنواره يضاء الفضاء
ولو أن الردى تسامى إليه لأمات الردى لديه القضاء
حسبك الله لا ترع يا أبا بكر فمن قال حسبنا لا يساء
آية الله أن تموت المنايا لتعيشا والله نعم الوقاء

* * *

يا رسولا صابرت فى الله حتى طامنت ظهرها لك اللأواء
أنت علمتنا دروس ثناء أوجبتها السراء والضراء
قد وجدنا بك العذاب نعيما وكثير نعماؤهم بأساء
كيف ننسى لربنا آلاء ؟ أنت والله هذه الآلاء
فى قباء أسست مسجد تقوى فاهنئى ثمت اهنئى ياقباء
خرجت يثرب لتشهد بدرا لم تزين بمثله العلياء
هز أوتار قلبها فتغنت فى جمال النبى يحلو الغناء
طلع البدر والصفاء علينا دمت يا بدرنا ودام الصفاء
وجب الشكر والثناء علينا وقليل فى مثل ذاك الثناء

أيهذا المبعوث بالأمر فينا لك فى الله طاعة عمياء
بارك الله يوم هل فصلى عيد لقياه جمعة جمعاء
جئت والخلف علة لقلوب أكلتها الأحقاد والبغضاء
فوصفت الدواء إكسير حب عنصراه تناصر وإخاء

* * *

أنت يا هجرة المدينة هجر للمخازى وللمعالى بناء
سكن الدين من أياديك عزا شاده الوافدون والنصراء
بشبا العزم غيل غول العوادى ويكفيه صيدت العنقاء
وبروح النبي ساد ولاء وبهدى النبي عم اهتداء
شاد حرية العقيدة صرحا أسسته الحرية الحمراء
يا لدين دستوره إقناع ودفاع عن نفسه لا اعتداء
لم تكن غير ذاك غزوة بدر شنها جاهلية جهلاء
يا عزازا فى قلة لا ترعكم ترهات وكثرة جوفاء
حصب المصطفى الجموع ولكن بيد الله كانت الحصباء
ودعا شاهت الوجوه فشاهت واستحالت كأنها أقفاء
ياجنود السماء أديت عنها نصر دين له تدين السماء
وبتأييدكم ملائكة الأر ض تلاشت من خوفها الأعداء
وإذا خاصم الملائك فى الله فيا خصمهم عليك العفاء
لذ طعم الحمام فى طاعة الله شهيد قد كفنته الدماء
لو يعود القتلى إلى الحرب يوما لتمنت أن تقتل الشهداء
هم سيوف آساد حرب على الخصم أشداء بينهم رحماء
أثخنوا خصمهم وشدوا وثاقا والأسارى فى شرعهم نزلاء
من يرى حسن رعيهم للاسارى يتمنى أن يؤسر الطلقاء
يا لها غزوة أثارت سيوف العدل فالظلم بعدها أشلاء
وعلى أس عدلهم بنت الدنيا فقامت حضارة وارتقاء

ياغزاة الأحزاب ماذا دهاكم ففررتم وأنستم الأقوياء
ذهبت ريحكم بريح أتتكم نكبتكم بشرها النكباء
وجنود من السما لم تروها مات رعبا من حاربته السماء
إنه الله وحده هزم الأحزاب سبحان من له الكبرياء

* * *

سورة الفتح بشرينا بفتح هو للصابرين نعم الجزاء
فتح الله مكة لرسول الله قهرا وما أريقت دماء
فنجوم الاسلام بالفتح باتت تتلالا والكعبة الزهراء
لمقام الخليل جاءت من القبر تهنيه بابنه حواء
طهر البيت من تهاويل شرك أنكرتها جدرانه الغراء
واستوى فى سمائه الدين شمسا تتمنى شعاعها الجوزاء
أسمح الرسل ضم أسمح دين عن حنيف أتباعه حنفاء
ما سمعتم نداءه فى قريش وهى حيرى إطراقها استخذاء
ما تظنون بى فقالوا : أمانا من كريم آباؤه كرماء
فتعالى صوت النبوة فيهم قد أمنتم فأنتم الطلقاء
ذاك خلق القرآن صفح جميل ليس من به ولا خيلاء
أحكمت آيه فلما تلتها وقعت سجدا لها الحكماء
كتب الله باركت هذه الدنيا نجوما ضاءت بها الغبراء
جاء بالفرقدين موسى وعيسى وأضاءت عن هدى « طه » ذكاء
شرعة الله للأنام ونور هنأ المصطفى به الأنبياء
من تلا آيه ونال هداها فهى والمصطفى له إشفعاء

* * *

إن هذا القرآن خلق عظيم لنبى دانت له العظماء
يا جودا تعلم الجود منه أن أرباب ماله الفقراء
ينفق البحر وهو ملح وتعطى وهى تبكى السحابة الوطفاء

وعطاء النبى عذب ضحوك فكأن المعطى هو الزهراء
يا حسام الحروب فى غير بغى قدست عدل سيفك الأعداء
رعت فى الله من يعاديك حتى خشيتك المنية الحمراء
ياعطوفا تعلمت منه أسمى عطفها الأمهات والآباء
ترحم البائسين حتى الأعادى فتنادى بعجزها الرحماء
ياحليما داويت بالحلم حمقا فارتدى فضل حلمك السفهاء
ياصفوحا ملكت بالصفح أحرا را نفوس الورى لديهم إماء
ياوفيا بوعده لايبالى بحياة لو يقتضيها الوفاء
لك فينا تراضع ظن منه مستميحوك أنهم عظماء
لك زهد قد باع بالدين دنيا هى للناس فتنة وبلاء
تبرها لا تراه إلا ترابا واللآلى فى شرعك الحصباء

***

كان من قبلك النساء متاعا فضلته عند الشراء الاماء
تورث الزج باسمه وهى إنسـان كأن النساء بهم وشاء
لو درت ظلم نسلها حواء وأدته ولم تلد حواء
فجعلت النساء فى الناس ناسا هن بالدين والرجال سواء
ما بغير النساء كان رجال ما بغير الرجال كانت نساء
يا معير الضعيف عزا وجاها حسدت عز جاهه الأقوياء

* * *

زعموا باطلا زواجك تسعا لهو قلب قد تيمته النساء
كذبتهم خديجة زوجة العمـر وما راع عيشها شركاء
لم تزوج لشهوة النفس لابل لتزيد الأشياع والنصراء
أو لشرع من السماء جديد فيه للناس رحمـة واهتداء
ماخطبت الجمال والمال لكن نصرة الدين خطبة وبناء
بعد سن الخمسين والله واق كيف تلهو بقلبك الأهواء ؟!

يازعيم الأخلاق حاشاك تهفو طأطأت رأسها لك الزعماء
أنت كنز من القداسات طهر ولو أن الانام طين وماء
عشت ماعشت أشتهى لك مدحا ما نعتنيه هيبة وحياء
يا جمالا عن جانبيه جلال ما يقول الثناء والاطراء ؟
عند باب المولى وبابك لايبـأس راج ولا يرد دعاء
كل شعر لوجه هذين حق وسوى ذاك باطل وهراء
ما لشعرى ولم يكن أخيليا مسه عند مدحك الخيلاء
شرف الشعر طرق بابك حتى حسدت فيك شعرها الشعراء

* * *

تحفـة من سواد عينى وقلبى وقليل منـه لك الاهـداء
ما تشكيت طول سقمى وأهلى فالتشكى كالكفر داء عياء
بل سألت المولى بمدحك برءا فجرى مسرعا إلينا الشفاء

* * *

جئت يا مصطفى وكلى ذنوب وعيوب قد شال عنها الغطاء
كلنا يارضا الاله إليـه فقراء عن غـيره أغنيـاء
فاسأل الله لى رضا ولأهلى فمن المصطفى يجاب الدعاء
وادع للمؤمنين يحيوا حيـاة لم ينلها من قبلهم أحياء
وتشفع فى والدى وفيهم ياشفيعا ما بعده شفعاء
وسلام عليك فى صـلوات ذات بدء وما لهن انتهاء

عبد الغنى الطنشاوى

ولد محمد فكان رحمة للعالمين

للأستاذ السباعي بيومي



ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان مولده للعرب ، النور الساطع على قوم تتقاذفهم الظلمات ، والغيث النافع لأناس تأكلهم السنوات ، وسرعان ما اهتدى الحائرون بنوره ، وأخصب الجائعون بغيثه ، وإذا بالعرب تخرج على العالم رسل هداية ورواد خير ، وإذا العالم يخرج من الظلمات إلى النور ، فتعمه الهداية والنعمة ، وتهبط عليه السكينة والرحمة ، تحقيقا لقول الله سبحانه فى نبيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

١ — جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب شتى المذاهب مختلفة المشارب ، فلا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم ، ثم هم فاسدو العبادة متعددو ألوانها ، فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن ، وما هو إلا حجر ينحته بيده وينقلب بعبده ، دون نفع يرجى ولا ضر يخشى ، ومنهم الصابىء عابد الكواكب والنجوم ، لا يرى فى أفولها نقصا ، ولا فى اختلاف أحوالها طعنا ، ومنهم المجوسى عابد النار والشمس ، يسجد لها فى طلوعها ، ويقيم بيوت النار تعظيما لشأنها ، ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين ، فاعل خير هو النور ، وفاعل شر هو الظلمة ، ويقولون إنهما قديمان باقيان ، ومنهم عباد الشياطين مخافة شرها وعباد الملائكة رجاء خيرها ، ثم منهم اليهود والنصارى ، ومنهم غير من ذكرنا ، فدعاهم إلى دين واحد هو دين الاسلام ، الذى أساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فبدأ تلك القواعد الخمس بالتوحيد ، وجعل الجهاد من أجله فرضا ، وآذنهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء إلا أن يشرك به حيث قال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وبهذا وحد بينهم فى العقيدة ، وجمعهم فى صعيد واحد للعبادة ، وكان هذا الاتحاد القلبى ، النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم حيث قال لهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .

٢ - وجاءوهم أسرى أوهام وخرافات ، يدينون بالعرافة والكهانة ، ويعتقدون فى الزجر والعيافة ، بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوابد ، كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم ، وكى الصحيح ليبرأ الأجرب ، وضرب الثور لتشرب البقر ، ووطء المقلات دم الشريف ليعيش ولدها ، ثم هم يستقسمون بالأنصاب والأزلام ، فيكفون عما أرادوا ويقدمون على ما كرهوا ، إلى غير ذلك مما ران على قلوبهم وغشى أبصارهم ، فانتزعه الاسلام منهم وانتزعهم منه ، وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم .

٣ - وجاءوهم مضطربو المعاملة خاسرو التجارة ، يأكلون الربا الفاحش ويلعبون الميسر المدمر . فحرم عليهم الربا حيث أحل البيع ، ونهى عن الميسر حيث نهى عن الخمر . ونظم لهم معاملتهم وتجارتهم ، حيث جعل لهم تشريعا مدنيا شاملا لم يسبقه مثله ولم يلحقه إلا ما هو منه أو هو دونه . فبدل من ظلمهم عدلا ومن فوضاهم نظاما ، وكذلك فعل فى التشريعين الشخصى والجنائى . وسائر التشريعات الاخرى ، مما لا يزال السمحة تعلو به سائر الشرائع ، وتمد العالم منه بالبرهان الساطع والنور اللامع ، الذى لا ينقطع ضوءه ولا يخبو شعاعه ، والذى لا يزال على مدى الايام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره ، فيعترف به الجاحدون ويرى بعد نظره المتبصرون ، وان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون

٤ - وجاءوهم غلظة دونها أكباد الابل . وقسوة أهون منها قسوة الحجارة . يقتلون أولادهم للفاقة بل خوف الفاقة . ويئدون بناتهم للقالة « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه

على هون أم يدسه فى التراب ، فنعى عليهم جفوتهم وشدد النكير على فعلتهم . إذ ختم سبحانه تلك الآية بقوله ، ألا ساء ما يحكمون ، وقال فى أخرى ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، فسلكها مع جسام الحوادث المخربة تهويلا لها وتبشيعا . ثم نهى عن قتل الاولاد فى كثير من الآيات كقوله سبحانه ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ، وقد أكثر صلى الله عليه وسلم مطالبتهم أن يكونوا كما كان ، أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم ، فكانوا كما أراد وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس فى الرائعة ، حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم . وآية ذلك عمر رحمة الله عليه ، فقد كان فى جاهليته أقسى القساة وأصبح فى إسلامه أرحم الرحماء . الا ما أجاب بشدته فيه داعى الدين . وهذا لا يتنافى مع الرحمة فى كثير ولا قليل .

٥ — وجاء وهم يدينون بالعصبية والقوة . يفنى كثيرهم قليلهم ، ويأكل قويهم ضعيفهم ، لا يزالون يوالون النهب والسلب . والابتزاز والغصب . تقوم بينهم الحرب لأوهى سبب ، ويطول على بقائها فيهم الامد . حتى تفنى بها كبارهم ، وتنقطع منها ذراريهم وأنسالهم ، ثم شطت بهم النعرة حتى جعلوا الفضل لهم على سواهم بالجنس ، وجعلوه فيما بينهم بكثرة المال وعزة النفر ، فأنكر عليهم ذلك حتى سوى بينهم وبين أنفسهم كما سوى بينهم وبين غيرهم ، وبهذا كان راية السلام يستظللون بظلها ، وآية الوئام يعملون على تأييدها ، فلا قتال الا فى نشر دين الله ولا غزو الا فى إعلاء كلمته ، وتم فى هذا السبيل توحيد كلمتهم ، وصاروا من أجله يدا واحدة على من سواهم فى غير تفاخر بالآباء والاجداد ولا تكاثر بالأموال والأولاد ، وبهذا أعلن مبدأ المساواة العامة تحقيقا لهذه الآية الكريمة (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ذلك المبدأ الذى لا يزال العالم بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا فى عجز عن تحقيقه ، ولا تزال الجماعات تلو الجماعات ، وآخرها هيئة الأمم المتحدة وفروعها ، تتعثر فى سبيل إقامته ، والله يشهد أن لا عجز ولا عثار ، إنما هو الزيغ فى العقيدة والطمع فى النفوس ، يقفان بقادة العالم فى الطريق ، ويقذفان فيه أمامهم بالقذى والاشواك ، ألا إنهم لو اتخذوا باخلاص

نية و هد عن المطامع- هذه الآية الكريمة دستورهم وقانونهم، لو جدوا الطريق إلى تحقيق المساواة العامة معبدا، والسير فيه الى توطيد سلام العالم سهلا هونا، تلك الاية التى حين نسبت الناس الى الاصول لم تلحظ الا الذكورة والأنوثة اللتين هما سبب الوجود فقالت، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وبهذا ضربت عرض الحائط بالأنساب والأحساب ، والتى حين أرادت أن تضع أساسا للتفضيل-ولا بد للعالم من تفضيل ، جعلته التقوى ، فقالت إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ثم التى أخذ منها صلى الله عليه وسلم قوله فى خطبة الوداع ، أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لادم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ،هذا وإن له صلى الله عليه وسلم فى تحقيق هذه المساواة لجهادا فيه الكثير من العظات .

١ — ففى سبيل القضاء على الجنسية،كان سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى، وبلال الحبشى،من أكرم صحبه عليه ، وفى سبيلها زوج زينب بنت عمته ابنة عبد المطلب سيد البطحاء ، من زيد بن حارثة مولاه .

٢ - وفى سبيل شد الأواصر بين المسلمين الأولين ، عقد المؤاخاة حين قدم المدينة بين المهاجرين والأنصار ؛ وفى سبيلها حول تلك المؤاخاة الخاصة الى أخرى عامة بين جميع المؤمنين تحقيقا لقوله سبحانه (انما المؤمنون أخوة)

٣ وفى سبيل توثيق العلاقات بين المسلمين وغيرهم،سن ما سن فى معاملة أهل الذمة والمعاهدين من حيث الجزية ، بل فى سبيلها لم يأخذ الجزية من أهل خيبر حين نزلت آياتها احتراما لعهد سابق كان منه لهم ولا جزية فيه قبل نزول تلك الايات

— وبعد —

فقد آن لنا أن نتجاوز هذه الناحية التشريعية ، الى الناحية الخلقية، التى ضرب صلى الله عليه وسلم للعالم فيها أحسن الأمثال،فكان الاسوة الحسنة والقدوة المثلى ، بل كان كما قال،بعثت لأتمم مكارم الاخلاق،على أن سعة هذه الناحية جعلتنا نتخير من دوحتها الباسقة الفروع الوارفة الظلال ، خلقين اثنين،هما الصبر والتواضع - وكلاهما فى الفضائل جماع - لنسوق عنه بعض الآيات

أما الصبر على عمومه ، ومنه الحلم عند المقدرة فكان عليه الصلاة والسلام بطل العالم فيه ، تحمل الصبر على بالغ الأذى ، وعفا وصفح على بالغ الذنب مع عظيم المقدرة، مرجحا دائما حق الله فى حدوده على حقه نفسه ، وهذى بعض الأمثال : —

شج قومه رأسه وفعلوا به الأفاعيل فى كثير من الحوادث وعلى طول السنين ، فكانت شيمته دائما العفو والصفح ، ولكنهم حين فوتوا عليه صلاة العصر فى غزوة الخندق التى شغلته عنها، غضب ودعا عليهم بأشد ما يشغل ويهول ،حيث قال « اللهم املأ بيوتهم نارا » .

واجتذبه أعرابى من ثوبه وكان خشنا حتى احمرت رقبته طالبا إليه راحله ، فلم يزد أن التفت إليه مبتسما وهو يقول لقد آذيتنا ثم أعطاه إياها .

وقد تجاوز فى صبره على الأذى وحلمه عند المقدرة ، الحدود المعروفة لهما فى عرف الأخلاق ، فعطف على المؤذين ورأف بالمذنبين ، ومن آيات ذلك صلاته صلى الله عليه وسلم على رأس النفاق عبد الله بن أبى وتكفينه إياه فى ثوبه واستغفاره له .

بل إن عطفه تجاوز الناس إلى الحيوان، فى غير داع الى العطف كبير، حتى كان عليه الصلاة والسلام يميل الأناء للهرة ليسهل شربها منه ، ثم يفتى فيتوضأ من ماء هذا الاناء .

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم، فقد أتى من الآيات فيه بالعجب العجاب ومنها:-

١- اختياره صلى الله عليه وسلم أن يكون نبيا عبدا لا نبيا ملكا حين خيره الله بينهما جريا على طبيعته الممثلة فى قوله « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين »

٢ - وجوده بين أصحابه كاحدهم أو أقلهم ، حدث أن انقطع شسع نعله وهو يطوف فتسابق أصحابه اليه، وقد أخذه بيده ليصلحه،وهم يقولون،نحن نكفيك يارسول الله فقال « قد علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه »

٣- تجاوزه بهذا التواضع صحبه الى سائر الناس ، فقد تواترت الرواية بأن المرأة

لا الرجل ، والأمة لا العبد ، كانت تأخذ بيده فى حاجتها ، وقد تكون خارج المدينة فتقوده اليها، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت . ثم يعود قار العين مطمئن الفؤاد .

٤ـ رأفته البالغة فى معاملة الخدم ، قال أنس بن مالك ، خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء صنعته لم صنعته ، ولا لشىء تركته لم تركته ، وكذلك كان مع سائر الخدم حتى العبيد والإماء .

٥ـ وداعته المثالية مع الأحداث ، دخل عليه وهو ساجد يصلى سبطه الحسن وهو صبى، فركب على ظهره فأطال عليه الصلاة والسلام السجود حتى نزل، فلما انتهى من صلاته سأله أصحابه لم أطلت السجود يارسول الله فقال إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله .

ومع هذا التواضع الجم كانت له هيبة تنخلع منها القلوب ، دخل عليه رجل للكلام فى حاجة، فأخذته من هيبته رعدة استعصى معها القول ، فقال له هون عليك فانى لست ملكا ولا جبارا ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ـ والتفت إلى أصحابه فقال ـ إنى أوحى إلى أن تواضعوا ألا فتواضعوا أيها الناس حتى لا يبغى أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخوانا » فسكن روع الرجل وتكلم

حقا إنك يارسول الله المبعوث لتتم مكارم الاخلاق ، وحقا إنك لذو الخلق الذى أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم ومايسطرون على وصفه بالعظمة قبل أن يقول « وإنك لعلى خلق عظيم» هذا وإن اللفتة فى الآية الكريمة عن وصف الخلق بالكرم كما كانت عادة العرب ، الى وصفه بالعظمة ، إنما كانت ، لما كان فى خلقه صلى الله عليه وسلم من السعة ، التى كما تشمل نواحى الرقة والعطف ونحوهما مما يتصل بالكرم ، تشمل نواحى أخرى من الفضائل التى تتجاوز الكرم الى غيره من العدل والحزم ونحوهما مما يدخل مع الكرم فى دائرة العظمة التى عدل عن الكرم اليها ، فكان هذا العدول من أبلغ ما يكون، فى الخروج عن مقتضى الظاهر الى غير الظاهر كما يقولون .

وختاما لك منا يارسول الله بعد الصلاة ، السلام يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا ؟

فلق الصباح المبين

للاستاذ على الجندى



ماذا يقول الشعر فى عليائه ... من خاطب الرحمن فوق سمائه
الناس فى الدنيا ببعثته اهتدوا ... والناس يوم البعث تحت لوائه
عز الأنام به ، وكان أعزهم ... عبدا يعانى القيد من أهوائه
من عاش منهم عاش فى أوهامه ... أو مات راح مزملا بشقائه
امدحه أو فاحمده ليس عليك من ... حرج ، فان الحمد من أسمائه
وأعد لنا « حسان » فى عصر الهدى ... يطرى الرسول فأنت من شعرائه
وتغن فى وصف « الحبيب » فانه ... لحن يساورنا الهوى بغنائه
وأدر علينا ذكره ، فبذكره ... يشفى فؤاد الصب من برحائه
عصف الغرام به فبات كأنما ... يسرى الغضى المشبوب فى أحشائه
روحه بالنفحات فى عيد السنا ... لا تترك المضنى يموت بدائه

* * *

خل المديح فلست بالغ وصفه كل المكارم قطرة من مائه
هذا الجلال يجل عن شعر وإن نظمت در « عمان » فى أثنائه
أثنى « الكتاب » عليه فى آياته ماذا عساك تقول بعد ثنائه
الله يشهد أننى لا أبتغى من مدحه إلا جميل رضائه
نزهت رفعة قدره عن مدحتى فأبى القريض ولج فى غلوائه
إن لم أكن حسن البيان فحسب من يثنى على المختار حسن وفائه

* * *

هات الرحيق من الجنان مصفقا يغنى صريع الكأس عن صهبائه
واشرب على عطر الحبيب وطيبه مترنحا فعل الطروب التائه
نور على نور وعرس يجتلى عرسا يلف الكون فى سرائه
الزهر ينفح بالعبير مرحبا والبلبل الصداح من بشرائه
والسعد والاقبال حلية تاجه والورد والريحان وشى ردائه
هش الوجود لركبه مستبشرا بقدومه ، متيمنا بلقائه
وسعى الزمان يسير تحت لوائه متأود الأعطاف من خيلائه
تترادف الأعياد وهى سنية بسنائه ، ومضيئة بضيائه
ما العيد إلا عيد أحمد إنه عيد الوجود بأرضه وسمائه
الأفق يبهى بالنجوم ويزدهى ببدوره والكل دون « ذكائه »

* * *

أهلا رسهلا « بالوليد » ومرحبا اليمن والايمان فى سيمائه
بالكوكب الوضاح فى آفاقه بالمنهل الرقراق فى صحرائه
لمست به « الشفاء » هالة أبلج غرقت نجوم الليل فى لألائه
زاهى الأسرة باسم متطلق كالزنبق المنضور فى أندائه
هبطت ملائكة السماء تزفه فالنور من قدامه ووراثه
و « الروح » يخفق فوقه بجناحه ويظله فى صبحه ومسائه

غنى له لحن الخلود فأقبلت تترقص الدنيا على أصدائه
و « البيت » رفاف الستائر غبطة متهلل يصغى إلى أنبائه
لولا الوقار يحفه لانشق من فرط السرور به أساس بنائه
قرأت « حليمة » سره فى وجهه إن النجيب مخبر بروائه
يمشى الزمان به فيبدى رونقا مثل الهلال يروقنا بنمائه
لو لم ينم عليه نور جبينه لأتاك بالبرهان فرط حيائه

* * *

« عرب الجزيرة » هل عرفتم قدر من تقع النجوم الزهر دون سنائه
لو تعرفون مقامه لسجدتم شكراً لربكم على آلائه
إن الذى تخذ « المحجب » بيته قد فجر الينبوع من « بطحائه »
هذا « اليتيم » ومن يكن كمحمد فاليتم يرفعه على نظرائه
فضل اليتيم من اللآلىء أنه فاق اللآلىء كلها بصفائه
هذا هو المختار أشرق نوره فى « آدم » وضفا على « حوائه »
هذا هو الهادى البشير فحدثوا عن حلمه وحيائه وسخائه
هذا هو المبعوث بالحق الذى فى نطقه يبدو ، وفى إيمانه
هذا رسول الله أكرم مرسل « بالسمحة البيضاء » من حنفائه
حيز الكمال له وزاد كرامة بالسؤدد الموروث من آبائه
شرفت به « عدنان » بل خلدت به كم من أب قد عاش فى أبنائه

* * *

سل بطن « مكة » هل رأى كمحمد فيمن رأى متعبدا « بحرائه »
متوحد فى « الغار » يؤنس روحه فى وحشة الديجور نور رجائه
ملك من الأملاك فى جوف الدجى تتفجر الأطوار من أطوائه
فان عن الدنيا وزينة أهلها فى الله لايلتذ غير فنائه
مستشرف للحق يبغى نهلة من ورده تشفى غليل ظمائه
ماكان بين هيامه وحنينه إلا كموسى الطهر فى سيناائه

ارحم أخا شوق إليك متيما زفراته موصولة ببكائه
من أجل ذاتك - وهى منية نفسه- عاف الأنام وفر من خلطائه
ارفق بنفسك يامحمد وانتظر وحي إليك فأنت من أمنائه
انظر إلى الأفق القريب فإنه جبريل راح يحوم فى أرجائه
فالق الأمين ولا يرعك لقاؤه أتخاف من يحبوك محض إخائه
إنى ختمت بك النبوة وانجلى لك سرها العلوى بعد خفائه
فانهض بتكليف الرسالة حاملا ما تشفق الأطواد من أعبائه
فسل « الجزيرة » كيف ثار محمد تتحطم الأصنام تحت حذائه
ساع ، ونور الله يسعى دونه داع ، (وروح القدس) خلف دعائه
لا رب إلا الله - جل جلاله — من قالها لقاه خير جزائه
نادى بها فوق (الصفا) فتطامنت شم الروج تخشعا لندائه
ومشت على الفلوات ريحا عاصفا الويل للطاغوت من حصبائه
صوت بسمع الكون راح مدويا فصحا عليه الكون من إغفائه
صعقت له (العزى) وخر لوجهه (هبل الكبير) يلم من أشلائه
والحاكمون بأمرهم ما شأنهم ؟ كل بوجه مكفهر شائه
(كسرى) على الايوان يسكب دمعه و (هرقل) حز الرعب فى حوبائه
حكما الرعية حكم راع لا يرى رفق الرعاء بإبله وبشائه
الأرض لله العلى قضى بها لمحمد والغر من خلفائه

* * *

دين على التوحيد قام أساسه وصل الأله بقاءه ببقائه
يخبو سنا الأقمار وهو بآيه متوهج كالبرق فى إبرائه
تتوثب الأحداث حول عماده فيزيد إرساء على إرسائه
(سلمان) فيه أخو (الحسين) كلاهما لله عبد خاضع لقضائه
و (بلال) (للصديق) - وهو عتيقه - فى شرعة الأحكام من أكفائه
لافضل إلا بالتقى فمن اتقى فهو الذى يسمو على قرنائه

* * *

ياخير مبعوث لأفضل أمة عطفا على الاسلام فى أرزائه
حجبت سناه عن الورى أتباعه كالليل يودى النور فى ظلمائه
من كل مفتون وكل منافق ومقنـــع شهواته بريائه
حجر إذا يدعى لبذل زكاته وهو الجواد على الخنا بدمائه
يجرى وراء الغرب فى تقليده والغرب ـ لو يدرى ـ أساس بلائه
فاعجب لدين كاد فى جوف الثرى أمواته تبـــكى على أحيـــائه

* * *

ياخـــير مبعوث ـ لأفضل أمة عطفا على الاسلام فى أرزائه
أنت الغياث إذا الخطوب تذاءبت وافتنت الأحـداث فى إيذائه
هذى شعوبك تحت ظل هلالها غرباء أضياف على غربائه
متخاذلون فكل شعب سادر فى غيه مغض على أقذائه
فقد البطولة وهى أنفس إرثه فرجاله فى الروع دون نسائه
فاشفع بجاهك عند ربك إنه أعطاك ما أرضاك من نعمائه
صلى عليك الله ماشكر الحيا روض وغنى الورق فى أفيائه

على الجندى

لقد من الله على المؤمنين . . .

للاستاذ

على حسب الله



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد إمام المتقين ، وسيد المصلحين ، وخاتم النبيين ، قال الله تعالى : لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ،

فمن حق هذا الرسول الامين على المسلمين ؛ أن يحتفلوا بذكرى مولده الكريم ، لما له من الآثار الخالدة فى الاولين والآخرين .

وإنما يحتفل الناس بعظمائهم ليلتمسوا فى سيرهم من معانى العظمه وأسباب الفلاح ما يضىء لهم طريق الحياة ، ويحفز هممهم إلى المعالى ، ويعينهم على بلوغ الغايات الشريفة

ورسول الله ﷺ خير من يقتدى به فى جميع نواحى الحياة ، فقد خلقه الله مثلا كاملا للانسان ، فصنعه كاملا فى خلقه وخلقه ، وفى شبابه وهرمه ، وفى معاملته لربه ، ومعاملته لاصحابه وأعدائه ، كاملا فى سره وجهره ، كاملا فى كل معانى الانسانية .

اختاره الله تعالى من أعز قبائل العرب جانبا ، وأعرقها نسبا ، وأكرمها حسبا ، ولكنه جعله مع هذا يتيما فقيرا ، فمهد له بالاولى سبيل الزعامة والقيادة ، وبالثانية سبيل الاعتماد على النفس ، والنضال فى الحياة ، مع لين الجانب ، والعطف على الضعفاء ، والاكتفاء من الدنيا بالقليل .

ثم نشأ ﷺ بين قوم يعبدون الاصنام ، ويقطعون الارحام ، فكان عجبا أن جمع من الفضائل مالم يتهيأ لبشر ، وسمت أخلاقه إلى أقصى ما تسمح به الطاقه البشرية ، فكانت صافية نقيه ، صريحة واضحة ، لايعكرها رياء ، ولا يحجبها طلاء فلا تراه إلا على حالة واحدة من الرضا والاطمئنان ، فى السر والعلانية ، والشدة والرخاء :لاتبطره السراء ، ولا يوهن عزيمته البلاء .

وهكذا يسمو هذا الفتى الكريم ، الفقير اليتيم ، بما اعتاد من الجد فى عمله ، والاستقامة فى قصده ، حتى يسميه القوم « الامين » ،ويرتضون حكمه عند وضع الحجر الاسود ، فيقدمونه بذلك على رؤسائهم أجمعين .

ثم يصطفيه الله تعالى لرسالته ، فيقوم بأمر هذه الدعوة الخطيرة وحده ، فى تلك البيئة الفاسدة الجامدة ، ويتحمل فى سبيلها من عنت القوم وسخريتهم كل ما شاء لهم السفه ، وحفزهم إليه الجهل ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويؤدى ما اؤتمن عليه ويذهب إلى ربه راضيا مرضيا .

فهل تجد فى تاريخ الابطال والمصلحين مثل رسول الله ﷺ ظافرا منصورا : يصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويدخل مكة فاتحا مظفرا وأعداؤه على العجز والهوان ، فيطأطىء رأسه خشيه أن يعتريه -وحاشاه- مايعترى الناس فى مثل موقفه من الغرور والخيلاء ، ثم لا يكون منه لهؤلاء الذين أسرفوا فى إيذائه وصد الناس عنه إلا أن يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ؟

وهل تجد فى تاريخ الابطال فاتحا مطاعا واسع السلطان يحيا فقيرا زاهدا راضيا بالكفاف شاكرا لله ، ثم يموت فلا يوصى لاحد من قرابته بشىء ، بل يحرمهم ميراثه اليسير فيقول : نحن معاشر الانبياء لانورث ؟

لقد كانت ولادته ﷺ يمنا وبركة على العرب ، فقد أصلح قلوبهم بالعقائد الصحيحة ، وهذب نفوسهم بالاخلاق الفاضلة ، وألف من أشلائهم المتناثرة التى ما كانت تصلح لشىء ،أمة مثاليه صالحة لكل شىء ، هى خير أمة أخرجت للناس : يرتبط أبناؤها برباط الاخوة والمحبة ، وينشرون العدل والسلام فى أرجاء المعمورة ، ويقودون إلى المدنية الصحيحة أمما ذوات مدنيات بعيده ، وحضارات قديمة .

وكانت ولادته ﷺ يمنا وبركة فى العالم الانسانى ، فانه لم يأت ليرفع جنس العرب على غيرهم ، ويجعل منهم سادة الشعوب ، كما تزعم لنفسها بعض الأمم ، وإنما جاء لرفع شأن بنى الانسان وتوجيههم إلى الانتفاع بعقولهم ، وإشعارهم بأن مافى السموات ومافى الارض لم يخلق الا لاجلهم فقال تعالى: « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

وقال تعالى : « هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا » ،

وقال تعالى « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ثم قرر مبدأ المساواة بين الناس أجمعين ، فلا امتياز لعربى على عجمى ؛ ولا لغنى على فقير ، ولا لابيض على أسود ، ولا لمسلم على غيره ممن يحتمى بالدولة ، ويستظل برعايتها ؛ فقال تعالى « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقال ﷺ : « أيها الناس ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، اكرمكم عند الله اتقاكم ، لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

وقال تعالى: « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » ،

وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » ، « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »

فالاحكام انما تنفذ فى البلاد الاسلامية على جميع الناس : من غير تمييز بين شريف ووضيع ، أو غنى وفقير ، أو مسلم وغيره : سرقت امرأة من بنى مخزوم حليا ، ورفع أمرها إلى رسول الله ﷺ ، فاهتم لها القرشيون وقالوا: من يجترىء على رسول الله أن يكلمه فيها إلا أسامة حب رسول الله، فكلمه أسامة ، فقال له الرسول ﷺ : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم

الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمه بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »

هذه إشارة خاطفة إلى فضائل الاسلام العالية ، وأصوله القويمة : أخذها المسلمون الأولون بقوة ، وحرصوا عليها ، فارتفعوا وعزوا ، وتلقيناها بفتور ، فتمكن منا الضعف ، واعزانا الهوان ، واستولى علينا من لا يرعى للفضيلة حرمة ، ولا للانسانية ذماما .

ولقد آن للمسلمين — بعد هذا السبات الطويل — أن يستردوا حقوقهم المغصوبة ، ويتبوءوا مكانهم فى العالم ، ويبلغوا رسالتهم إلى الامم ، ويتحملوا نصيبهم فى بناء مدنية روحية فاضله ، تخلف هذه المدنية المادية الفاسدة ، وأن يجاهدوا فى سبيل حياة عزيزة كريمة يستمتعون فيها بثمرات جهودهم ، وليعلموا أن سلفهم من المسلمين الأولين قد فهموا دينهم كما ينبغى أن يفهم ، وعرفوا أنه للدنيا والآخرة ، وللفرد والجماعة ، وبهذا أصلحوا من نفوسهم ، وجاهدوا لحفظ دينهم وإعزاز دولتهم . وانما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها : من الاعتصام بكتاب الله ، والاهتداء بهدى رسول الله ، والتعاون على ما يرفع من شأن الامم الاسلامية ، ويجعل لها العزة والسيادة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »

أما أنتم يا أبناء دار العلوم — فيوكل إليكم وضع الأساس الروحى للجيل الجديد ، فعليكم فى الحياة واجب عظيم ، ومهم خطير : أن تروضوا أنفسكم أولا على حب الحق والخير والفضيلة ، ثم تضعوا الاساس قويا متينا ، صالحا لحمل مافى المستقبل القريب من تبعات : فغذوا النشء بقوة الايمان ، والثقة بالنفس ، والاعتزاز بالكرامة ، والحرص على أداء الواجب ، واضربوا لهم الامثال من سيرة النبى الكريم ، والسلف الصالح ، ثم بحسن سيرتكم فيهم ، ومعاملتكم لهم . هذه هى رسالتكم فى الحياة ، وهذا هو جهادكم : به تطالبون ، وعليه تؤجرون : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

« يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »

ذكرى المولد الكريم

للأستاذ عمر الدسوقى

أيها السادة . . . !



تأبى الموضوعات الأدبية السامية ، والمعانى الشريفة الراقية ، أن تتنازل فترضى بالنثر ثوبا ، إلا إذا كان اليراع مشرقا طليا ، والأسلوب عاليا قويا ، والكاتب ملهما ذكيا ، وهيهات منى هذا المقام . . . ! أما الشعر فهو ثوبها المفضل ، فمعذرة معشر الشعراء إذا تطفلت على عقدكم النظيم ، ومقامكم الكريم ، فلم يكن لى فى الأمر حيلة ، وأ ، الشعر إلا أن يكون الوسيلة .

عيد الحياة ، وللأعياد أزمان ... مسك يضوع ، ونسرين ، وريحان
أغرودة فى فم الدنيا معطرة ... والدهر فى فرحة ، والكون نشوان
والموكب الفخم فى عدن يهيئه ... من المفاتن جبريل ورضوان
هذى الملائك أنماط منسقة ... لألاء طهر ، وتسبيح ، وألحان
مزاهر السعد لا تنفك تعزفها ... يمشى بها فى مغانى الخلد ولدان
والحور ترقص فى دل وفى طرب ... والعزف فى أوجه ، والرقص فتان
ونغمة الفلك الدوار ساحرة ... تهفو السماء لها ، والأرض آذان
واهتز هذا الوجود الضخم من مرح ... فخر من نشوة الأفلاك إيوان
وعالم الجن قد ريعت معاقله ... لم يبق فى وعيه جن وشيطان
وبددت حلكة الديجور حين بدا ... من رحمة الله آيات وبرهان
تزف أحمد للدنيا ليسعدها ... بهديه ، ولنيل السعد إبان

* * *

يا يوم أحمد ينجاب الضلال به ... كما يذوب أمام الحق بهتان
دنيا من الشر قد كانت موطدة ... لها عروش ، وأجناد ، وتيجان
والناس فيها عبيد النفس تدفعهم ... إلى المخازى ، وهم صم وعميان
فى هيكل الشهوات الحمر قد سجدوا ... خمر وقمر وأرجاس وأوثان
فيها الغريزة عملاق قد انتفخت ... أوداجه . وهو جوعان وظمآن
لا يرتضى بسوى الآثام يلقفها ... وللمآثم إغراء وطغيان
والعقل قزم هزيل كله خور ... لا يرتجى منه إرشاد وتبيان
حرية الناس أشلاء معفرة ... لقى ، تمزقها فى الدو غربان
هذا أمير له عز ومنزلة ... والناس من حوله بهم وعبدان
يدعهم بعصا الجبار فى صلف ... الظلم منطقه . والقهر ميزان
ركب الحضارة قد ضل الطريق فما ... يهديه فى مهمه الأيام عرفان
شريعة الغاب قد عادت مقدسة ... والناس فى طلب الأقوات غيلان
وأصبح الأمر فوضى حين أدركهم ... فضل من الله لا يحصيه إنسان

* * *

دنيا الضلال قد انهارت قواعدها ... قد جاء أحمد فى يمناه قرآن
يحدوه نور وإيمان ومرحمة ... والخير والعدل والإخلاص أعوان
العقل حر من قيد ومن ضعة ... فهم ، وهو هزيل الجرم صديان
ونوره خافت لا يستطيع به ... كشف الطريق ، وللآثام إدجان
يمشى الهوينى إلى غناء يانعة ... همى عليها من التنزيل هتان
فشب فيها يغذيه وينعشه ... حلو الثمار أحاديث وفرقان
حتى غدا وملاك الأمر فى يده ... رمز الحنيفة أن العقل سلطان
هذى الغريزة قد عادت مكبلة ... والنفس ديدنها بر وإذعان
تثوب للعقل إن هاجت غوايتها ... أو راودتها أمانى وشيطان
ودولة الشر قد طاحت معاقلها ... لم يبق منها ضلالات وأوثان
حرية الناس قد عادت مكرمة ... هذى الملوك وهذى الخلق صنوان

السيد الحق أنقى الناس ، شرعته حب ، ونفع ، وإحسان ، وإيمان
ضراوة القسر والاجحاف قد قهرت والعدل شيد له فى الأرض إيوان
ركب الحضارة صوب المجد منطلق أبناء يعرب فيه اليوم فرسان
يحمونه ويجوبون البلاد فما يلقونه من يباب فهو عمران
لا يعرفون حزازات وسيطرة الحق رائدهم ، والخير عنوان
دنيا من العلم قد شادوا قواعدها والناس تحت لواء العلم إخوان
من البرانس حى السين موطنهم كأنه فى قفار الدهر بستان
تطرى القرون ولم يشهد لهم مثل عدل الشريعة لا يحكيه ميزان
يادولة الحق أين الحق ؟ قد غمرت هذه البسيطة أرجاس وأدران
حضارة الغرب أطلال مخربة تشقى النفوس بها والعقل صديان
والعلم وهو حليف الخير مفسدة والمنطق المحض تدجيل وبهتان
دنيا المفاسد قد عادت يؤيدها علم غريب له سحر وطغيان
باسم الحضارة ذل الناس يحكمهم فى حر أوطانهم بالقهر ذؤبان
أرض العروبة أسلاب موزعة فيها الدعايات أشكال وألوان
توهموها قلوبا جد فارغة أو أننا فى شعاب الغاب قطعان
إنا لنا الدين يهدينا ويعصمنا ودينا الحق لا تعلوه أديان
كنا جميعا فكان النصر يسعدنا واليوم فرقنا فى الحق شيطان
الحق أبلج والأحزاب فى لدد وكيف يبصر ضوء الشمس عميان
الحكم غايتهم والفخر شيمتهم جشو القلوب حزازات وأضغان
لن نستقل وهذا الداء ينهشنا غش ، ومقت ، وتفنيد ، وخذلان
هل نفحة من نبى العرب تنقذنا حتى يعاد لنا مجد وسلطان
ونستعيد حياة المكرمات فقد ضاقت علينا بهذا الخلف أوطان

عمر الدسوقى

فجران . . . !

للشاعر احمد هيكل « من أسرة عطاظ »



فجران قد لاحا بأفق البيد
فجران : فجر سنا ، ووجه وليد
غنى لطلعته الوجود ملاحنا
قدسية التنغيم و الترديد
وأقامت الصحراء عرسا رفرفت
كل الملائك فوقه كبنود
وتعانق النخل الرشيق ورددت
سعفانه لحنا كصوت العود
وتراقص الجبل الوقور كأنه
سكران أترع من دم العنقود
وعلى فم الندمان رفت بسمة نشوى كبسمة فاتنات الغيد
وتخطرت هوج الرياح كأنها أنفاس زهر أو عبير ورود
وتبارت اللهوات فى ترجيعها حلو الغناء وساحر التغريد
وتدفق الضوء الرطيب مفضضا حللا تزين البيد مثل برود
فاليوم ميلاد الحبيب محمد واليوم فى الأعياد أكرم عيد

* * *

فجران : فجرسنا ووجه وليد قد لاح ضوءهما بأفق البيد
فى ليلة ركع الزمان أمامها والدهر حياها بطول سجود
هى فى الليالى الغر مثل مليكة وبقية الليلات مثل عبيد

هى ليلة تسمو على ضوء الضحى ولكم يفوق البيض بعض السود
كالقوم فى السودان فيهم سمرة وأقلهم يفدى بألف يهودى

* * *

فجران قد لاحا بأفق البيد فجران : فجرسنا ووجه وليد
هو رحمة هبطت لتصلح غابة يشقى بها الحملان بين أسود
هو سلسل عذب تدفق صافيا كى ينبت الأزهار فى الجلمود
هو ومضة من نور ربك أرسلت لتنير دنيانا بدين خلود
بديانة الفرقان أبجع بلسم لشفاء عالمنا العليل المودى

. . .

ياخير خلق الله هلا نفحة تنجى الكنانة من خطوب سود
مصر الشقية بالتحزب أصبحت تالله - تثلج صدر كل حسود
القوم هاموا بالخصام ونيلنا يبغى التحرر من وثيق قيود
فمتى يصير بنو الكنانه وحدة ومتى يهب القوم بعد رقود ؟!
لنعود أحرارا ونحيا سادة ونعيش فى عهد أغر سعيد

احمد شيكل

موكب النور

للشاعر محمد عبد الفتاح إبراهيم «من أسرة المربد»



حن الظلام . . . ورقت الأنسام
وتغربت فى نسكها الأيام
وانسابت الصحراء يهتف صمتها
فى أى ركب يزمر الالهام ؟
وعلام تنفض الرمال .. كأنما
فى ذرها تتعانق الأحلام ؟
وتهامس السمار فى كنف البلى
كيف انتشت فى صحوها الأجرام؟

وتخشع الماضى ـ وكان مناجلا ... شرقت بسيب نجيعها الأوهام ؟
وعلى الضفاف الخضر ... حوم ملهم ... لم تشف غلة صدره الأنغام !
فغفا .. وجمع فى السكون شبابه ... واستل سر الغيب ... وهو غلام !
فاذا السنا نغم تفجر نبعه ... وإذا الظلال تحنث ومقام
وإذا النجوم السابحات على المدى ... حيرى . . . يفزع صمتها التمتام
فارتد نحو الأرض يصرع همسه ... شرع من الحق الصراح مقام !
فاذا الجبال الراسيات تلفت ... وإذا الرياح الصافرات سلام
وإذا هتاف فى الذرا ... وتساؤل ... لمن الحياة تدفع وزحام ؟
ما بال من عبدوا اللهيب تلفتوا ... فاذا اللهيب عن اللظى إحجام ؟
ما بال من تخذوا الحجارة منسكا ... جثت بما ائتفكوا به الآثام ؟
فاذا النبى الطفل يحتشد المنى ... وبطرفه تتقلب الأعوام !
وإذا السنون الجائمات تجمعت ... حول امرىء . . . فله بهن هيام
يسرى ... فيستبق الحقائق مثلما ... سبق الربيع المستهام غمام

وينضر الأرض الجديب بشرعة كالنبع .. من شرف الغيوب سجام
ويداه كالقدر الحنون .. خبيئة للمترفين . . . وللعفاة غمام
عبر الحياة .. كما الحياة .. تدفع حينا . . وحينا فرقة وخصام
فأذل إمرتها . . وخاض غمارها وتطامنت فى ظله الأحكام
وتخطف الوحى المقدس يافعا والساهرون على حماه نيام
وإذا الحقيقة كشفت عن سرها فعلام تعبد فى الورى الأصنام
لكنه الانسان . . . نزاع لما شادت يداه . . . وللهدى ظلام
يشرى الضلالة بالهدى .. ولو أنه عدل الزمان .. لما حوته رجام
ولكان عبرة أعصر .. فان انقضى عام . . تواثب للمحاجر عام
وإذا الهدى لم يلق غدرة جاحد فعلام نور قولهم . . . وظلام ؟

* * *

الله أكبر . . . غنوه غنى بها حاد . . . تخفت أعظم ورمام
وتسابقت منها الجماجم ترتجى بعثا . . وهل يطوى الحياة حمام
والنخل دس حنانه . . . فاذاعه ظل هناك على الربا بسام !
لو شارف، الأمل الطريد رحابه لتسربت من عشه الآلام !

* * *

يأيها المبعوث فى خير الورى عاثت بأرض الخالدين طغام !
حسبوا سبيلك فرقة . . فتفرقوا شيعا . . وصلوا للرموز وصاموا
ماذا عليهم . . لو تساوت أنفس فى الحق . . لا شعب ولا حكام
هذا الذى دك الضروح . وشادها فردا . . وقر بعزمه الاسلام
ساد الممالك .. لم يصافح رأسه .. تاج ولم تخفر لديه ذمام

* * *

رباه .قد وضح الطريق .فهل ترى للشرق . . بعد تفرق . . أعلام
يأيها النسر المهيض جناحه يا نيل .. ما بعد العشية جام
فاحبس دموعك .. لا ترعك خبيئة فغدا يظل الخافقين سلام

محمد عبد الفتاح ابراهيم

حياة فى ذكرى

للشاعر محمد الهادى السيد اسماعيل من اسرة عطاظ



رأوا قسوة الداء الذى أنا حامله
فقالوا : شفاك الله ما أنت قائله ؟
فقلت : جفانى الشعر من فرط علتى
فـلا هو يعطينى ولا أنا سائله
وروعنى بعدا ركاب خواطرى
بحث خطاه ، والمعانى قوافله
موزع فكر ، خائر الجسم والقوى
يغازل بنت الشعر وهى تغازله
ألمت به ذكرى فأحيت مواته
وسرعان ماقاضت عليه مناهله
ألمت به مثل الحياة ، أو الحيا
تعم جميـع العالمين فواضـله
كأن بها روحا من الله شمتها تحرك من أودى فتشدو بلابله

لميلاد حق فى مجاهل باطـل لميلاد نور فى السماء قنادله
لميلاد دنيا من جديد بليلة تداعى لها ،كسرى، وريعت جحافله
على فنن الفصحى سمعت لهاتها تصوغ نشيدا رتلته عنادله
وتلك ألاحين الملائك جاوبت من الحق لحنا وقعته أنامله
مواكب أملاك تروح وتغتدى وعرس أقيمت فى القلوب محافله
أريج لريحان من القدس فى الورى وأطياف أخلاق «الرسول» خمائله
وما أحوج الشرق الأبى - وقد غدا مهيضا - إلى أن تحتويه شمائله
إذا كان فينا صارم غير عامل فما شيم المختار إلا صياقله
وعمرىَ لن تسمو لدى الشرق دولة وأبناؤه موتى وفيهم غوائله

وفيهم - إذا سادوا - غرام بسلبهم حقوق الحمى إن داهمته عواذله
كأنهم خصم تفاقم خطبه يقول : حبيب الشعب: وهو منازله
تلمس بميلاد الرسول شعاعة تنير فؤادا أظلمته رذائله
تذوق جنى رجعى إلى الله سيدى وسير لأقباس « الرسول» تواصله
فان قلت يابن الشرق : سمعا وطاعة وربىَ حق الشرق يزهق باطله

بنى يعرب من كل لون : عدوكم تحاك لكم فى كل يوم حبائله
خذوا حذركم من كيده . وتعلموا بسيرة خير الخلق كيف نصاوله
وذودوا عن « السودان » بالروح جهدكم فبالروح تفدى والدماء قبائله
وقولوا : إذا أغنت عن العين أختها فما عن أعالى النيل تغنى أسافله
أريدكم صفا تمكتل وحدة تقصف أعناق العدو عوامله
أريد غزاة يشرعون مهندا تذيب الحشا قبل النزال حمائله
إذا قال فعال وإلا فسمته يفوق دويا أرسلته قنابله

بنى الغرب : مازلنا ، فمهلا رويدكم وإن كان طيف النصر تنأى مخايله
أتنسون أن كنتم عبيدا أذلة وآباؤنا هم للوجود عواهله ؟
عجبت لعبد قد تسامى لسيد وباهى بجيد ، وهو والله عاطله

محمد الهادى السيد اسماعيل

وحى ميلاد . . .

للشاعر السودانى أبو القاسم عثمان « من أسرة المربد »



لاح فى ليله وأبرق وهنا
قبس بدد الظلام وأفنى
صاغه الله من مقدس معنا
ه جمالا فقرت الأرض عينا
رقصت حوله الملائك والنو
ر فغنى المحزون لحنا ، وغنى
ورمال الصحراء داعبها الفجـ
ـر فراحت من سحره تتثنى
والبشاشات والمزاهر والانغام
دنيا من الطلاقة وسنى
موكب زفه الاله لعيد . . هو خير الاعياد روحا ومعنى
جئت بالعدل يا محمد تبنى عالما هده الشقاق ليبنى
عالما لج فى الجهالة أهلوه فعاثوا فى الأرض زورا ومينا
فزعت ليلة الخطوب فسارت فى رباه وسارعت تتجنى
وعدا الموت فوق صفرة واديه يبيد الاحلام سحقا وطحنا
غير أن الظلام مهما تمادى ودبيب الصباح مهما تأنى
فشعاع الخلاص قد جاء يسرى سريان الحياة فى كل مغنى
أيها الغاصب المظفر مهلا قد ظننت الأحرار يرضون غبنا
لا وربى فان فى النيل شعبا يزحم الأرض والكنانة حينا
وحدة الدمع آلمتنا وقدما وحدة العز حالفتنا فسرنا
نحن للنيل قد خلقنا ولكن ليس نرضى بغيره ماخلقنا
خفف اللغو ياجبان ودعنا يا عدو العهود قرنا فقرنا
قبل أن تصرخ القلوب فتغدو أثرا مهملا وقد كنت عينا
ملك النيل ياعظيم تهلل لك عرش القلوب ياملك منا
إن نبض القلوب فى أم درما ن كنبض القلوب من أهل إسنا
هم بنو النيل فى المكاره والافـراح وفى شقوة الفؤاد المعنى
فاختبر عزمنا فانا صحونا وبنصر الفاروق لله بحنا

الميلاد النبوى

للشاعر رياض الخضارى « من أسرة عطاط »



أمل رف فى الحياة وليدا
وهو أبقى من الحياة خلودا
صاغه الله كوكبا قمريا
ورآه الوجود صبحا جديدا
يتهادى فى الكون نورا وضيئا
يملأ الأرض رحمة وسعودا
تتغنى به الحواضر فخرا
وتغنى به الفيافى نشيدا
فهو سر الآله فى هذه الدنـ
ـيا ومجد يظل فيها مشيدا
وهو سر الجمال فى عالم الرو ح ووحى يرف منها فريدا
وهو سر السحاب فى منطق الحـــق . وأقوى من السحاب رعودا
وهو عطر الوفاء فى جنة الحـــب . وأندى من الجنان ورودا
إنه أحمـــد بطالع يمن زفه الله للعوالم عيـــدا

. . .

فى الصباح الجديد يمشى إلى الكو ن وئيدا ليستشف الوجودا
فإذا الحق والفضيلة والطهـــر : يراها سفاهة وجحودا
فتهادى كالفجر ينساب نورا واستحال الهجير ظلا مديدا
واستحالت أعاصر الحمق والنكر سلاما على النفوس وجودا
هومت حوله العشيات تجثو وهفا حوله الصباح سجودا
صيحة الحق والهداية والعـــدل تعالت لتعلن التوحيدا

أمة ضلت الطريق وراحت في دجاها تقدس الجلمودا
بين جدب الرمال أخطأها الر ى . وضلت معينها المورودا
فسقاها من الهداية نورا وبناها عزائما وجهودا
أمة صاغها من الحق والحب إخاء . ووحدة وعهودا
طالما بارك الزمان خطاها وهي ترقى إلى السماء صعودا
طالما قادها جهاداً إلى الفتح فتمشى إلى البلاد أسودا
ان رأيت الهداة تمشى إلى الحق فأجدر بشعبهم أن يسودا

* * *

قصة ينشد الزمان علاها ثم تروى ملاحما وقصيدا
غير أن الزمان يمشى ويمشى وترانا على الخلاف قعودا
حطمتنا عناصر الخلف والحمق بدارا ودارسا وحصيدا
وإذا ما الخلاف دب بقوم سلبتهم أزلة وعبيدا
خطفتنا مخالب الذئب في الغر ب وأودت بمجدنا تبديدا
نحن عشنا بوحدة النيل في الكو ن زمانا من الاخاء سعيدا
نحن منا مغاور البطش في الحر ب . فهيا إلى الصراع جنودا
إن رأيت الحياة غاب أسود لم تدعك الأسود ظبيا شرودا
لو عشقت الأباء عشت سعيدا أو عشقت الخلود مت شهيدا
لا تسل شرعة السماء دفاعا وسل الشعب عدة وعتيدا
فالحياة الحياة - يا أمة الشرق - نضال يحطم التقييدا
من يول الفاروق سعيا لعلياه . فأكرم بمجده أن يعودا

رياض عبد الخالق الحفناوى

من وحى المولد

للشاعر محمد هاشم عبد الدايم « من أسرة المدينة »



شعاع من الماضى يلوح بخاطرى
فيبعث آمالى ويحيى مشاعرى
يذكرنى فجراً أهل فرددت
لطلعته الدنيا نشيد البشائر
وسطر فى التاريخ أروع حادث
وزين وجه الأرض أكرم زائر
ورب وليد طأطأ الدهر رأسه
لمولده فى ذلة وتصاغر
أعرنى رسول الله بعض فصاحة
لأنظم ما أبغى فلست بقادر

وكيف أنال الشمس فى رونق الضحى ... ولو رمت رؤياها لأعشى ناظرى
سطعت على الدنيا فبددت ليلها ... وأنقذتها من فرقة وتناحر
وأول مجد القوم أن يتآزروا ... فإن فرقوا كالنيل ذلوا لغادر
وتلك جهود المسلمين توحدت ... فلم يثنهم كسرى ومجد القياصر
إذا ذكر الماضى وقفت حياله ... كفاقد تاج ذل بعد المفاخر
أقلب فيه الطرف كالصب باكيا ... على طلل يروى أجل المآثر
فأين فتوح الراشدين وعزة ... بنوها على أسمى الهدى والشعائر
أبغداد ما عصر الراشيد ومجده ... أعيدى حديثا مثل عزف المزاهر
وكيف أنار الفن والعلم والهدى ... فأرشد فى تيه الدجى كل حائر
سلام على مجد العروبة ساطعا ... بأندلس كالبدر بين الدياجر
حملنا لواء العلم والغرب مظلم ... فلما ارتوى منا بغى بغى ماكر

ومالى ألوم الغرب والشرق غافل ولا مجد إلا للشجاع المغامر
وكم حسن ظن بالدخيل أذلنا فكن يقظا يا شرق وارقب وحاذر
وجدد عهود المجد وابن حضارة على أسس القرآن هادى البصائر
ولا تغترر بالغرب فالغرب حية بها السم فى ثوب رقيق وساحر
كفانا فقد ذقنا أفانين غدره وأنشب فينا ما له من أظافر
سنمحو ظلام الليل بالحق ساطعا يؤيده لمع السيوف البواتر
فإن صياح الحق يصبح خافتا إذا لم يعزز بالقنا والتآزر
أرى الأمل البسام لاح ضياؤه وهمت بلاد الشرق همة ظافر

محمد هاشم عبد الدايم

تفاءلت

للشاعر كمال بسيونى منه أسرة عطاظ



تفاءلت لما لحت أيتها الذكرى
فصاحبك الفجر الذى مزق الكفرا
تفاءلت للوادى يعيش منضر ،
يزيد به عزا ، ويسمو به قدرا
وسقت لك الأشعار ، غيدا كواعبا
ترنح من سكر ، وما شربت خمرا
كأن بها هاروت ينفث سحره
كأن نسيم الروض أفعمها عطرا
قريض كدمع الصب، كالدر كالندى
كثغر حبيب عن أقاح قد افترا
أتيه به كبرا إذا ماقرأته ومثل قريضى العذب يملؤنى كبرا

تفاءلت لما لحت أيتها الذكرى عليك من المختار مايشبه الفجرا
طلعت علينا والحوادث رصد يجاذبنا شدا ، ويلحظنا شزرا
وقد جمع الخطب المداهم شملنا كما نظم العقد اللآلىء والدرا
تصالحت الأحزاب والتام صدعها على أن يعيش النيل فى وحدة حرا
فحرية الأوطان رمز رجالها وحرية الأوطان عزتها الكبرى

ألا ليس للمستعمرين إقامة فقد أفنوا الحسنى وقد أنفدوا الصبرا
يقولون سودانا ومصرا ، ومادروا بأنهما مصران إن لم نقل مصرا
لقد ولدا من بطن أم عزيزة وقد رضعا من ثديها الشهد والخمرا
يريدوننا أسرى ؟ . فيالضلا لهم أتخضع أسد الغاب حتى ترى أمرى ؟
إلى مجلس الأمن المدل ببطشه مضت مصر تشكو منهم الظلم والغدرا
فان عاود الحق الكريم نصابه وإلا فانا سوف نشعلها جمرا

عجبت لدهر إن تعاوت جياعه أشار إلى مصر وقال اهبطوا مصرا
ودهر به احتل المغير ديارنا يعز علينا أن نسميه دهرا
لقد آن أن نسعى إلى موطن العلا ونخضعها بأسا ، ونملكها قسرا
لقد كان بحر المجد جزرا بنومنا ولابد من مد له يعقب الجزرا
وما المجد إلا فتكة وإغارة وحرب تميت الموت أو تذعر الذعرا
كأنى بهم بعد الجلاء وقد بكوا لكى يطفئوا بالدمع نارهم الحرى
يقولون أخرجنا من الجنة التى قضينا بها عهدا رطيب الجنى نضرا
عرينا وجعنا حين جئنا ديارنا وكنا بمصر لا نجوع ولا نعرى
كأنى بهذا النيل يختال ضاحكا فيكسو ربى الفيحاء أردية خضرا
تفاءلت خيرا للبلاد وأهلها تفاءلت لما لحت أيتها الذكرى

كمال بسيونى

ساصبر فى هواى

للشاعر محمد محمد اسماعيل عبده من أسرة المربد



تملكت الخواطر وجنتاها
وتيمت المجـآذر مقلتاها
تخال جبينها اللألاء بدرا
وتحسبها ذكاء إذ تراها
تجمعت القلوب على يديها
تقلبها كما شاءت يداها

أحدت سيف فتنتها وجاءت
تثنى كالغزالة فى حلاها
وظنت أن قلبى سوف يصبو
وأنى سوف أصرع فى هواها
عجيب شأنها أو ليس تدرى بأنى قد عشقت جمال طه ؟

وليد لاح فى بيد دواج فأجلى ليلها وجلا ضحاها
تحدر من أصول طاهرات فزادت باسمه شرفا وجاها
وهل أعلى الشهاب سوى سناه وهل أغلى الجنان سوى جناها ؟

شكى الأعراب إجداب البوادى وقالوا مهمه بخلت سماها
فقلت : رويدكم ما الجدب إلا تخبط أمة ضلت هداها
كفاكم أن منبت خير هاد بواديكم فما أندى رباها

عذولى قال : من تهوى يتيم فقلت : أذل للحق الجباها
فقال : عشقت مسكينا فقيرا فقلت : أنفسه سلبت غناها
وما يتم الذى ساد البرايا ؟ وما فقر الذى وجد الآلها ؟

نبى جملته يد صناع وصانته العناية فى علاها
أمين صادق عف كريم أصاب من الفضائل منتهاها

شجاع فى الحقوق اذا استحقت وفى الهيجا إذا دارت رحاها

جننت بعشقه ولو آن قلبى به نار يحرقه لظاها
وهمت بحبه ولو آن عينى إذا أخفيت يفضحنى بكاها
ومن أهوى سواه وهو حقا سراج الكائنات ومصطفاها

سأصبر فى هواى فرب نفس يبلغها تصبرها مناها
وأرغم حاسدا لم يدر يوما جراحات القلوب ولا جواها
يجرعنى كؤوس اللوم مهلا ولو ذاق الملامة ما سقاها
دعوه فليذب باللوم نفسى فانى بعت ، والله اشتراها

محمد محمد اسماعيل عبده

أغاريد

للشاعر سعد وعيسى « من أسرة عطاظ »



مزامير داود هلمى ورددى
على مسمع التاريخ ألحان أحمد
تهادت على الدنيا ، وقد حال نبتها :
كأن صداها : الغيث يهمى بفدفد
أغاريد يشدوها الزمان بعالم
يصيخ لأوراق ، ويرنو لمسجد ! !
مزاميرها فجر : وقيثارها هدى
وألحانها نور به الكون يهتدى
إذا صدحت سالت شآبيب أدمعى
وإن همست فالقلب محراب مسجد
أغاريد لا تلقى الحداة فمن لها
بحاد يغنيها لشرق مصفد ؟ ؟

أغاريد أحيت عالما بعد موته ... وجمعت الدنيا على خير مقصد
وأهدرت الأنساب فى ظل راية ... ووحدت الآراء بعد تعدد
ألا إنه الاسلام ينبوع حكمة ! ! ... تدفق من سلساله كل مورد
سرى فى شرايين الزمان حضارة ... كفى أنها سوت مسودا بسيد
ولم تجعل الدنيا نصيبا لأبيض ... لتجعل كأس الذل من حظ أسود
فظلت بها الدنيا سماء لأنجم ... يضيء دجاها فرقد بعد فرقد
لقد عقمت أم الزمان فلم تلد ... ولن تلد الأيام مثل محمد
فياليت شعرى أين منها حضارة ... تنادى بشرع جاهلى معقد
تقول بأن السود هم أهل ذلة ... وتزعم أن البيض هم أهل سؤدد
وتحسب أنا فى زمان تقدم ... فيالك من وهم سريع التبدد
تأمل فهل تلقى سوى لوعة الأسى ... وأنة مفجوع وطرف مسهد
أرى عالما يبكى وغربا محطما ... وشرقا حزينا كاليتيم المشرد
ألا إنه الأسلام دين ودولة ... وذوب تسابيح ، وفيض تهجد
هو المشعل الوضاء فى حلكة الدجى ... هو الأمل الباقى وأنشودة الغد

الفجـــــــر

للشاعر محمد محمد على من أسرة المربد



فجر حوته من الغيوب سرائر
وطوت به ليل الوجود بشائر
رقصت لمطلعه الربى وتعانقت
من دوح جنات الخلود غدائر
وسرت بأعماق المشاعر نشوة
وشدا بألحان البشارة طائر
فى كل خفاق حميا فرحة
وجميع ذرات الوجود مشاعر
دفق الأشعة فى الرياض فهللت للضوء أغصان وورد ناضر
وتهادت الأكام عطرا نثه زهر يبلله الندى المتقاطر
سكرت لمسراه الطيور فأطلقت نغما يردده النسيم الساكر
وغدت عناقيد الكروم منارة زهراء يلثمها الفراش الحائر
والنخل رنق فى الغدير كأنه أشباح جن أو سحاب ماطر
جذلان يهمس فى الفضاء بنغمة تحدو ركاب الريح وهو مسافر
يتخطف الفلوات لا يلوى على شىء ولا يثنيه بحر زاخر
نشوان من خمر الصباح يهزه للخلد تحنان ووجد آسر
يشدو إذا لمس الجبال كأنما شدت على قمم الجبال مزامر
فيحن جلمود وتنصت ربوة وتفيق من حلم الدهور مغاور
وله بسفح الغاب صوت هاجس وله بقلب الغاب صوت هادر
فالغاب لحن والسباع مواكب فى الغاب تخطر والطيور قياثر
والجدول الوسنان عربد والتوى كالحلم زوقه الخيال العابر
يسعى إلى العشب النضير فتلتقى تحت الظلال خواطر وخواطر

حيرى تساءل عن عجائب ساقها وجرى بها هذا الصباح السافر
هل تلك أحلام القرون أثارها سبب طواه عن الهواجس ساتر
أم نفثة للسحر أطلقت الرؤى ومحا بها صمت الطبيعة ساحر
والبيد ودعت الدجى مزهوة بالحسن أفرغه الشعاع الغامر
فخرت وطاولت القصور أكامها ما الروض ما الربع الخصيب العامر
تلك التى للفجر من كثبانها ألق يحن له الزمان الغابر
طلعت على دنيا الظلام بآية غراء توجها الجلال الباهر
لولا هداها ما استبان لمصلح نهج الرشاد ولا تبلج خاطر
ولظلت الأيام ليلا دامسا يخشى غوائله الرهيبة سائر
الله أكبر قد تبلج واضحا فجر الهداية يجتليه الناظر
والحق مد على الوجود رواقه والحق ناه فى الوجود وآمر
فاذا تغشى الأرض ظل سحابة فلذلك الظل المخيم آخر
فى يمن فاروق وصولة عزمه للشرق والنيل الأبى بصائر

محمد محمد على

وكذلك أقامت جماعة دار العلوم بناديها حفلا لهذا المولد الكريم كان مما ألقى فيه كلمة للاستاذ محمد فياض بك موضوعها (تحقيق مولد النبي صلى الله عليه وسلم) وقصيدة للاستاذ محمد حليم عبد الحى عنوانها (ذكرى المولد النبوى) وهاهما :—

تحقيق مولد النبي صلى الله عليه وسلم

لحضرة الاستاذ الجليل محمد فياض بك
المدير العام المساعد للتعليم الأولى بوزارة المعارف

اختلفت الروايات فى تعيين اليوم الذى ولد فيه نبينا ﷺ وفى مثل هذا العصر الذى ازدهرت فيه العلوم وتناولت البحوث كل صغيرة وكبيرة لايصح أن يشوب هذا اليوم التاريخى العظيم لبس أو إبهام ، فواجب علينا أن نزيل كل شك فيه وأن نعرفه على حقيقته

وللوصول إلى هذا الغرض الأسمى نرى أنه لامندوحة عن الاسترشاد بأمور ثلاثة عن مولده: هى، تقويم العرب فى الجاهلية ، التقويم الهجرى ، تحقيق مولد النبي.

١ - تقويم العرب فى الجاهلية :

كانت السنة العربية فى عهد سيدنا إبراهيم وسيدنا اسماعيل اثنى عشر شهرا قمريا تضبط من رؤية الهلال إلى رؤيته ثانية . وكان منها أربعة حرم يقعد العرب فيها عن القتال هى الأول والسابع والحادى عشر والثانى عشر . وكانوا يحجون إلى الكعبة فى الشهر الأخير .

والأسماء التى كان العرب يطلقونها على الشهور وردت فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبى الريحان محمد بن أحمد البيروتى الخوارزمى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية . وهى كما يأتى بحسب ترتيبها :-

المؤتمر ، ناجر ، خوان ، صوان ، حنين أو حنين ، رنى ، الأهم ، عادل ، ناتق ، داغل ، هواع ، برك

وقد ذكر المسعودى أسماء الشهور القديمة فى مروج الذهب (الذى الفه سنة ٣٣٤ هجرية) وهناك اختلاف كبير بين الروايتين وهاهى الأسماء التى ذكرها :-

ناتق ، ثقيل ، طليق ، ناجر ، سماح ، امنح ، احكك ، كسع . زاهر ، برط ، حرف ، نعس ،

أما الأسماء المستعملة الآن فقد وضعت فى عهد كلاب بن مرة وهو الجد الخامس لنبينا (صلعم) وذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى تقريبا . والاشهر الحرم فيها هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ،ولهذه الأسماء معان ، وإذا رجعنا إلى كتب اللغة كالمحيط (للفيروزابادى) ولسان العرب ،لابن منظور، وبحثنا عن معانى الألفاظ التى ذكرها البيرونى والمسعودى وجدنا أن العرب فى الجاهلية كانوا يسمون الشهور كما يأتى:

(١) المؤتمر للمحرم (٢) ناجر لصفر (٣) خوان لربيع الأول (٤) صوان لربيع الثانى (٥) حنين أو ربا لجمادى الأولى (٦) رنى أو بائدة لجمادى الثانية (٧) الأصم لرجب (٨) واغل أو وغل لشعبان (٩) ناتق أو ناتل لرمضان (١٠) وعل أو عاول لشوال (١١) هواع أو رنه لذى القعدة (١٢) برك لذى الحجة .

وهذه الأسماء تكاد تكون متفقة مع رواية البيرونى ، أما الاسماء التى ذكرها المسعودى فليس لها فى كتب اللغة معنى زمنى إلا لشهرى ناتق وناجر ، ويغلب على الظن أن هناك خطأ فى شهر برط وأن المقصود منه هو شهر برك

وأسماء الشهور المستعملة الآن تدل على معان معروفة بيننا فيما يلى : -

المحرم : لأنه أحد الأشهر الأربعة التى حرموا فيها القتال

صفر : سمى بذلك لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم إلى الحرب وهو مأخوذ من قولهم صفرت الدار إذا خلت

ربيع الأول : وربيع الثانى : لأنهما وقعا وقت التسمية فى الخريف وكانت العرب تسمى الخريف ربيعا

رجب : لأنهم كانوا يعظمونه بترك القتال فيه ، من رجب الشىء أى هابه وعظمه

شعبان : لتشعب القبائل فيه إلى طلب المياه أو الغارات بعد رجب

رمضان : من الرمضاء لأنهم سموه وقت اشتداد الحر

شوال : لأن الابل كانت تلقح فيه أول وضعه فتشول بأذنابها أى ترفعها

ذو القعدة : لقعودهم فيه عن القتال

ذو الحجة : لاقامتهم الحج فيه .

ومبدأ التاريخ عند العرب كان فى أول العهد العام الذى بنى فيه سيدنا ابراهيم الكعبة (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) واستمر هذا إلى أن انهار سد مأرب وتفرقت القبائل من الجنوب إلى الشمال فاتخذ هذا الحادث مبدأ للتاريخ، ويرجح انهيار السد سنة ١٢٠ قبل الميلاد . ثم حسب مبدأ التاريخ من يوم وفاة كعب بن لؤى (سنة ٦٠ ق . م) وهو الجد الثامن لنبينا (صلعم) وأخيرا جعل من عام الفيل سنة ٥٧٠ بعد الميلاد واستمر هذا إلى الهجرة .

وكانت هناك مبادىء أخرى للتاريخ عند بعض القبائل مبنية على وقائع مشهورة كيوم الفجار عند قريش (٥٩٠ ميلادية) وبناء الكعبة و عهد النبى (٦٠٥ ميلادية) وكان العرب ينسئون الشهور فى الجاهلية : والنسىء لغة معناه التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت . وتدل الروايات التاريخية على أن النسىء كان على طريقتين هما :-

١ — كان العرب يفضلون أن يقع الحج فى فصل موافق للسياحة وهو الفصل الذى تنزل فيه الأمطار وينبت الزرع ولا يتحقق هذا إذا استعملوا سنة قمرية باستمرار لان مبدأها يدور مع الفصول بمضى السنين فاتبعوا طريقة اليهود فى استخدام سنة شمسية قمرية . ولكن لايعرف بالضبط النظام الذى اتبعوه فى كبس السنين، والقائل بطريقة الكبس عن العرب أبو معشر (٥) (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ) والبيرونى والمسعودى والمقريزى . وقد ذكر المسعودى أن العرب كانت تكبس فى كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسىء .

ولاندرى متى بدأ العرب باستخدام الكبس وإلى أى عهد استمروا فى العمل به وقد ذكر البيرونى أنهم بدءوا به قبل الاسلام بنحو ٢٠٠ سنة

٢ — كان العرب يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم (هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) لايغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فكانوا يحلون أحد هذه الأشهر ويحرمون شهرا آخر مكانه

(٥) هوجعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخى وهو فلكي شهير

والمعروف أن هذه الطريقة استمرت إلى مابعد هجرة النبى (صلعم) . وأول من عهد إليه بتطبيقها رجل من كنانة يسمى القلمس (أى البحر الزاخر) . وتولاه بعده أبناؤه ، وفى ذلك قال شاعرهم

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

وقال آخر

لنا ناسىء تمشون تحت لوائه يحل إذا شاء الشهور ويحرم

وكان العرب إذا فرغوا من حجهم ذهبوا إلى القلمس فيصعد على موقف الخطابة فى عرفة ويقول (أنا الذى لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لى قضاء) فيقولون صدقت ثم يحرم الأشهر الأربعة ذا القعدة وذا الحجة والمحرم ورجب فاذا أرادوا أن يحل منها شيئا أحل شهرا فأحلوه وحرم مكانه آخر فحرموه .

وحرم النسىء فى الاسلام فى السنة العاشرة من الهجرة أثناء حجة الوداع ، وفى الخطبة التى ألقاها النبى فى الليلة العاشرة فى شهر ذى الحجة قال عن النسىء ما يأتى :

أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان .

ومن هذا العهد أى من السنة العاشرة للهجرة أصبحت السنة الاسلامية اثنى عشر شهرا قمريا لاتزيد ولاتنقص بالكبس ولا يتغير ترتيبها بالنسىء ولايزال هذا النظام متبعا إلى الان

٢ - التقويم الهجرى :

وضع التقويم الهجرى فى خلافة عمر الفاروق رضى الله عنه فى السنة السابعة عشرة من هجرة سيد الكائنات . ويرجع السبب فى وضعه إلى أن سيدنا عمر لما ولى أبا موسى الأشعرى على اليمن (وفى رواية على البصرة) أرسل اليه كتابا ذكر فيه شهر شعبان فكتب له أبو موسى يسأله أى شعبان يريد الماضى أم الآتى . فأدرك

عمر ضرورة وضع مبدأ للتاريخ الاسلامى ، فجمع الصحابة وأخبرهم بالأمر فقال بعضهم أرخ بالمبعث وقال البعض الآخر أرخ بالهجرة،فقال عمر الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه . وتدل الروايات الكثيرة على أن الذى أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلى . وقد اتخذ أول المحرم من السنة التى هاجر فيها النبي مبدأ للتاريخ الاسلامى بالرغم من أن الهجرة لم تقع فى هذا اليوم . وذلك للأسباب الآتية : —

١ — شهر المحرم كان من قديم الزمن أول شهور السنة عند العرب

٢ — كانت بيعة العقبة فى شهر ذى الحجة وبعدها أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى المدينة واللحاق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها . فخرجوا أرسالا رجالا ونساء . وكان أول هلال استهل بعد البيعة والأذن بالهجرة هو هلال المحرم

٣ — لم يخالف المسلمون الأمم الأخرى فى اتخاذ أول السنة التى وقعت فيها أشهر حوادثهم مبدأ لتاريخهم . فالمسيحيون مثلا جعلوا مبدأ تاريخهم أول يناير من السنة التى ولد فيها المسيح وهم يعتبرون مولده فى ٢٥ ديسمبر . والأقباط جعلوا أول شهورهم توت لأنه كان أول شهر فى السنة عند قدماء المصريين .

والسنة فى التقويم الهجرى اثنا عشر شهرا قمريا . ويبدأ الشهر من ليلة الاستهلال ويتعين الاستهلال شرعا برؤية الهلال . ولما كانت رؤيته تتوقف على عوامل متغيرة كحالة الجو وشدة ضوء الهلال وغير ذلك فكثيرا ما تتعذر رؤيته عند مولده .

ويعتمد الفلكيون فى تعيين أول الشهر على اجتماع الشمس بالقمر ، أى عندما يقع القمر بين الأرض والشمس . فإذا ماوقع الاجتماع كانت أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر وما قبلها يكون من الشهر الماضى .

وهذا هو المتبع فى حساب الشهور القمرية فى نتيجة الحكومة المصرية .

وقد تتفق الرؤية مع الحساب وقد يتقدم الحساب على الرؤية بيوم أو يومين . ولا يمكن أن تتقدم الرؤية على الحساب .

والحساب مبادىء الشهور والسنين الماضية والقادمة وعدد أيامها لا يصح الاعتماد

على الرؤية إذ لا يمكن التنبؤ بالوقت الذى فيه تستطيع العين أن ترى الهلال فى الشهور القادمة . وقد يتعذر معرفة أوقات الرؤية فى الشهور الماضية وليس من السهل الرجوع إلى الحساب الفلكى لأنه يستلزم عمليات معقدة لا يدركها إلا من درسها وأتقنها .

ولتعيين مبادىء الشهور والسنين فى الماضى والمستقبل وعدد أيامها قد اصطلح على اتباع ما يأتى :

(أولا) تحسب الشهور الفردية الترتيب محتوية على ٣٠ يوما والزوجية على ٢٩ يوما فيكون المحرم ٣٠ يوما وذو الحجة ٢٩

(ثانيا) يحدث من حساب الشهور بهذه الطريقة جعل السنة ٣٥٤ يوما وهذه المدة تنقص عن ١٢ شهرقريا بقدر ١٢ × ٢٩٫٥٣٠٥٨٨ - ٣٥٤ أى ٠٫٣٦٧٠٥٦ من اليوم ، ويبلغ هذا الفرق نحو ١١ يوما كل ٣٠ سنة فيلزم إضافته فى هذه المدة والطريقه المتفق عليها أن يعتبر فى كل ٣٠ سنة ١١ سنة كبيسه يحتوى كل منها على ٣٥٥ يوما وهذه السنون هى ٢ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ويضاف اليوم الزائد إلى شهر ذى الحجة فيصبح ٣٠ يوما .

ولمعرفة السنين الكبيسة تقسم السنة على ٣٠ فيكون الخارج عدد الدورات الثلاثينية الماضية والباقى هو عدد السنة فى الدورة الحالية فإن كان هذا الباقى أحد الاعداد المتقدمة كانت السنة كبيسة وإلا فهى بسيطة .

وظاهر أن كل دورة ثلاثينية تحتوى على ٣٠ × ٣٥٤ + ١١ أى ١٠٦٣١ يوما ومن السهل حساب الايام الواقعة بين سنتين معينتين باتباع ما يأتى :

(١) تحسب عدد الدورات الثلاثينية المحصورة بين السنتين وتقدر أيامها

(٢) تعين السنون البسيطة والكبيسة فى الباقى وتقدر أيامها

(٣) تضاف أيام الدورات إلى أيام السنين الباقية فيكون المجموع عدد الأيام المحصورة بين السنتين .

ورأس السنة الهجرية ليس ثابتا فى وقت معين من السنة الشمسية بل هو دائر فى أيامها ويمر بجميع الفصول الأربعة مرة كل ٣٣ سنة . وأكثر ما يلاحظ

هذا التغيير فى شهر رمضان الذى قد يقع فى الشتاء أو الربيع أو الصيف أو الخريف

تعيين مبدأ التاريخ الهجرى :

يلزم تعيين مبدأ التاريخ الهجرى بدقة لأنه هو الأساس الذى يرجع اليه فى تحديد تواريخ الحوادث الشهيرة ولتعيينه يجب تحديد اليوم الموافق له فى تقويم آخر مضبوط كالتقويم اليوليانى أو الجرجوارى أو العبرى .

والمعروف أن السنين الهجرية لم يحصل فيها تغير من شهر ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة إلى اليوم أى من سنة حجة الوداع .

أما السنون العشر السابقة لهذا التاريخ فنظامها مجهول لأننا لاندرى ، أكان العرب قد أدخلوا فيها الكبس أو جعلوها قمرية بحتة ، والوصول إلى حقيقة هذه السنين يلزم الاسترشاد ببعض حقائق معروفة تتلخص فيما يأتى : —

(١) يستنبط من مجموع الروايات أن صاحب الشريعة الغراء بارح مكة مهاجرا قبيل ختام صفر ببعض أيام ومكث ثلاث ليال فى غار ثور ثم خرج آخر الليل ليلة غرة ربيع الأول قاصدا يثرب ووصل إلى قباء ، على بعد فرسخين من المدينة ، يوم الاثنين ٨ ربيع الأول وقت الظهر واستراح بها أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس المسجد الشريف أول مسجد فى الاسلام ثم شرف يوم الجمعة المدينة المنورة .

(٢) روى صاحب السيرة الحلبية الحديث الآتى : —

فى كلام الحافظ ناصر الدين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله قدم المدينة يوم عاشوراء فإذا اليهود صيام فقال ماهذا قالوا هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ونجىّ فيه موسى فقال أنا أولى بموسى وأمر رسول الله بصومه .

وهذا حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم ، والمراد بالمدينة هنا قباء . والمقصود بعاشوراء ليس العاشر من المحرم كما هو عرف الاسلام بل عاشوراء اليهود بدليل أن النبى سأل قائلا ماهذا . ولو كانت عاشـــوراء هى العاشر من المحرم لكان الحديث مناقضا لما جاء من أن الهجرة كانت فى ربيع الأول على ماقطعت به الروايات الصحيحة .

وعاشوراء اليهود يكون فى اليوم العاشر من أول شهورهم وهو تشرى ولقد جعله المسلمون العاشر من أول شهورهم وهو المحرم .

ويستخلص مما تقدم أن نبينا « صلعم » وصل إلى قباء فى يوم الاثنين ٨ ربيع الأول وكان هذا اليوم يوافق ١٠ تشرى .

ومن هذين التاريخين المتفقين يمكن معرفة نظام الشهور والسنين العربية فى السنين العشر التالية للهجرة وذلك باتباع ما يأتى : —

(١) يعين ابتداء شهر حجة الوداع أى أول ذى الحجة سنة ١٠ ويحدد التاريخ الذى يقابله من التقويم العبرى .

(٢) نرجع القهقرى من أول ذى الحجة سنة ١٠ إلى أول ربيع الأول من السنة الأولى الهجرية باعتبار أن السنين العربية كانت قمرية بحتة ثم باعتبار أنها كانت مكبوسة كسنى اليهود ونرى فى أى الحالتين يكون ربيع الأول من السنة الأولى الهجرية موافقا لشهر تشرى . وبهذا يمكن معرفة النظام الذى كان متبعا فى حساب السنين فى هذه الفترة .

ولحساب التاريخ العبرى الموافق لأول ذى الحجة سنة ١٠ نأخذ أى تاريخين متفقين من الهجرى والعبرى . مثل أول ذى الحجة سنة ١٣٦٤ وهو يوافق أول كسلو سنة ٥٧٠٦ (وفقا لنتيجة الحكومة المصرية) . ونحسب المدة المحصورة بين أول ذى الحجة سنة ١٠ وأول ذى الحجة سنة ١٣٦٤ فنجدها ١٣٥٤ سنة قمرية أى ١٣٥٤ × ١٢ = ١٦٢٤٨ شهرا قمريا . وإذا رجعنا من أول كسلو سنة ٥٧٠٦ مدة ١٦٢٤٨ شهرا متبعين نظام التقويم العبرى فانا نصل إلى أول أدار الثانى سنة ٤٣٩٢ .

وينتج من هذا أن أول ذى الحجة سنة ١٠ يوافق أول أذار الثانى سنة ٤٣٩٢ ويتضح ذلك من الرسم الآتى : —

أول ذى الحجة سنة ١٠	١٦٢٤٨ شهرا	أول ذى الحجة سنة ١٣٦٤
أول أدار الثانى سنة ٤٣٩٢		أول كسلو سنة ٥٧٠٦

وإذا رجعنا من أول ذى الحجة سنة ١٠ إلى أول ربيع الأول سنة ١ هجرية واعتبرنا أن الشهور فى هذه الفترة كانت قمرية بحتة بدون كبس فإن الفترة بين التاريخين تكون ١١٧ شهرا . وإذا رجعنا من أول أدار الثانى سنة ٤٣٩٢ مدة ١١٧ شهرا فانا نصل إلى أول تشرى سنة ٤٣٨٣ .

وإذا اعتبرنا أن الشهور فى هذه الفترة كانت مكبوسة كشهور اليهود فانها تبلغ ١٢٠ شهرا لأن اليهود كبسوا ثلاثة شهور فيها وفقا لنظام التقويم العبرى . وبالرجوع ١٢٠ شهرا من أول أدار الثانى سنة ٤٣٩٢ نصل إلى أول تموز سنة ٤٣٨٢ أى قبل تشرى بثلاثة شهور .

وتتضح هاتان العمليتان من الرسم الآتى : —

أول ربيع الأول سنة ١	١١٧ شهرا	أول ذى الحجة سنة ١٠
أول تشرى سنة ٤٣٨٣	بدون كبس	أول أذار الثانى سنة ٤٣٩٢

أول ربيع الأول سنة ١	١٢٠ شهرا	أول ذى الحجة سنة ١٠
أول تموز سنة ٤٣٨٢	مع الكبس	أول أذار الثانى سنة ٤٣٩٢

ومن هذا الحساب يستخلص ما يأتى : —

١ — إذا كان العرب استعملوا فى السنين العشر الأولى من الهجرة حساب السنين المتبع الآن فى التقويم الهجرى فإن دخول النبى قباء يكون فى شهر تشرى وهو الشهر الذى يقع فيه عاشوراء اليهود .

٢ — وإذا كانوا قد استعملوا الكبس فى هذه السنين فإن دخوله قباء لا يكون فى هذا الشهر .

وبما أن الروايات الصحيحة أجمعت على أنه لما وصل قباء وجد اليهود صائمين

عاشوراء ينتج أن السنين العشر الأولى من الهجرة كانت سائرة على النظام المتبع الآن .

ويجب الاشارة إلى أن لليهود عاشوراء آخر يقع فى ١٠ طبت وكلا اليومين يصام عندهم وشهر طبت لا يتفق مطلقا مع الحساب المتقدم لأنه لا يأتى مع ربيع الأول سواء فى حالة الكبس أو غيرها .

ومما تقدم تتقرر حقيقتان هامتان، هما أن التقويم الهجرى لم يحدث فيه تغيير من السنة العاشرة للهجرة وأن السنين العشر السابقة لهذه السنة كانت قمرية بحتة أى متفقة مع التقويم الحالى . وعلى ذلك يمكن اعتبار هذا التقويم سائرا بانتظام من السنة الأولى للهجرة الى يومنا هذا .

وعلى هذا المبدأ يسهل تعيين التاريخ اليوليانى الموافق لأول المحرم من السنة الأولى للهجرة وذلك باتباع الطريقة الآتية :

نأخذ أى تاريخين متفقين من الهجرى واليوليانى مثل أول المحرم سنة ١٣٦٤ هجرية . وبالحساب الفلكى وفقا لنتيجة الحكومة المصرية يولد هلال هذا الشهر فى يوم الجمعة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٤ الساعة ٤ والدقيقة ٣٤ مساء . فيعتبر أول المحرم سنة ١٣٦٤ موافقا ليوم السبت ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٤ جرجواريه أو السبت ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ يوليانيه .

نرجع من أول المحرم سنة ١٣٦٤ هجرية إلى أول المحرم سنة ١ هجرية . وهذه الفترة تساوى ١٣٦٣ سنة بها ٤٨٣٠٠٢ يوما . وفقا للتقويم الهجرى .

وإذا راجعنا هذا العدد من الأيام مبتدئين بيوم السبت ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ومتبعين نظام التقويم اليوليانى فاننا نصل إلى يوم الخميس ١٥ يوليه سنة ٦٢٢ يوليانية . إذن أول المحرم سنة ١ هجرية يوافق الخميس ١٥ يوليه سنة ٦٢٢ ميلادية يوليانية .

وهذا هو ما يؤدى إليه الحساب، أما بالرؤية ، فالمتفق عليه أن أول المحرم من السنة الأولى الهجرة يوافق يوم الجمعة . وعلى هذا الاعتبار يكون مبدأ السنة الهجرية الأولى بالرؤية يوم الجمعة ١٦ يولية سنة ٦٢٢ ميلادية يوليانية . أو الجمعة ١٩ يوليه سنة ٦٢٢ جرجواريه . والحساب المتقدم يبين بالرسم كما يأتى : —

أول المحرم سنة ١ هجرية السبت أول المحرم سنة ١٣٦٤ هـ

١٣٦٣ سنة هجرية = ٤٨٣٠٠٢ يوما

السبت ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ يولية

بالحساب الخميس ١٥ يوليه سنة ٦٢٢ يوليانيه

بالرؤية الجمعة ١٦ يولية سنة ٦٢٢ يوليانية

« الجمعة ١٩ يولية سنة ٦٢٢ جرجوارية

٣ ـ تحقيق مولد النبي : ـ

اختلفت الروايات فى تعيين مولد النبي صلى الله عليه وسلم، والتواريخ المذكورة بها كثيرا ما تكون مزيجا من تقاويم مختلفة كأن يكون الشهر عربيا والسنة عبرية أو سوريانية أو العكس . وأشهر هذه الروايات مايأتى : ـ

«١» جاء فى الجزء الأول من السيرة الحلبية عن قتادة رضى الله عنه أن رسول الله « صلعم » سئل يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه

«٢» جاء فى كتاب الارشاد للبيرونى أن النبي سئل عن يوم الاثنين فقال هذا يوم ولدت فيه وبعثت فيه وأنزل على فيه وهاجرت فيه

«٣» قال الشيخ الامام شمس الدين محمد بن سالم فى كتاب الجفر الكبير . وقد صح أن النبي ولد فى شهر ربيع الاول فى العشرين من نيسان عام الفيل وفى عهد كسرى انو شروان . وشهر نيسان السوريانى يوافق ابريل اليوليانى .

«٤» قال المسعودى فى مروج الذهب الذى صح من مولده أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوما وكان قدومهم يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٨٨٢ من عهد ذى القرنين . وكان مولده لثمان خلون من ربيع الأول

«٥» ذكر جرجس بن أبى إلياس بن أبى المكارم بن أبى الطيب المعروف بابن العميد فى كتابه المسمى مختصر التاريخ «ولد ببطحاء مكة فى الليلة المسفرة عن صباح يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول يوافقه من شهور الروم الثانى والعشرين من نيسان سنة ٨٨٢ للاسكندر »

«٦» ورد أيضا لابن العميد أن محمدا بلغ الثامنة من عمره وقت أن مات كسرى أنوشروان . وحيث إن وفاته كانت فى سنة ٥٧٩ ميلادية فتكون ولادة النبى سنة ٥٧١ ميلاديه .

«٧» قال ابن الأثير إن كسرى حكم ٨ شهور و٤٧ سنه وإن كسرى عاش ٨ شهور و٧ سنين بعد ولادة النبى، وحينئذ يكون كسرى حكم ٤٠ سنة لعهد ولادة النبى وبما أن هذا الملك تولى سنة ٥٣١ ميلادية يكون مولد النبى سنة ٥٧١ ميلادية .

«٨» هناك روايات أخرى كثيرة تقول بأن مولده فى فصل الربيع فى الثامن أو العاشر أو الثانى عشر من شهر ربيع الأول ومن مجموع هذه الروايات يرى أن هناك اتفاقا على أن مولده كان يوم الاثنين وفى شهر ربيع الأول وفى سنة ٥٧١ ميلادية أو ٨٨٢ للاسكندر . وهاتان السنتان متفقتان لأن سنة ٨٨٢ فى التقويم السيلوسيدى (السوريانى) توافق سنة ٥٧١ ميلادية .

وعلى هذا الأساس يمكن بالحساب تحديد موقع يوم ولادته من شهر ربيع الأول . وذلك باتباع الخطوات الآتية : —

(١) بالرجوع إلى التقويم اليوليانى يمكن معرفة اسم اليوم الذى ابتدأت به سنة ٥٧١ يوليانيه ، وهو يوم الخميس

(٢) أول المحرم من السنه الأولى الهجرية وافق الخميس ١٥ يوليه سنة ٦٢٢ يوليانية (بالحساب لا بالرؤية) والمدة المحصورة بين أول يناير سنة ٥٧١ إلى ١٥ يولية سنة ٦٢٢ يوليانيه تساوى ١٨٨٢٣ يوما

(٣) نرجع من الخميس أول المحرم سنة ١ هجرية مدة ١٨٨٢٣ يوما مع اتباع نظام التقويم الهجرى فنصل إلى يوم الخميس ١٩ ذى القعدة سنة ٥٤ قبل الهجرة

وينتج من ذلك أن مبدأ سنة ٥٧١ ميلادية التى ولد فيها الرسول يوافق الخميس ١٩ ذى القعدة سنة ٥٤ قبل الهجرة .

(٤) بما أن مولده كان فى شهر ربيع الاول فتقدم من ١٩ ذى القعدة إلى أول ربيع الاول وهذه الفترة تبلغ ١٠١ يوم فنصل إلى السبت أول ربيع الاول سنة ٥٣ قبل الهجرة ، وهذا يوافق الاحد ١٢ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية

والعمل فى هاتين الخطوتين مبين بالرسم الآتى :-

الخميس ١٩ ذى القعدة سنة ٥٤ ق . هـ — الخميس أول المحرم سنة ١ هجرية

١٨٨٢٣ يوما

الخميس أول يناير سنة ٥٧١ — الخميس ١٥ يوليه سنة ٦٢٢

أول ربيع الاول سنة ٥٣ ق . هـ — الخميس ١٩ ذى القعدة سنة ٥٤ ق . هـ

١٠١ يوم

الاحد ١٢ ابريل سنة ٥٧١ — الخميس أول يناير سنة ٥٧١

ويستخلص من ذلك أن ربيع الاول الذى ولد فيه نبينا ﷺ بدأ بيوم الاحد، ويدلنا الحساب الفلكى على أن الاجتماع الحقيقى للقمر فى شهر ابريل سنة ٥٧١ وقع فى يوم ١١ ابريل الساعة ٩ والدقيقة ٤١ بعد نصف الليل ، فتكون غرة ربيع الاول يوم الاحد . وبما أن النبى ولد يوم الاثنين فاول يوم اثنين فى ربيع الاول يوافق اليوم الثانى منه . وهذا اليوم لا يتفق مع الروايات الكثيرة التى تقول بأن مولده فى يوم الاثنين الثامن أو العاشر أو الثانى عشر من ربيع الاول

وإذن يتعين أن يكون مولده ﷺ فى يوم الاثنين التالى أى ٩ ربيع الأول .

ويستخلص من ذلك أن مولده كان فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة الموافق ليوم ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية يولية .

ونتيجة الحكومة المصرية تحدده بيوم الخميس ٢٣ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية وهو التقويم الجرجوارى المقابل ليوم ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ يولية . إلا أن هناك خطأ فى احتسابه يوم الخميس إذ هو فى الحقيقة يوم الاثنين .

وقد فرضنا فى الحساب المتقدم أن السنين العربية كانت قمرية بحته إلى يوم ولادته مع أن هذا لم يتحقق إلا لمبدأ السنة الأولى للهجرة .

وهناك من الأسباب مايبرر القول بأن العرب كانوا يستعملون الحساب القمرى المحض فى السنين الخمسين التى سبقت الهجرة ومنها ما يأتى : —

(١) دخل النبى قباء يوم ٨ ربيع الأول من السنة الأولى الهجرية واعتبر العرب مولده الشريف حول ٨ ربيع الأول فالفترة بين التاريخين تكاد تكون عددا صحيحا من سنى العرب فى هذا العهد . والتاريخ الأول يوافق ٩ سبتمبر سنة ٦٢٢ والتاريخ الثانى يوافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ وبحساب الأيام المحصورة بين هذين التاريخين نجدها ١٫٧٨١ يوما وبقسمتها على عدد أيام السنة القمرية وهى ٣٥٤,٣٦٧ ينتج ٥٣ سنة وجزء من اليوم وهو عدد صحيح من السنين وإذا كان العرب قد استعملوا الكبس فى هذه المدة فان هذه الأيام لا تساوى عددا صحيحا من السنين لأن الروايات التى ذكرت عن الكبس هى : —

ا — إضافة ٩ أشهر كل ٢٤ سنة فيكون متوسط السنة ٣٦٥,٤٤١ يوما

ب — « ٧ « « ١٩ « « « « ٣٦٥,٢٤٦ «

حـ — « ١ « « ٣ « « « « ٣٦٤,٢١١ «

د — « ١ « « ٢ « « « « ٣٦٦,١٣٢ «

وبقسمة ١٨٧٨١ يوما على كل من هذه المتوسطات لايكون الناتج عددا صحيحا من السنين ومن هذا يستدل على أن العرب لم يستعملوا الكبس فى هذه الفترة من الزمن .

(٢) ولد النبى فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة والثابت أن وفاته كانت فى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ فالفترة بين المولد والوفاة ٦٣ سنة وأربعة أيام . والتاريخ الأول يوافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ والثانى يوافق ٨ يونية سنة ٦٣٢ والفرق بين هذين التاريخين ٢٢٣٣٠ يوما وهذه الأيام تساوى ٦٣ سنة قمرية وأربعة أيام .

وفى هذا دليل آخر على أن العرب لم يستعملوا الكبس فى هذه الفترة .

ومما تقدم يستدل على أن كبس السنين لم يستعمل عند العرب من يوم مولده (صلعم) وبهذا يمكن حساب السنين العربية قمرية بحتة إلى هذا اليوم .

إن الزمان قد استدار

أشرنا من قبل إلى أن النبي قال فى حجة الوداع « أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض .

فماذا يقصد النبي بالنسىء الذى قال عنه إنه زيادة فى الكفر ؛ والنسىء كان على طريقتين عند العرب، إحداهما بالكبس والأخرى بنقل حرمة أحد الشهور إلى شهر آخر .

وطريقة الكبس نظام ثابت لا يتغير من عام إلى آخر، وهى لا تتفق مع قوله « يحلونه عاما ويحرمونه عاما » . فيكون المقصود بالنسىء فى خطبة النبي هو الطريقة الثانية التى كان العرب يتلاعبون فيها بالشهور الحرم تبعا لأهوائهم وميلهم للغارات، فيحرمون شهرا فى عام ويحلونه فى عام آخر .

وأما قوله إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، ففيه إشارة إلى ظاهرتين هامتين هما : —

(١) كانت سنة اليهود فى أول العهد قمرية بحتة ومتفقة مع سنة العرب ولكنهم أدخلوا فيها الكبس . فاذا ما أضافوا شهرا بعد فترة معينة تقدم مبدأ السنة العربية شهرا عن سنة اليهود ، وإذا ما أضافوا شهرين تقدم المبدأ شهرين وهكذا .

وقد يتفق مبدأ السنتين بعد مضى فترة تكون فيها الشهور المكبوسة ١٢ شهرا . وقد كانت حجة الوداع فى شهر ذى الحجة من السنة العاشرة الهجرية وقد أثبتنا أن هذا الشهر وافق شهر أذار الثانى من سنى اليهود بحيث يكون أول المحرم من السنة الحادية عشرة الهجرية موافقا لشهر نيسان الذى هو أول شهور السنة الدينية عند اليهود ، فاستدارة الزمان هنا معناها اتفاق السنتين العربية القمرية واليهودية الدينية فى أول شهورهما . ولا يحدث هذا الاتفاق إلا إذا كان مجموع ما كبسه اليهود من الشهور من مبدأ الكبس مساويا لعدد صحيح من أدوار ، كل منها ١٢ شهرا . وبعد هذه الأدوار تكون سنة اليهود الدينية قد رجعت فى زمن حجة الوداع

كما كانت عليه أيام ابراهيم واسماعيل وكأنها لم يتخللها كبس .

والنظام الحالى للكبس عند اليهود يقضى باعتبار كل ٢٣٥ شهرا قمريا ١٩ سنة عبرية أى أنهم يكبسون ٧ أشهر كل ١٩ سنة فبعد مضى ١٣٥ × ١٢ أى ٢٨٢٠ شهرا تكون قد مضت ٢٢٨ سنة عبرية ، ٢٣٥ سنة قمرية ويتفق مبدأ السنتين .

(٢) (*) كان القلمس الذى عهد إليه بأمر النسىء وكذا أبناؤه من بعده، يقوم خطيبا فى الموسم بعد انقضاء الحج بعرفات فينسىء المحرم ولا يعده من الشهور الاثنى عشر ويجعل أول شهور السنة صفرا فيصير المحرم آخر شهر ويقوم مقام ذى الحجة ويحج فيه الناس ويكون الحج فى المحرم مرتين فى سنتين متتاليتين . ثم يقوم خطيبا فى السنة الثالثة وينسىء صفرا الذى جعله أول الشهور للسنتين الأوليين ويجعل شهر ربيع الأول أول الشهور للسنة الثالثة والرابعة حتى يقع الحج فيها فى صفر الذى هو آخر شهور هاتين السنتين . ولا يزال هذا دأبه كل سنتين حتى يجعل المحرم أول السنتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين . وبعد انقضاء هاتين السنتين يكون قد نسأ ١٢ شهرا . فاذا بدأت السنة الخامسة والعشرون بالمحرم فان الشهور تعود إلى أصولها كما كانت من قبل .

وفى السنة الثامنة من الهجرة فتح النبى مكة وكانت هذه السنة توافق السنة الثالثة والعشرين من دور النسىء وكان موعد الحج فيها شهر ذى الحجة ولم يؤد النبى فيها فريضة الحج على تمامها كما يؤديها المسلمون اليوم لأن هذا الشهر لم يكن على حقيقته إذ كان ذا القعدة أصلا . وفى السنة العاشرة من الهجرة ابتدأت السنة الخامسة والعشرون من دور النسىء وعادت الشهور إلى أصولها وأصبح الحج فى ذى الحجة وفيها وقعت حجة الوداع . وعلى هذا تكون عبارة « استدارة الزمان » دالة على رجوع الشهور إلى أصولها وكأنها لم تتأثر بالنسىء . ويتضح مما تقدم أن ما جاء على لسان النبى فى حجة الوداع جلى ظاهر واضح المعنى والرسول لا يلقى الكلام جزافا ولا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا حقا .

(*) مختصر من كتاب الالوف لابى معشر

ملاحظة :

كان صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة ولما استدار العام حدثت عمرة القضاء وأتم النبى فيها فرائض العمرة ، إذ طاف بالكعبة وسعى بين الصفا والمروة ونحر الهدى وحلق رأسه . وفى السنة الثامنة فتح النبى مكة وطاف بالبيت ثم حطم أصنام الكعبة . وفى السنة التاسعة حج أبو بكر بالناس . وفى السنة العاشرة حج النبى بالناس .

محمد فياض

المراجـــع

١ ــ دائرة المعارف الانجليزية .

٢ ــ نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الاسلام . ألفه بالفرنسية المرحوم محمود باشا الفلكى وترجمه إلى العربية أحمد زكى أفندى .

٣ ــ إصلاح التقويم للغازى احمد مختار باشا .

فى ذكرى المولد النبوى

للاستاذ محمد حليم عبد الحى

وقفت بعيد الدهر أشدو وأنشد ... فذلك عيـــد فى الزمان مخلد
شهدت به نورا وطهرا وعزة ... وذكرى بها النفس الأبية تسعد
لمن هى بين الناس تسطع ريحها ... وتنفحنا عرف الندى فنمجد
لمن ملأ الدنيا سناء وبهجة ... ومن هو فى الدنيا رجاء ومقصد

نبى الهدى أشرقت فى الناس رحمة ... وذكرك فى التاريخ عيد ومولد
نشرت تعاليم الحنيفة سمحة ... وأسعدت دهرا بالفضائل يشهد
وصيرت صحراء الجزيرة كلها ... مثابة أمن للعظائم تنشد
وجاهدت كفر المشركين بعزمة ... أطاحت لهم رأيا يضل ويفسد
سموت بهم ترجو لهم كل غاية ... وعزمك بين المشركين موكد
لقيت من الكفر الأثيم عداوة ... ولو عقلوا دينا حنيفا لأيدوا
نشرت تعاليم السماح شريعة ... وما كنت فى تأييدها تتردد
جعلت لواء الدين عزا ومنعة ... هو النور بين المسلمين وسؤدد
وقفت أمام الشرك تهزم ركنه ... ومثلك للاسلام والحق يصمد
لقد أيقظ الاسلام للدين أمة ... فصارت به فى الكون تسمو وترشد
إذا كان شرع الله عدلا ورحمة ... فكيف نرى كفرا يسود ويحسد
أيجمل عهد الشرك وهو مهانة ... ويحيا على الدنيا كفور وملحد
وفى الدين إشراق وفيه طهارة ... وفيه صفاء للنفوس ومحتد
رويد، أبا جهل، لقد ضل الحمى ... أيطفىء نور الله رأى مفند
ألم يشهد الدنيا وفيها نضارة ... الم يرها تعنو وجوها وتسجد
أيعبد اصناما ويعلى لواءها ... وماهى إلا صخرة تتجسد
أرى عابد «العزى» لها كان خاشعا ... يقدسها جهـــلا ولله يجحد
«مناة» من الصخر الأصم تجسمت ... ولكنها فى ساحة الشرك تعبد
لقـــد ضل أعداء الحنيفة رشدهم ... وعيش غواة الشر فى الناس أنكد

وقد سادهم بالدين من كان بينهم مسودا فأمسى وهو بالدين سيد

إمام الهدى أبلغت حتى تبلجت أياديك والقرآن حق يؤيد
بعثت لنا سعدا رسول سعادة بها الدهر شاد والطيور تغرد
جواد تبارى الريح ان هى ارسلت ـ أأنت تبارى الريح ـ بل أنت أجود

سطعت نبى العالمين على الورى وأشرقت، أنت النور ، أنت محمد
هديت غوى الجاهلية فأنبرى يسبح بالدين الحنيف ويحمد
وسار على نهج الطريق ووجهه وأصبح بالاسلام يسمو ويرشد

لقد فزع الايوان فى صبح مولد وضل صواب الرأى بل كاد يجمد
رأى النور فارتاعت له جنباته أليس هو الصرح المشيد الممرد
لقد رهب الايوان مجدا لأمة تقض به مجدا ـ لكسرى ـ وتخمد
وقالوا ضياء أين مصدر شمسه ولم يدر ـ كسرى ـ أنك اليوم تولد
معان على التاريخ توقظ أمة وتجعلها باسم الحنيفة تخلد
لقد هابك الاعداء ثلت عروشهم وأهطع للاسلام عاص مشرد
إذا كانت الذكرى ثناء ومدحة فذكرك عذب للنفوس ومورد

نبى الهدى هـذى تحية شاعر يقصر فى الذكرى وما يتعمد
إذا أنا أرسلت البيان تحية فان بيان يوم ذكراك يسعد
تقبل ثناء الشعر هـذا وفاؤه يحييك فى عيد الخلود فيحمد
وهذا بيانى فاض بالحب والهوى فأنت هوى قلبى وللروح مقصد

قريضى بلغت السن فى ذكر ليلة فكن خاشعا إن قمت فى الحفل أنشد
وسر بالتحايا العاطرات لقبره ففيه عظيم الكون والله يشهد
نبى سما ذكرا وشع طهارة وها نحن بالجاه العريض نمجد
بلغت من الاخلاق أكرم غاية وربك يوحى الفضل : نعم المؤيد
سعدت فأسعدت الليالى بأسرها وها نحن آمنا ولله نعبد
فعش أنت فى الجنات سيد أمة فانك محمود الخلال وأحمد

محمد حليم عبد الحى

فى رسالة الغفران لابى العلاء

بقـــلم

السباعى بيومى الاستاذ بكلية دار العلوم

— ٤ —

رابعا السخرية والتهكم فيها

إذا أردنا أن نرجع السخرية والتهكم ، إلى أصلها الأصيل وقرارها المكين ، لم نجد ذلك الأصل إلا الغرور والعبث ، فالمغتر الذى يظهر بما ليس من شأنه، كالقصير المتطاول والشيخ المتصابى والخفيف المتوقر ، مادة للسخرية والتهكم ، والعابث الذى يحاول مالا يقدر عليه كالطفل يجهد نفسه ليغلب أباه ،والعاجز يسعى إلى ماهو منه فى السماء ، محل سخرية به وضحك عليه من الناس أيضا ؛ وإذ كان هذا كذلك ، وكان موقف أبى العلاء من الناس أن كل دعاويهم فى نظره غرور لا حقيقة له ، وأن كل غاياتهم عنده عبث لا جدوى منه ، انحتم أن يكونوا أمامه محل السخرية والتهكم ، لما هم عليه من عبث وغرور ، وأن يكون هو منهم المستهزىء بهم الضاحك عليهم ، لما ركب فى طبعه من تشاؤم جعله يستخف بالدنيا استخفافا يحقر فيها كل نعيم ويسلبها ما يستحق أن يعمل له ويسعى إليه ، هذا إلى تجرده من الغرور والعبث ، بقدر ماغرق فيه الناس إلى الأذقان . ولقد قوى من ذلك التشاؤم فى نفسه ، ما جبل عليه من دقة إحساس أضفى عليه رهافة الشعور ، ومن توقد ذكاء أنفذه إلى خبايا الأشياء وبواطن الأمور ، فنأى بجانبه عن أن يكون محل هزؤ وسخرية ، وتأصل هذا النأى فى نفسه ، حتى ضرب عليها العزلة ، التى رأى فيها دون غيرها ، الوقاية مما يخاف ، ولكن نصب نفسه فى عزلته للسخرية من الدنيا وما فيها ، وبخاصة الناس ، بل للسخرية من الآخرة والدين فى غير احتراس ، وظهر هذا فى أدبه من شعر ونثر ، متجليا فى الأول أكثر ما تجلى فى اللزوميات ، ومتألقا فى الثانى أكثر ما تألق فى

رسالة الغفران ، على أن سخريته جاءت فى الأولى — ولا شأن لنا بها الآن — عابسة جادة قاسية ، بقدر ما جاءت فى الثانية باسمة ما جنة آسية ، كالذى تراه بعد، فى بعض ما يساق من حديث : —

١ — سخر أبو العلاء فى رسالته من النحويين ، حين جعل شيخها ابن القارح على بن منصور يقول لعدى بن زيد « لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به سيبويه وهو قولك .

أرواح مودع أم بكور أنت فانظر لأى حال تسير

فانه يزعم أن أنت يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر ، وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته ، نعم استهزأ بهم حين جعل عديا يرد على الشيخ فيقول «دعنى من هذه الأباطيل » .

وأمعن فى السخرية بهم ، حين جعل الشيخ وقد ذكر وهو لدى خزنة النار المهلهل عدى بن ربيعة التغلبى وسأل عنه باسمه فقيل له زد فى البيان فقال ، الذى يستشهد النحويون بقوله .

ضربت صدرها الى وقالت يا عديا لقد وقتك الأواقى

وقوله

ولقد خبطن بيوت يشكر خبطة أخوالنا وهم بنو الأعمام

وقوله

ما أرجى بالعيش بعد ندامى كلهم قد سقوا بكأس حلاق

كما استشهدوا له بأبيات غيرها ، فيقول الخزنة «يا هذا إنك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا منه ، ما النحويون ؟ وما الاستشهاد ؟ وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنة النار فبين غرضك تجب إليه .

٢ — وسخر أبو العلاء من اللغويين ، حين حشا رسالته بغريب اللغة الذى لم تكن تدعو إليه حاجة من بيان ، وكيف والبيان يدعو إلى نبذه وتركه ، والذى لم تدفعه إليه خلة من طبعه ، تكون لو كانت الغرور ، وكيف وقد كان فى غير خلاف ، أشد الناس تواضعا وأبعدهم من غرور وإعجاب ، لا من أشدهم وأبعدهم

إنما هى السخرية باللغويين ، والرغبة فى أن يلهيهم بما اعتادوا أن يلهوا به من غريب ، متكلفا منه أشد التكلف ، ومعنا فيه أيما إمعان ، استمع إليه يقول « أمرهين لا يعدل بنبت من حصيص أو ماحقر من خربصيص ، يعنى بالأولى بقلة رملية حامضة ، وبالثانية حصية فى الرمل ذات بصيص ، ويقول « وأنت لاه بعفارتك » أى خبثك ، ويقول « فوجدت حسناتى قليلة كالنفأ فى العام الأرمل » يعنى القطع المتفرقة من النبت ، ويقول « من هذا الأتاوى » ؟ أى الغريب ، ويقول « فاذا حصلت النحوص فوق الأوفاض » يعنى اللحوم والأوضام ، ويقول « وهى ذات أدحال وغماليل » يعنى مصانع الماء وأودية النبات ، ويقول « فجعلوا يتفكنون » أى يتعجبون ، وهكذا مما لا تعليل لوجوده إلا ما ذكرنا ، من السخرية باللغويين وتلهيتهم بما اعتادوا أن يلهوا به ويتهالكوا عليه .

٣ — وسخر أبو العلاء من الشعراء فى شخص الحطيئة إذ كان أحقهم بالسخر ، وذلك حين يقول عن الشيخ وهو يسير فى الجنة « فيذهب فاذا هو ببيت فى أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ، وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك ، فيقول له يا عبد الله لقد رضيت بحقير : فيقول الرجل ، والله ما وصلت إليه إلا بعد دياط ومياط ، وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن ، فيقول له من أنت فيقول أنا الحطيئة » فأنت تراه لم يرض له فى الجنة إلا بكوخ حقير فى أقصاها ، على كثرة بيوتها المتوسطة العظيمة ، ثم لا يكون عنده من الشجر ، وما الجنة إلا الشجر ، إلا واحدة قصيرة خبيثة الثمر ، ويأبى إلا أن ينزع عنه النور الذى لسكان الجنة ، ويذكر أنه لم يصل إلى ذلك ، إلا بعد جهد ومشقة ، ولا ينهى الحديث عنه ، حتى يسجل خبث نفسه الذى كان له طبعا ، فيجعله يجحد شفاعة قريش فى دخول الجنة إذ يود أنها لم تكن .

٤ — وسخر من الأدباء فى شخص شيخ الرسالة نفسه ، وفى الصدر منها ، حيث يقول بعد أن أثنى على رسالته إليه « وقد غرس لمولانا الشيخ الجليل إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط ، والولدان المخلدون ، فى ظلال تلك الشجر ، قيام وقعود يقولون ،

ـ والله القادر على كل شيء عزيز ـ نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى بن منصور ، تخبأ له إلى نفخ الصور . . . ، وكأنه وضع بين الولدان وما يقولون ، هذه الجملة « والله القادر على كل شيء عزيز » كيلا يفطن ابن القارح إلى هزئه بعقله فيما يقول .

٥ — وسخر من الآخرة فى نعيم جنتها وجحيم نارها ، فقد صور ذلك النعيم وما فيه ، بالصور الممعنة فى التخيل والتوهم ، من حيث المآكل والمشارب ، والكسا والمساكن ، وسائر المتع ، كالتلذذ بالحور الحسان المنشقة عنها الثمار ، والتشنف بالقيان المنتفضة عن الأوز مغنيات بأعذب الألحان ، وصور الله سبحانه إزاء ذلك التنعم ، بصورة الخالص لهذا التنعيم يفتن فيه ويغالى ، كأنه لا عمل له سواه ، ثم نكص على عقبيه يتنقص هذا النعيم ، ويظهر أهل الجنة حياله ، بمظهر الزاهد فيه ، المتمنى بعض ما كان فى الدنيا من متاع ، كالمأدبة التى أرادها شيخ الرسالة فى الجنة للأدباء أن تكون من مآدب الدنيا ، وكالشراب الذى أراده أبو ذؤيب لنفسه ، حلوب ناقته مشوبا بجنى النحل ، كما كان يفعل فى دنياه ، إلى غير هذا وهذا من أشباه وأمثال ، كما صور جحيم النار بالصورة التى ليس فيها قوة الردع ، والتى تدع أهلها لا يزالون يفوهون ، بما ليس معقولا صدوره ، عمن فى مثل عذابهم لو كان للعذاب بالغ الايلام ، ومن آيات ذلك ولعلها آية الآيات ، إظهاره إبليس وهو فى جهنم يصلى نارها ، بمظهر الذى لم يكف عن غوايته والذى لا يزال يحاول فتنة أهل الجنان ، استمع إليه يقول عن لسانه للشيخ « إن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ، واستمع إليه يقول للزبانية وهو بين أيديهم فى المقامع والأغلال ، حين أطال الشيخ تقريع الأخطل على مسمع منه ، وهو ينظر إليه فى النار ، « ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية ، لوثب إليه وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى النار » .

٦ — وأخيرا سخر بالدين فى أعظم صلاته بالله وهو القضاء ، ها هو ذا يروى عن أوس بن حجر أنه قال وهو فى النار معترضا على قضاء الله « ولقد دخل الجنة

من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق ، كأنها النشب فى الدار العاجلة ، وهاهوذا يذكر عن النابغة الجعدى وهو يروى خصامه فى الجنة مع الأعشى ، أنه قال لهذا الأخير فيما قال، وهو أمعن فى الاعتراض على ذلك القضاء « اسكت ياضل بن ضل فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاءالله ، لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولوجاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك » .

وبعد فهكذا كان أبو العلاء كثير السخرية فى رسالته ، إلى درجة جعلت الأستاذ العقاد يقول عن هذه الناحية منها « وحسبنا أن نقول إن الرسالة كلها ، فى وضعها وفى تركيبها ، وفيما بدا من معانيها القريبة ، وما انطوت عليه من المغازى البعيدة والمضامين الخفية ، إن هى إلا ضحكة واحدة متصلة ، يجهر بها المعرى حينا ويوارب بها أحيانا ، وقد يغرق فى السخر حين يوارب ويدارى ، حتى تخاله ساخرا من السخر ، مترفعا عن الاهتمام باظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته » .

وهكذا كان أبو العلاء جريئا فى تلك السخرية حتى على الدين وعلى الله ، إلى درجة جعلت الدكتور ط ، مع إعجابه بما كتب العقاد عن سخريتها ، يأخذ عليه عدم تعرضه لهذه الناحية الجريئة فيها فيقول « إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن فيه شيئا من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس جميعا مثلى ، يكرهون أنصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء » .

السباعى بيومى

فى ذمة الله المرحوم

الأستاذ محمد عبد المنعم خطاب

للاستاذ السيد احمد العجاوى

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله — دوما — فإننى رأيت - الصديق - الحر ليس له عمر

فى يوم الثلاثاء ، ٢٥ من ربيع الثانى ، سنة ١٣٦٦ ، الموافق ١٨ من شهر مارس ١٩٤٧ ، اختار الله لجواره شابا تقيا . وعالما مهذبا ، وصديقا وفيا ، كان فى حياته مثال الطهر ، والوداعة ، والجد ، والاستقامة ، طالبا ومدرسا ، هو المرحوم الأستاذ محمد عبد المنعم مصطفى خطاب . المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنات .

التحق بتجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٧ ، وكان معروفا بين رفاقه وأساتذته ، بقامته المديدة ، وعينيه الواسعتين ، وتوفره على التحصيل والدرس ، وتحسين الخطوط ، وجمال الكتابة . واشتهر بالحياء البالغ ، والخجل الشديد ، والابتسامة الهادئة ، مع بعد عن الجدل ونفور من الخصام ، فى صلاح ، وتقوى ، وعفة لسان .

لم يتغير سلوكه منذ التحق بالتجهيزية حتى تخرج فى دار العلوم ، بين الخمسة الأوائل سنة ١٩٣٦ . ولم يتغير سلوكه بعد وظيفته ، بمدرسة السلطان حسين بمصر الجديدة ، ومدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا ، والفنون الطرزية بالظاهر ، وطنطا الثانوية للبنات . بل استقر فيه هذا الطبع ، وتمكنت منه تلك الفضائل . وظهرت مواهبه فنفح أصدقاءه الوفاء ، وصدق الأخوة ، ولطف العشرة ، وكريم المجاملة ، وأدب الحديث ، وكان يتفقدهم . ويسعى إليهم . كما كان شديد المحافظة على صالح تلاميذه وطالباته ، حريصا على تهذيبهم ، وهدايتهم حفيظا على توجيههم إلى المثل العليا . هذا وكان رحيم القلب ، تهزه حاجة البائس . ويبكيه منظر الحزين .

وكان سمحا إذا باع وإذا اشترى ، ولعل ذلك راجع إلى فرط حيائه . وشدة خجله.

وكان يقدر كل إنسان ، ويحفظ لأساتذته أسمى معانى الولاء والتقدير . وظل يضع نفسه منهم موضع الابن البار من الآباء الأجلاء .

وكان يمنح الاخلاص لمن يحب . ويفديه بروحه ، وبكل ما يملك من جهد وقوة ، لا يرتجى غرضا ، ولا يهدف إلى منفعة شخصية ، كبير الثقة بالله ، عظيم الاعتماد عليه.

وكان يحترم ويقدر العلماء وله موقف رجولة وتضحية ، وقفه بجانب المرحوم حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد صبرى أبو علم باشا — يوم زيارته لمنوف سنة ١٩٣٨ ، فتأثر له . وبقى دائما يردد : ويلاه من السياسة التى تعتدى على العلماء الأفذاذ ، ويلاه من الخصومة الجامحة .

* * *

يعلم الله مقدار حزنى عليه ، ومبلغ تأثرى وبكائى وفجيعتى ولوعتى ، وكيف لا أبكيه ذوب قلبى ، وهو العف الطاهر النقى ، وهو الصديق البار الوفى ، وهو الكامل المهذب الولى ، وهو الرجل المؤدب التقى .

كان أخا وصديقا . يمثل الرجولة ومكارم الأخلاق . حتى كأنه المقصود بالقول الحكيم ؟ رب أخ لك لم تلده أمك؟

زاملته وعاشرته فأحببته ، وصافيته واصطفيته فتعلق قلبى به ، فاذا فرق الموت بينى وبينه ، فقد أسلمنى إلى الألم الممض والحزن العميق .

* * *

لا الدموع ترده ، ولا البكاء يعيده ، ولا الحزن عليه مدى الدهر يوفيه حقه،

لكنها الأقدار ليس بناجع فيها سوى التسليم والأخلاد

وسنظل نذكره ولا نبصره ، وننادیه ولا نلاقيه ، ونجزع لفقده ونتقبل العزاء فيه ، وهو الذى فقد شبابه ، ومضى بآمال وطموح وغايات ، وفارق إخوانه وصحابه . وأرمل حرمه ، ويتم أولاده وتركهم فى حزن ويتم مدى الدهر ، يتجدد ويتولد ، كلما سمعوا اسمه ، أو لمحوا رسمه ، أو ناداه « نبيل » ، أو دعاه ، « سمير »

أو قلبت فى أوراقه « وفاء » ، أو رأت ثيابه حرمه والدة هؤلاء ، أوحل موعد المدرسة ، أو دنا موسم الامتحانات . أو عادت الاجازة أو جاءت مناسبة للتعليم والمدرسة - وما أكثرها - :

أبكيه ثم أقول معتذرا له وفقت حين تركت أم دار
جاورت أعدائى. وجاور ربه شتان بين جواره وجوارى
فكأن قلبى قبره . وكأنه فى طيه سر من الأسرار

* * *

إنى أراه أمام ناظرى . انى أبصره فى قلبى . أنى أحفظ حديثه فى سمعى . هو بقامته المديدة . وابتسامته الوادعة . يكلمنى . ويأبى أن يسمح لى بالعودة الى بلدى — وقد ذهبت لزيارة بمنوف فى صيف هـذا العام — لأنه لايريد أن أفارقه . فارقنى وما نبهنى

أأعتب عليه وما آلمنى ؟ أأستطيع أن أودعه وما ودعنى ؟ أيحول القضاء دون أن أشيعه وكنت أرجو أن يشيعنى .

قد كنت أرجو أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء

معذرة إذا غلبنا الدمع والأسى . وفدحنا الخطب والردى .

رباه !! ياواسع المغفرة ، ارحم عبد المنعم، ما وسعت رحمتك .

رباه !! يا برا باليتامى ، ارع نبيلا ، وسميرا ، ووفاء ما وسع برك

رباه !! يا ملهم الصبر . أنزل السكينه والصبر على قلب زوجه الحزين

رباه ؟ أكرم مثواه . وطيب ثراه ، وأسكنه فى جناتك مع الصديقين . والشهداء . والصالحين . وحسن أولئك رفيقا .

* * *

إن الدموع قد تخف أو تجف ، ولكن يتم نبيل وسمير ووفاء — وما يزيد عمر الكبير منهم على الرابعة — سيظل وصفا يستحق عطفا . . .

ولكن . . . رعاهم الله . . . وأنت يا أباهم رحمك الله :

الصديق الحزين
السيد أحمد العجان

الفهـــــــرس

احتفال كلية دار العلوم بالمولد النبوى لسنة ١٣٦٦
بمسرح حديقة الأزبكية

١ — « للعميد والأساتذة »

صفحة	الموضوع
٣ —	كلمة التحرير
٤ — ٥	كلمة عميد الكلية زكى المهندس بك
٦ — ١٥	الهمزية العصماء للأستاذ المنشاوى
١٦ — ٢١	« ولد محمد فكان رحمة للعالمين » للأستاذ السباعى بيومى
٢٢ — ٢٦	« فلق الصباح » للأستاذ الشاعر على الجندى
٢٧ — ٣٠	« لقد من الله على المؤمنين » للأستاذ الشيخ على حسب الله
٣١ — ٣٣	« ذكرى المولد الكريم » للأستاذ الشاعر عمر الدسوقى

٢ — لجماعة الشعر بالكلية

٣٤ — ٣٥	« فجران »	للأديب احمد هيكل	من أسرة عكاظ
٣٦ — ٣٧	« موكب النور »	« محمد عبد الفتاح ابراهيم	« « المربد
٣٨ — ٣٩	« حياة فى ذكرى »	« محمد الهادى السيد اسماعيل	« « عكاظ
٤٠ —	« وحى ميلاد »	« السودانى أبى القاسم عثمان	« « المربد
٤١ — ٤٢	« الميلاد النبوى »	« رياض الحفناوى	« « عكاظ
٤٣ — ٤٤	« من وحى المولد »	« محمد هاشم عبد الدائم	« « المربد
٤٥ — ٤٦	« تفاءلت »	« كمال بسيونى	« « عكاظ
٤٧ — ٤٨	« سأصبر فى هواى »	« محمد محمد اسماعيل عبده	« « المربد
٤٩ —	« أغاريد »	« سعد دعبس	« « عكاظ
٥٠ — ٥١	« الفجر »	« السودانى محمد محمد على	« « المربد

احتفال جماعة دار العلوم بناديها به

٥٢ - ٦٨ « تحقيق مولد النبي » للأستاذ محمد فياض بك
٦٩ - ٧٠ قصيدة الأستاذ محمد حليم عبد الحى
٧١ - ٧٥ « فى رسالة الغفران » للأستاذ السباعى بيومى (٤)
٧٦ - ٧٨ فى ذمة الله المرحوم محمد عبد المنعم خطاب للأستاذ السيد احمد العجان
٧٩ - ٨٠ الفهرس